
وزارة
الإرشاد القومي
مراقبة الشئون الثقافية
ثورات وعروش
حسن الشريف

حسن الشريف

ثورات وعروش



ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

مطبعة لجنة البيان العربي
ت ٢٧٠٧٩

أسرار العروش

كانت ستيفانى وحيدة أبيها السكونت كلود بوهارنيه الذى هجر فرنسا فيمن هجروها عند ما هبت ريح الثورة الكبرى وجردت حكومة الشعب أشراف البلاد ونبلاءها من الألقاب والأموال ، فلم يعد إليها إلا بعد أن هدأت العاصفة واستقرت الأحوال ووليت الأمر حكومة القناصل برياسة القنصل الأكبر بونابرت .

وكانت أمها مريضة تشعر بدنو الأجل ، وقد خافت على طفلتها أن تعيل فى ذلك البلد المضطرب الذى لم يبق لها فيه أهل ولا مال ، فجعلتها وديعة عند صديقة لها ايرلندية الأصل تدعى الليدى لورا باث .

وقضت الأم نحبها بعد هجرة زوجها بعامين ، وانتقلت ستيفانى إلى كنف السيدة الإيرلندية المحسنة ، وظلت تنعم ببرها وعطفها إلى أن شرعت الحكومة الثورية فى اضطهاد الأجانب ونفيهم من أرض الجمهورية ، فاضطرت ليدى باث إلى الرحيل عن هذا الوطن الثانى الذى أحبته وهنئت بالحياة فيه . ولقد كانت تود مخلصة لو تستطيع أن تصطحب إلى بلدها هذه اليتيمة العزيزة التى اتخذتها سلوة لشيخوختها وأنسا لوحدتها ، ولكن كانت الهجرة محظورة والرقابة شديدة والقوانين جائرة تعتبر المهاجر فاراً

وتعاقبه بالإعدام . فلما لم تستطع أن ترحل بها أوصت عليها راهبة نبيلة
راهبات دير سانسير تدعى مدام تريليساك ووعدتها بأن توافيها الفينة
الفينة بما يقوم بأود الفتاة ويكفيها ذل السؤال .

بيد أن أهوال عهد الإرهاب التى لم تقف عند حد قضت بإغا
الأديرة والكنائس وبإلغاء الشعائر والأديان وبإهدار دم القساوس
والرهبان ، ففرت الراهبة النبيلة من باريس إلى بيت أهلها فى الر
واصطحبت الفتاة لتعنى بها ولتربيها إلى أن يقضى الله فى أمرها بما يشا

ونشأت ستيفانى نشأة ريفية لا أثر فيها من الترف والرفاهية ، وكا
لا تنتظر من الحياة شيئاً ولا ترجو من الأيام أمراً سوى أن تسمح الحكو
بفتح الأديرة فتدخل واحداً منها تنقطع فيه للعبادة والصلاة . ولقد كا
تقنع بهذا القدر المتواضع من السعادة والهناء لولا أن للأيام نزوات كنزو
القادر العابث الذى يعطى ويسلب ويمنح ويمنع بلا مقدمات ولغير ما تقد
وبغير ما حساب .

ولقد كرت السنون وبلغت ستيفانى الحادية عشرة من عمرها ، فكا
قسمات وجهها وجسمها تنبىء بجمال فاتن لا يزال فى دور التكوين والا كتما
وتبشر بغادة هيفاء سوف تشخص إلى حسنها العيون وتخفق لرؤ
القلوب . ولم تكن أخبار باريس إذ ذاك تترامى إلى أقاصى الريف ، و
ترامى بعضها إليه لم ينفذ إلى العزلة الموحشة التى كانت فتاتنا تعيش فيه
لذلك لم يتناه إلى علمها أن جوزفين أرملة عمها الجنرال بوهارنيه قد تزو-

برجل اسمه نابليون بونابرت كان الناس يرددون اسمه ويكثرون من التحدث عنه فى تلك الأيام . ومن يدرى ؟ فلعل مدام دوتريليساك لم تشأ أن تؤلم عزة فتاتها فكتمت عنها نبأ ذلك الزواج الذى لا يتوافر فيه شرط الكفاءة من ناحية الزوج والذى لا يشرف أسرة عريقة فى النبل كأسرة بوهارنيه .

ولكم كانت دهشة ستيفانى كبيرة يوم وقفت مركبة فخمة أمام باب البيت الريفى ونزل منها رجلان مهيبا الطلعة مزركشا الثياب ، تقدم أحدهما إلى مدام تريليساك بصفته مدير الإقليم وأفضى إليها بأن لديه أمراً مكتوباً من القنصل الأكبر بونابرت بأن يتسلم الآنسة ستيفانى دى بوهارنيه وبأن يرسلها إليه مع الأمين الموفد منه لهذا الغرض لتعيش مع عمتها جوزفين فى قصر التويلرى .

أما كيف انتهى خبر هذه الفتاة إلى مسامع بونابرت فشىء لا نعرفه على وجه التحقيق ، ولكنا نعرف أن جوزفين كانت شديدة الاهتمام بأمر النبلاء المهاجرين وأنها طالما توسطت بنفوذها لدى زوجها فى السماح للكثير منهم بالعودة إلى الوطن بعد طول الاغتراب ، فإذا كان هذا شأنها مع الغرباء عنها فمن المعقول بداهة أنها بدأت بأهلها وأقاربها وعملت على أن تعوضهم عما أصابهم من البلاء فى زمن الثورة وعهد الإرهاب .

وإذ كان بونابرت كثير البر بأهله دائب العناية بأقارب امرأته فقد عافت كرامته أن تعيش فتاة تمت إليه بهذا النسب عالة على سيدة بريطانية تتصدق عليها . وإذ كان أيضاً فى ذلك الوقت مهتما بأن يشق لنفسه الطريق

إلى العرش ويمهد لقيام امبراطوريته فقد رأى أن يؤوى إليه تلك اليتيمة وأن يجعل لها مكانا فى شبكة المصاهرات التى اعتزم أن ينصبها ليربط بها أسرته العتيدة إلى الأسر المالكة فى أوربا ويقوى بها سلسلة المعاهدات السياسية التى عقدها مع بعض الدول الأوربية .

ولقد أراد أن يهيئها للحياة الجديدة التى يعدها لها ، فعهد بها إلى مدام كمبان مربية أولاد الملك السابق لويس السادس عشر لتهذبها ولتلقنها آداب الحياة الاجتماعية وأصول المعيشة فى القصور . ولبثت الفتاة فى معهد مدام كمبان بضع سنين خرجت منه بعدها مكتملة الجمال ذكية مرحة تنشر البشر والأنس فى قصر التويلرى .

وكان الجنرال بونابرت فى تلك الأثناء قد قفز إلى العرش باسم الإمبراطور نابليون الأول وفرغ من بعض حروبه مع النمسا وغيرها وعاد إلى باريس ليستجم ويستريح . فوجد أمامه تلك الفتاة الناشئة وأعجبه منها الحسن وإشراق الطلعة والرشاقة وحلو الحديث ولذعة النكتة وعبث الأطفال ، فهفا لها قلبه وارتاحت إليها نفسه وقربها منه ورفع الحواجز من بين مقامه ومقامها وأعفاها من القيود والتقاليد واتخذها سلوة له يداعبها ويمازحها وينصرها ظالمة أو مظلومة على الجميع .

ولقد أحست الفتاة سمو مكانتها فى قلب الإمبراطور وعرفت ما يروقه منها فكانت تزيده من عبثها ومجونها وتتقرب منه بكل ما تعلم أنه يرغبه فيها ويشهيها إليه ، حتى إذا شعرت أنه يحاول تجاوز الحدود التى رسمتها

لعلاقتها به وآنست أن نفسه تحدثه باقتطاف تلك الفاكهة التى طالما رنت إليها عيناه ، أجفلت منه فى تمنع يزيده رغبة وأفلتت من بين ذراعيه بلباقة تغريه بالتمادى وتشجعه على الاسترسال .

كانت طماحة النفس كثيرة المطامع . وإذا لم تكن تعرف ، لحداثة سنها ، شيئاً معيناً تحصر فيه مطامعها وتوجه إليه مساعيها ، فقد كانت تعرف أن الإمبراطور قادر على كل شىء حتى ليخلق لها ما لا تعلم وما لا يخطر لها فى الرؤى والأحلام . لذلك حصرت همها فى أن تترضاه وتكتسب مودته وعطفه ، واضعة جمالها المثير وجسمها الشهى أمام عينيه كالهدف السهل الممتنع ، قاصرة خلواتها به على نوع من المخادنة المتسامحة تستباح فيه أشياء كثيرة ولكنه يقف عند حد معلوم .

ولقد كانت جوزفين زوجة نابليون ترقب هذه الحالة فى ضجر وقلق ، وقد بدأ صل الغيرة يتلوى فى صدرها وينهش فؤادها ، فندمت على الحسنى التى أسلفتها لستيفانى ولعنت اليوم الذى أدنتها فيه من الإمبراطور ، ولكن ما حيلتها فى هذه الدخيلة اللطيفة التى لها من شبابها وجمالها درع لا تنفذ منه السهام ، ومن منزلتها فى قلب نابليون حصن لا يرق إليه الكيد ولا تعمل فيه السمايات .

وشاورت جوزفين نفسها فرأت أن تنفر الفتاة من حياة القصر عسى أن تغضب فترحل ، فجعلت تزدريها وتهون من شأنها أمام الناس ، واستعانت على ذلك بالأميرات شقيقات زوجها اللاتى كن يتمعضن من سلوك ستيفانى

حيالهن ويضقن صدراً كلما رأينها تتخطى الحدود فى حضرتهن . ولكن الفتاة الذكية كانت تستخف بكل ذلك وتتغاضى عنه فتتمادى فى مرحها وزهوها غير عابئة بأحد ولا آبهة لاعتبار ، عالمة أن لها من حب الإمبراطور وحمايته ما يقيها كل سوء .

ولقد حدث ذات ليلة أن كان بهو الاستقبال فى قصر التويلرى يموج بضيوف نابليون ، وقد جلست جوزفين بين لفيف من الأميرات واصطف الرجال والنساء صفوفاً لاستقبال الإمبراطور ، ولاحظت الأميرة كارولين أن ستيفانى ليست بين الواقفات فافتقدتها فألفتها جالسة على أريكة لا يجوز لغير الأميرات أن يجلس عليها ، فهرعت إليها وسلطت عليها عينين تطفحان مقتاً وازدراء وصاحت فى وجهها : « إن من كان مثلك يا هذه لا يجوز له أن يجلس فى حضرة الإمبراطورة والأميرات » فنهضت ستيفانى وقد احمر وجهها خجلا من أثر الإهانة وجعلت تبكى وتشهق فى البكاء ، وفى هذه اللحظة أقبل نابليون وجال جولة بين المدعوين يحييهم بالإيماءات والبسمات فلما صار أمام ستيفانى ورأى الدموع تقطر من عينيها رفع بسبابته طرف ذقنها وقال : « إنك تبكين يا بنيتى فما الذى يبكيك ؟ » وحاولت الفتاة المدللة أن تتكلم ولكن العبرات حبست الكلام فى حلقها فلم تنطق ، فولى الإمبراطور وجهه شطر جوزفين مستفهماً ، فلما علم ما كان من أمر شقيقته همهم قائلا : « يالها من وحش ! » واقتاد الفتاة من ذراعها وجلس على أريكته وأجلسها على ركبته وجعل يمسح شعرها بكفه ثم قال بصوت

مسموع : « اجلسي هنا يا بنيّ فإنك لا تزاحمين أحداً فى هذا المكان » .
وإذ رأى امرأته وشقيقاته يتميزن من الغيظ استطرد فقال : « ما دام هؤلاء الناس يضنون عليك بكرسي تقتعدينه فوالله لأجعلن لك عرشاً تجلسين عليه » ونادى كبير أمنائه وأملى عليه هذا النطق الإمبراطورى :

« بما أن مشيئتنا اقتضت أن نتبنى الآنسة ستيفانى ده بوهارنيه فقد تعين أن تمنح ابنتنا هذه كل حقوق صاحبات السمو الأميرات وامتيازاتهن، على أن تتقدمهن جميعاً فى الحفلات الرسمية والاستقبالات ، وعلى أن يكون مكانها فى المآدب الرسمية إلى جانبنا مباشرة وعلى يمين جلالة الإمبراطورة فى حالة غيابنا » .

وربت بكفه على كتف ستيفانى وجفف دموعها بمنديله وقال : « لا تظنى يا حبيبتى أن هذا كل شئ ، فسأبحث لك غداً عن عرش يليق بك وستكونين أجمل الملكات . . يا حضرة الدوق رئيس الديوان . . ضع على مكتبي غداً قائمة بأسماء ملوك أوربا وأمرائها غير المتزوجين الذين تتراوح أسنانهم بين العشرين والخامسة والثلاثين » .

ولا يدهشن القارئ هذا الجبروت، فإن خريطة أوربا كانت أمام نابليون كرقعة الشطرنج والملوك فيها كقطع تلك اللعبة ينقلها كما يشاء ويضعها حيث يشاء . فلقد نصب أخاه ملكا على أسبانيا ، وأخاه الثانى ملكا على هولاندة ، وأخاه الثالث ملكا على وستفاليا ، وأحد قواده ملكا على نابولى ، وقائداً آخر ملكا على السويد ، ونصب ابنه ساعة مولده ملكا على روما ،

ثم عاد فوزع إخوانه وقريباته على عروش أوربا وفرض التزوج بهن على الملوك كأنما كانت أوربا أسرة واسعة هو كبيرها المهيمن على شؤونها .

وإذ كان نابليون اعتزم إعلان الحرب على روسيا فقد رأى أن يضمن وقوف ملوك الدول الألمانية فى صفه أو أن يضمن على الأقل حيادهم المشرب بالعطف عليه ، ووجد أن خير وسيلة لبلوغ هذا الغرض إنما تكون بربط هؤلاء الملوك إليه بروابط المصاهرة .

وكان قد حدث قبيل ذلك أن خطب الغراندوق فريدريك صاحب إمارة بادن الأميرة أوجستا بنت ملك بافاريا لتكون زوجة لحفيده وولى عهده الأمير شارل ، فلما انتهى مشروع هذا الزواج إلى مسامع نابليون كتب إلى الملكين يأمرهما بفسخ الخطبة ويقول إنه أعد لأوجستا زوجا من عنده وهو الأمير أوجين ابن زوجته جوزفين . ولقد حاول الملكان أن يصرفاه عن الاعتراض قائلين إن مشروع ذلك الزواج قديم وإن الخطيبين متحابان يشق على كل منهما الافتراق عن الآخر ، ولكن نابليون لم يشأ أن يقيم لهذه الاعتبارات وزناً وأبى إلا أن تزف الأميرة الألمانية إلى ربيبه فزفت إليه .

وهكذا بقى الأمير شارل ولى عهد بادن عزبا لا يملك جده تزويجه بالمرأة التى يريدها . ولقد ارتأى الغراندوق من الخير ألا يقدم على مغامرة أخرى تنتهى إلى الفشل والخيبة كما انتهت سابقتها ، فكتب إلى الإمبراطور نابليون يسأله رأيه فى زواج هذا الشاب الذى انتزعت منه خطيبته قسراً

فأجابه نابليون بأنه قد أعد للشاب زوجة من عنده وهى الأميرة ستيفانى ده بوهارنيه .

واستسلم الشيخ لمشيئة ذلك الجبار المستبد الذى يزوج النـاس رغم أنوفهم . ولبث ينتظر أن تهبط عليه تلك المشيئة بأوامرها ونواهيها . أما الأمير ولى العهد فقد كانت أميرات الدنيا كلها تستوين لديه لأنه كان يفضل عليهن جميعا خادمات أمه وبنات عساكر الحرس وما يتيسر له صيده من نساء الحاشية . ولـكن بقيت أمه المرجرافة آميليا[١] وقد كبر عليها الأمر وهال كبرياءها أن يرغم ابنها على التزوج بفتاة إن تـكن نبيلة فهى ليست من سلالة الملوك . ولقد عارضت الاقتراح بعنف وأكدت أنها لا تطيق هذا التدخل ولا تصبر عليه ، وقالت إنها — وهى التى زوجت ابنتها الـكبرى بملك السويد وابنتها الصغرى بقيصر الروسيا — لا ترضى أن تزف إلى ابنها فتاة « لا تدرى من أين جاء بها نابليون » .

وكان الإمبراطور يعرف من كبرياء هذه المرأة الشىء الـكثير ، فصبر عليها إلى أن عرج على مدينة كارلسر وهى عاصمة بادن فى عودته المظفرة من معركة أوسترليتس ، وهناك التقى بها واستفسرها سر معارضتها تزويج ابنها بالفتاة التى اختارها له وقال : « كنت أحسب أنـكم سترحبون بهذه المصاهرة أو ترجونها فمالى أراكم مترددين ؟ » فتلعثمت المرجرافة ثم استجمعت شجاعتها وقالت : « كيف نرحب بها أو نرجوها يامولاى وأنا

(١) المرجراف « **Margrave** » لقب من ألقاب الامارة فى ألمانيا القديمة .

كما تعلم أميرة ألمانية ويداك لا تزالان تقطران من دم ألمانيا ؟ وبعد فأنت تحارب اثنين من أصهارى : قيصر الروسيا وملك السويد ، فهل ترى جلالتك أن الظرف مناسب لقيام هذه المصاهرة ؟ » فنظر إليها نابليون مدهوشا من جرأتها وقال : « ثم ماذا ؟ » قالت : « ولو كانت الفتاة التى تقدمها إلينا من أهلك أو على الأقل تمت إليك بنسب لقبلناها راضين مغتبطين ، أما وهى غريبة عنك يا مولاى فكيف تلزمنا بها وتفرضها علينا وتريد أن تقحمها فى أسر الملوك ؟ » فسلط عليها نابليون وهج عينيه وصاح : « حسبك يا سيدتى ! لقد تبنيتها ... فهل يترفع آل بادن عن مصاهرتى ؟ ... إنى أريد هذا الزواج وسيتم لى ما أريد وإلا محوت بجرة قلم اسم مملكة بادن من ثبت الممالك المستقلة » .

عندئذ بهتت المرجرافة وأطرقت ولم تستطع أن ترفع رأسها أمام ذلك الأفاق المتوج الذى يهدد الدول بمحو اسمها من سجل الممالك ، والذى يخلع على فتاة تكاد تكون من عامة الناس لقباً لا يكتسب إلا بالوراثة على ممر القرون . وانتهز نابليون فرصة اضطرابها وتشتت صوابها فنهض وقال وهو ينصرف : « أريد جواباً قبل هذا المساء » .

وجاءه الجواب قبل المساء بما ينتظر . فلقد اجتمعت الأسرة المالكة ووازنت بين الأمرين اللذين لا محيص لها من مواجهة أحدهما وهما قبول مشروع الزواج أو التعرض لزوال العرش والتاج ، فرضيت بما فرض عليها وتقرر أن يقام مهرجان العرس بباريس عقب وصول الإمبراطور إليها .

وأقيم المهرجان وغادر العروسان باريس ووصلا فى شهر يوليو سنة ١٨١٠ إلى مدينة كارلسر وهى عاصمة دوقية بادن . ولم تكد الشابة تدخل القصر الدوقى الذى ستعيش فيه حتى أحست الفرق بين وحشة هذا القصر وبهجة قصر التويلرى وشعرت بانقباض شديد حاولت أن تتغلب عليه بقوة إرادتها وبصدق رغبتها فى أن تعيش عيشة زوجية هادئة .

بيد أن الأيام لم تلبث حتى كشفت لها عما لم تكن تعرف من أخلاق زوجها ، فلقد عاودت الأمير شارل ميوله الخبيثة فانطلق يتصيد الخادمات فى القصر والفلاحات فى الحقول ويهجر زوجته ويغيب عنها فلا يكلف نفسه مشقة التفاهم والاعتذار .

ولقد كانت ستيفانى تعانى كل ذلك بحسرة وألم وتحاول أن تتصبر وتتشجع آملة أن تتملك قلب زوجها يوما بجمالها وكمالها ولطف خصالها ، ولكن الزوج لم يزدد إلا تمادياً فى غيه وإمعاناً فى شهواته غير مبال بذلك القلب الذى قطعت الغيرة نياطه ولا بتلك الجفون التى قرحها طول السهر وفرط البكاء .

على أن همومها وأحزانها لو وقفت عند هذا الحد لهانت ولكن كان ينتظرها ما هو أدهى وأمر .

كان الغراندوق فريديريك صاحب الدوقية قد جاوز الستين وأرمل منذ سنين ومع ذلك خطر له أن يتزوج . ولقد خافت المرجرافة آميليا — التى كان لها حق التقدم على سائر أميرات البيت المالك بصفتها أم ولى

العهد — أن يصاهر حموها إحدى الأسر المالكة الأجنبية فتأتى الزوجة الجديدة وتنتزع منها هذا الحق الذى تعتز به وتحرص عليه .

ولقد أوحى إليها ذكاؤها أن تتحاشى هذه المصاهرة فدفعت إلى أحضان حميها فتاة من وصيفاتها اسمها لويزة جايير وهى شابة يتيمة فى العشرين من عمرها كانت تربيها وتحسن إليها وتثق بولائها ووفائها ثقة كبيرة ولا تتوقع أن يقوم بينهما خلاف فى يوم من الأيام . وظنت المرحرافة أنها أهدت إلى حميها امرأة لا خطر لها ولا قيمة ستعرف لسيدتها الكريمة ما أسلفت لها من المروءة والإحسان ، واطمأنت إلى ذلك وشكرت لله نجاح سعيها وباتت هادئة الفؤاد كمن دفع عن نفسه شراً واستراح .

ولكن لويزة جايير كانت جذابة فاتنة ، تبدو فى ظواهر ساذجة بريئة وتخفى فى ثنيات نفسها روحاً طماحة شريرة . فما لبثت بعد زواجها حتى استولت على عقل الغراندوق الشيخ وتسلطت على إرادته فصارت لها الكلمة النافذة عنده توجهه كما تشاء وتنال منه كل ما تشاء .

ولقد أنجبت فى خلال السنوات الأولى لزواجها بنتاً وثلاثة غلمان كان مولد كل منهم يثير الدهشة والعجب فى نفوس الناس ويبعث الابتسامات إلى شفاه الملوك والأمراء الذين كانوا يعلمون أنها إنما رزقتهم من عشيقها الدوق لودفيج ابن عم زوجها . ولكن لويزه جايير لم تكن لتحفل بما يقال ولا لتأبه لما يشاع وإنما كان كل همها أن توطد مركزها على دعائم تكفل لها المستقبل وتقيها شر تقلبات الأيام .

ولقد سمت لدى زوجها المخبول سمى الطامعة الماهرة فنالت منه لقب « بارونة » أثر مولد ابنها البكر ، ثم لم يلبث روجها حتى رفعها إلى لقب « كونتيس » ثم أضفى عليها لقب « أميرة » فصارت تسمى الأميرة هو خبرج . ولم تكتف بتلك المنزلة الرفيعة ولا بهذه الألقاب الضخمة فحملت الغراندوق على أن يجعل أولادها أمراء فكان لها ما أرادت ، وكان نجاحها فى ذلك بمثابة الخطوة الأولى فى سبيل تحقيق مطمعها الأكبر وهو إجلاس ابنها البكر على عرش بادن يوماً من الأيام .

ولكن كيف يتحقق لها هذا المطمع ما لم تنتقل وراثة العرش من أصل الدوحة المالكة إلى الفرع الجديد الذى نشأ ثمرة لزواجها بالغراندوق فريدريك ؟ وكيف يكون هذا الانتقال ما دام الأمير شارل زوج ستيفانى وولى العهد الشرعى حيا وقد يرزق غلاماً يسد أمام أولادها السبيل ؟

الطريق إذن واضحة مرسومة ومراحلها معينة معلومة : فلا بد من التخلص من ستيفانى بفسخ زواجها بولى العهد قبل أن ترزق منه أولاداً ، أو التخلص من ولى العهد نفسه بقتله قبل أن يكون له وارث . فإذا تعذر هذا وذاك لسبب من الأسباب وشاء القدر المعاكس أن ينجب ولى العهد من ستيفانى غلاما لم يبق بد من التخلص من هذا الغلام بقتله أو خطفه وإخفائه ، وبذلك تشغر ولاية العهد من الأمراء الأصليين وتنتقل إلى الأمراء الفرعيين وفى مقدمتهم أولاد الأميرة هو خبرج .

وانطلقت المرأة الداهية تحيك الشباك للأميرة الفرنسية وتنصب فى طريقها الفخاخ وتدبر حولها المكائد والمؤامرات . وانضم إليها سائر أمراء البيت

المالك يظاهرونها ويشدون أزرها مدفوعين بعامل الحقد على ابنة ذلك الإمبراطور الجبار الذى أذلهم وأخضعهم لإرادته . فكانوا يوافون ستيفانى بأخبار زوجها ويطلعونها على خياناته عسى أن تثور فترحل ، ولكنها كانت تصبر وتتريث آملة أن يثوب شارل إلى رشده ويقلع عن غيه . فلما أضناها الصبر وأعيتها الحيل وضاقت بها السبل تأثرت أعصابها من فرط السهر والبكاء فمرضت وراح أعداؤها يشيعون أنها جنت وأن شفاءها من الجنون محال . بيد أن الله أراد لها أن تبل فأبلت وعادت لتكون قذى فى أعينهم وغصة لأنفسهم فماذا يفعلون ؟ حاولوا أن يسلطوا عليها سلطان الحب ليخرجوها من عفافها وشرفها وليشهروا بها بعد ذلك شر تشهير ، فقربوا إليها ضابطا شابا من ذلك النوع من الرجال الفتانين الذين لا تمتنع عليهم أمنع حصون الطهر والفضيلة ، وكانوا يعرفون أن ستيفانى تخصه بكثير من عطفها ومودتها وقد ظنوا أنها ستجد فى تعشق هذا الفتى الجميل عزاء لقلبها الموجع وانتقاما من زوجها لكرامتها المهدرة فلا تلبث حتى تقع فى شرك غرامه وعندئذ تقع الفضيحة الكبرى ويكون الطلاق . ولكن ستيفانى فوتت عليهم هذا القصد السيء ولم تنطل عليها الحيلة فاستعصمت وبقيت طاهرة نقية تتظاهر بأنها لم تفهم مرادهم ولم تدرك ما بيتوا لها من كيد عظيم .

عندئذ لم يبق أمامهم إلا أن ينغصوا حياتها ويبغضوا إليها الإقامة بينهم ، فجعلوا يتفننون فى إهانتها ويمعنون فى الإساءة إليها ولا يتورعون

عن تعمد تحقيرها وتصغير شأنها ، فكانوا يسخرون من مشيتها وجلستها ومن هندامها وزينتها ، ويهزأون بالصدقات التي تجود بها وبالحفلات التى تقيمها ، ولا يدعون شيئاً مما تفعله أو تقوله يمر دون أن يصبوا عليه جام تهكمهم اللاذع وانتقادهم المرير . وكانت الشابة تجاهد نفسها لكى لا تنفجر فتتظاهر بالتعالى عن هذه الصغائر ولا توليها اهتماما ، وتغض النظر عن تلك العيون المشرعة نحوها كالسهام المسمومة وعن هذه القلوب التي تفيض غيظا منها وحقداً عليها . وكانت تحاول أن تسرى عن نفسها كآبة الوحدة وتهون على قلبهــا ثقل الهموم فتقيم من وقت لآخر مأدبة عشاء أو حفلة رقص تدعو الجميع إليها فلا يلبى دعوتها إلا القليل . حتى زوجها كان يعرض عنها فى تلك الليالى وينصرف إلى دعاراته غير مبال بكرامة امرأته ولا عابىء بالمركز الحرج الذى يضعها فيه . وكانت الأميرة المحزونة تصطنع المرح وتتكلف الطرب طول تلك السهرات لكى لا تشمت أعداءها بها ؛ حتى إذا ما آوت إلى حجرة نومها أسبلت دمعها المتكبر وقاست آلام قلبها الجريح .

على أنها إذا كانت قد عدمت الأحباب والأصدقاء فى بادن فقد بقى لها فى فرنسا صديق لم يتخل عنها ولم ينسها فى البأســـــاء وهو أبوها الإمبراطور. فلقد أبلغه سفيره لدى بلاط بادن ما وصلت إليه حالها فتناول القلم وأرسل إلى الغراندوق فريدريك كتابا من تلك الكتب التى كانوا يسمونها صواعق نابليون قال فيه :

« علمت يا صاحب السمو أن حفيدكم يسيء إلى ابنتي ويسبب كثيراً من المتاعب لهذه الأميرة العزيزة التي أراه غير كفء لها وغير أهل لحبها .
ولقد أميل إلى الظن بأن ما يعترى سموكم من العلل والأمراض هو الذى يجعلكم تجهلون الدناءات التي يعاملها بها أهلكم ورجال حاشيتكم . لقد أحسنت إلى بيتكم ورضيت أن أشرفه بمصاهرتي فإن كان بين أعضاء ذلك البيت من لا يشعر بهذا الشرف أو من لا يقدره فإني هنا لأعلمه كيف يشعر به وكيف يقدره . وإذا لم يكن في استطاعة سموكم أن تحملوا حفيدكم على أن يسلك نحو امرأته مسلكا آخر أقرب إلى المروءة والشرف فإني استرد ابنتي ريثما أرى لى رأيا في أولئك الذين سببوا تعسها وشقاءها »

ولقد نزلت هذه الصاعقة على رأس الغراندوق العجوز فأذهبت البقية الباقية من صوابه فانطلق يعدو في حجرات القصر بخطواته المتعثرة حاملا الكتاب بيد ترتجف من الهول وهو يبكي ويردد كالمجنون : « الويل لنا جميعاً من نابليون فلن تقوم لنا بعد غضبته قائمة » أما الدوق لودوفيج عشيق الأميرة هو خبرج ففر من بادن كلها ولجأ إلى مكان قصى لا تصيبه فيه ضربات الإمبراطور . وأما الأمير شارل زوج ستيفانى فاعتكف أياماً في غرفة نومه لا يبرحها منتظراً ما سوف يحيق به مشدوها طائر الصواب .

وعاودت القوم فكرة محو دولتهم من خريطة أوروبا بجرة قلم يخطها نابليون فأوحت إليهم أن الحكمة كل الحكمة هي في أن يحاسنوا ابنته وأن يستغفروها لعلها تغفر ويترضوها لعلها ترضى . ورأى الدوق شارل

أن لا سلام له إلا بالتقرب من امرأته فأخذ يمهد لهذا التقرب ويسعى إليه ، ولم ينقض طويل زمن حتى ظهرت على الأميرة علامات الحمل فلما أعلنت حملها أدرك الجميع أن التصالح والتحاب قد حلا بين الزوجين محل التنابذ والجفاء .

ولقد كانت شهور حمل ستيفانى شهور قلق وهم وعناء للأميرة هوخبرج التى شعرت أن صرح أمانيها يتداعى وينهار . فلئن وضعت الفرنسية غلاما فالعرش له بعد أبيه وعفاء على الآمال التى عقدتها على أيلولة هذا العرش إلى أحد أولادها . ولكن الله سلم ووضعت ستيفانى حملها فاذا هى أنثى لا ترث العرش ، فطربت الأميرة هوخبرج واستبشرت خيراً وتجدد فى نفسها الأمل وأيقنت أن الله معها يهيىء لها السبيل إلى مطامعها الكبار

وتوفى الغراندوق فريدريك عقب ذلك بأيام بالغاً من العمر ثلاثة وثمانين عاما وتبوأ الدوق شارل عرش بادن غير منازع واقتعدت ستيفانى هذا العرش إلى جانبه تحمل لقب الغراندوقة ولا ترجو من الله أكثر من أن يهب لها غلاما يكون وليا للعهد ويرث العرش بعد أبيه .

أما زوجها فان يكن لم يقلع عن خبث طبعه ولم يكبح جماح شهواته وظل يجرى وراء الخادمات والفلاحات ، فقد كان تهديد نابليون يطن فى أذنيه ويحدثه فى كل لحظة أن هناك سيفاً معلقاً فوق رأسه وأن هذا السيف كقضاء الله يهوى على غير موعد فيجز الرقاب . ولقد آذنته حكمة الجبان أن الخير كل الخير فى مصافاة امرأته والجد فى إرضائها، وأوحى إليه الحرص على عرشه أن لا يدعه نهباً للأدعياء من أولاد الأميرة هوخبرج الذين

سيرثونه حتما إذا لم يلد غلاما يرثه من بعده ، فلم تمض شهور حتى أعلن حمل زوجته ، وفى التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨١٢ وضعت الغراندوقة ستيفانى طفلا ذكراً قرر الأطباء وقرر الذين رأوه أنه سليم التكوين قوى البنية لاعيب فيه

وسعادات قوم عند قوم مصائب ! ولعمرى أى سعادة لستيفانى أعظم من مولد هذا الطفل الذى رزقته بعد يأس فأمنها على مستقبلها ووقاها كيد أعدائها وربطها إلى بعلها برباط وثيق ؟ وأى مصيبة أعظم على الأميرة هوخبرج من هذا الطفل الذى هدم مولده صرح أمانيها وعصف بمطامعها وفوت عليها غرضاً كرست له حياتها وعقدت عليه كبار الآمال ؟

فبينما كانت ستيفانى نفساء فى سريرها راضية النفس قريرة العين تنظر إلى المستقبل نظرة الطمأنينة والرضاء ، كانت عدوتها الأميرة هوخبرج هائجة قلقة مضطربة ، تروح وتجىء كالتى يتخبطها الشيطان من المس ، لايهدأ لها بال ولا يستقر لها قرار . ماذا ؟ أيعيش الطفل ويرث العرش ويسد أمام بكرها الطريق ! لابد من التخلص من هذا الطفل بأى ثمن وبأية وسيلة ومن أى طريق !

ولقد ظلت خمسة عشر يوما تفكر وتدبر وتحكم التدبير فتختلى بأناس ذوى سحن غريبة وحركات مريبة وتطيل الاختلاء بهم ، وتختلف إلى بيوت حقيرة فى أزقة المدينة من دون أن يعلم أحد سر اختلافها إليها . ويالها من ساعات مريرة كانت تقضيها شاردة الفكر مقطبة الجبين شاخصة

إلى الأفق كأنها تحاول أن تستشف ما وراء الحجب أو أن تقرأ الغيب في لوح السماء . ويالها من ليال طوال كانت تمضيها مسهدة قريحة الجفن محمومة تنتفض كالملسوع وتتلوى كشلو تبضعه أنياب الهموم !

لم يكن قتل الطفل أو اختطافه من غرفة نومه أمراً ميسوراً ولا مأمون العاقبة ، لأن أبويه لامحالة سيثيران الأرض والسماء في سبيل معرفة القاتل أو الخاطف وستتجه الظنون أول ما تتجه إلى أعداء ستيفاني وإلى الذين لهم مصلحة في زوال هذا الطفل من الوجود .

لامندوحة إذن من اللجوء إلى طريقة لاتثير الريب ولا تحمل على البحث والتحقيق ، ولتكن هذه الطريقة أن تستبدل بالطفل السليم المعافى الراقد في فراشه الوثير طفلا آخر مريضاً مقضياً عليه بالموت القريب تضعه في سريره فيلبث به يوما أو بعض يوم ثم يقضي نحبه فيبدو موته طبيعياً لايدعو إلى التظنن والارتياب

وكان الطفل يقيم بين مرضعته وحاضناته في حجرة بعيدة عن حجرة نوم أمه وقد رضع لآخر مرة قبيل منتصف الليل ثم نام نوما هادئاً سمح للمرضعة والحاضنات أن تأوين إلى فراشهن وقد كن جميعاً يشكين من شيء كالدوار أصاب رؤوسهن وأثقل جفونهن بالنعاس فما كدن يستلقين على سررهن حتى غططن في نوم عميق

ولشد مادهشن عند ما أفقن قبيل الفجر على صوت بكاء الطفل وقمن من نومهن يترنحن كالمخمورات مصدعات الرءوس متخادلات السيقان

فألفين الطفل يتلوى ويقيء وقد تشنجت أعصابه وتقلصت عضلاته وبردت أطرافه وتغيرت ملامح وجهه وبدت على محياه أمارات مرض واعياء شديد

لقد أودعنه الفراش منذ ساعات وكان سليما لا يبكى ولا يتوجع ولا تظهر عليه أعراض مقلقة . فماذا حدث له خلال تلك الساعات ؟ وما هذا المرض الذى قلب سحنته وغير قسمات وجهه حتى ليكاد الناظر إليه يشك فى حقيقته أو لا يعرفه ؟ .

ذلك هو سر الأميرة هوخبرج . فلقد دست للمرضعة والحاضنات المخدر فى الطعام أو الشراب ، حتى إذا غططن في نومهن جاءت برجل من أولئك الذين كانت تختلى بهم فى القصر أو تختلف إلى بيوتهم فى المدينة ، فاحتمل الرضيع من سريره ووضع فى مكانه طفلا آخر لم يكن لدى أبويه شك فى أنه لن يمضى سحابة اليوم على قيد الحياة فباعاه لقاء مبلغ من المال .

ولقد حاولت مرضعة الطفل وحاضناته أن يسعفنه بما تيسر لهن من وسائل العلاج ، ولكن القيء اشتد به حتى خفن عليه أن يموت بين أيديهن ، فلم يشأن أن يخطرن أمه النفساء لكى لا يتأثر نقهها بهذا الخبر المزعج واكتفين بأن يبلغن الأمر إلى سيدهن الغراندوق الذى هاله الخبر وأسرع فاستدعى الطبيب .

وجاء الطبيب وفحص الطفل وحار فى وصف الداء إذ استحال عليه أن يوفق بين الأعراض الظاهرة أمامه والحالة التى تؤكد المرضعة أنها تركت عليها الغلام منذ ساعات ثم قرر أن الحالة جد خطيرة لا تحمل على التفاؤل ورجح أن يقضى الطفل نحبه قبل المساء .

وفى بحر النهار مات الطفل بعد آلام مبرحة ونزع مرير . واحتشد أمراء البيت المالك وأميراته حول الغراندوق شارل يعزونه ويهونون عليه وقع المصاب ، ونصحت له الأميرة هوخبرج وأيد الآخرون نصيحتها أن يترفق بصحة الغراندوقة ستيفانى فلا يفاجئها بنبأ وفاة ابنها حتى لا تنتكس ولم ير الغراندوق فى كل ذلك إلا عاطفة نبيلة توحيها الرحمة بالأم والرفق بصحتها .

وكان يومان قد انقضيا على وفاة الطفل لما دخل الغراندوق شارل على زوجته وهو يحاول أن يكفكف دموعه التى تتساقط من عينيه ، ولقد جلس إلى جانبها يربت بيده على رأسها وكتفيها ، ولم يكد ينطق بكلمات يمهد بها للنبأ الفاجع حتى أدركت ستيفانى بحدس الأم الذكية أن مصابا قد نزل بها فصاحت : « كيف حال الولد ؟ » ولما أيقنت من بكاء زوجها ومن ضمه إياها إلى صدره أن حدسها لم يخنها قفزت من سريرها وهرعت إلى غرفة الطفل مولولة : « ولدى . ولدى . » ولكنها لم تكد تقترب من الباب حتى تلقتها الأميرة هوخبرج بين ذراعيها وناشدتها أن ترحم نفسها وشبابها وأن تبتعد عن هذا المنظر الأليم . وأقبلت الأميرات الأخريات يشاطرن صاحبتهن الرأى ويلاطفن الأم المنكودة ويدفعنها فى رفق ولين إلى حجرتها مظهرات من دلائل العطف والمواساة ما جعلها تنقاد لهن وتعود أدراجها من دون أن ترى ابنها المسجى على سريره . وهكذا حمل القوم الغلام وواروه التراب ولم يسمحوا لأمه أن تتزود منه بنظرة أخيرة ولا أن تشيعه إلى القبر بقبلة الوداع .

ولقد طاب للأميرة ستيفانى أول الأمر أن تعتقد أن أعداءها قد لانت قلوبهم لمصابها ورقت عواطفهم لآلامها حتى أشفقوا عليها أن تتعرض صحتها لسوء إذا هى فجعت برؤية ابنها الميت فحالوا بينها وبينه مدفوعين بذلك الحافز الإنسانى الذى تسقط أمامه الضغائن وتمحى الأحقاد ولا يبقى محل إلا للعطف على المصاب والرثاء للمنكوب .

بيد أنها إذ خلت بنفسها أخذت تستعرض الظروف العجيبة التى توفى فيها طفلها الصغير وتحاول أن توفق بين الحالة التى تقول المرضعة أنها تركت الغلام عليها والحالة التى وجدته فيها عند الصباح فلا ترى سبيلا إلى التوفيق . واستذكرت ما قيل لها من أن سحنة الطفل قد تغيرت وملامحه تبدلت حتى كادت مرضعته تنكره أو تشك فيه ، وما نقل إليها من حيرة الطبيب فى وصف الداء ، وعجبه من أن يستشرى بالغلام إلى هذا الحد فى بضع ساعات وبغير مقدمات ، ووضعت أمام ذهنها إلى جانب كل ذلك حيلولة أعدائها بينها وبين ابنها وهو على سرير الموت ، وفكرت فى ماضى الأميرة هوخبرج معها وتمثلت سلوك هذه الشيطانة نحوها وعجبت لتلك النمرة الشرسة كيف تنقلب حيال الألم إنسانا مواسيا رحيما ، ولتلك العواطف المتحجرة كيف تستحيل ما بين ليلة وصباحها عواطف لينة كريمة تفيض عطفا وحنانا وتتفجر رقة وإخلاصاً !

وإذ جعلت تقلب هذه الأفكار فى رأسها وتزن الأشياء بميزان عقلها وإحساسها ، نبتت فى عقلها فكرة هائلة مروعة لم تستطع أول الأمر أن

تواجهها الفرط بشاعتها، فصارت تسائل نفسها رويداً رويداً وفى جزع ولهفة :
ترى هل الطفل الذى حملوه إلى القبر هو ابنى حقيقة أو هو طفل محتضر استبدل به ليوموني أن ابنى مات ؟ ولقد أخذ هذا الهاجس ينمو فى ذهنها ويتجسم ويقوى ، وكلما حاولت أن تقصيه عنها عاد يساورها فى نومها وفى يقظتها فلا يدع لها قدرة على التفكير فى شىء سواه .

ولكن أين الدليل الذى يؤيد وساوسها وهواجسها وأين القلب الشفيق الذى يحنو على لوعتها فتبثه مخاوفها وتشركه فى أمرها ، وأين الصديق الوفى الذى يؤمن بوحى قلبها وصدق حدسها فيعاونها على استكشاف الحقيقة وإزاحة الستر عن السر الرهيب ؟ لقد كانت تعيش فى جو من عداوات وأحقاد لا ذنب لها فيها سوى أنها فرنسية فى وسط قوم يكرهون الفرنسيين ، فهل من الحكمة وسداد الرأى أن تصارح هؤلاء الناس بما يساور نفسها من الريب والشكوك فيرموها مرة أخرى بالهوس والجنون ؟

كان ذلك فى سنة ١٨١٢ وقد أخذ نجم نابليون ينحدر فى الأفق ويؤذن بقرب الأفول إثر عودته من حملته على الروسيا التى هلك الجزء الأكبر من جيشه فيها تحت الثلوج ، وقد أدركت أوربا أن الحوادث كلها تبشر بسقوط العملاق ، فكان من الطبيعى أن يتأثر مركز ستيفانى بين أهل زوجها بانحطاط مركز أبيها ، وأن يرى أعداؤها فى اشتغال الإمبراطور عنها بالحوادث الجسام المحيطة به فرصة للعود إلى إذلالها وإيذائها . ولكن المصيبة المشتركة كانت قد جمعت بين قلبى الزوجين وربطتهما برباط من الحب المتبادل

والعطف الأكيد ، فكان لستيفانى من عواطف زوجها عزاء فى بلوائها وسلوة لأحزانها وحصن يقيها ضربات الأعداء ويدفع عنها كيد الكائدين .

بيد أن زوجها كان أميراً ألمانياً قبل كل شيء . وإذ كانت أوربا قد بدأت تأتمر بنابليون لتجهز عليه وأخذت تسير الجيوش لتضربه الضربة القاضية قبل أن يستجم ويسترجع قواه ، رأى الغراندوق شارل نفسه مضطراً إلى مسايرة السياسة الألمانية فى خطتها وإلى الاشتراك فى الحملة المسيرة على فرنسا . وهكذا ألفت ستيفانى نفسها مكرهة بحكم مركزها السياسى على أن تكتم ميولها وتكبت عواطفها وتقف فى الصف الذى شاءت الأقدار أن يقف فيه زوجها ضد أبيها وولى نعمتها المحبوب .

ويالله ما أقسى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه مع زوجها تستعرض الجيش المسافر لغزو وطنها وتحيى أولئك الجنود الذين سيحاربون أباها وتخطبهم فترجو لهم النصر والتوفيق وهى تتمنى فى قرارة نفسها لو ينزل الله صواعقه على هذا الجيش وعلى كل الجيوش المناصرة له فتجعله كعصف مأكول !

وإذ ارتفعت قدم نابليون بعد هزيمته فى واترلو عن تلك الهام التى طالما التصقت بالرغام ، وغاب سيفه عن تلك العيون التى لم تألف قبل ذلك أن تنظر إلى ما فوق مواطئ النعال ، وإذ لم يعد شبحه الهائل يبعث الهلع إلى القلوب والفزع إلى النفوس ، خلع الألمانيون برقع المداراة والرياء وبرزوا لستيفانى بوجوههم المتجهمة وأنيابهم الحادة وكشفوا لها عن مخبوء صدورهم وناصبوها العداء جهرة وفى وضح النهار .

ولقد صارحوا الغراندوق شارل بأنه ليس مما يجمل به أن يستبق بجانبه على عرش بادن « لقيطة فرنسية » تنتسب إلى الطاغية الذى طالما استعبدهم واستذلهم ، وزينوا له أن يقصيها عنه بالهجر أو بالطلاق . ولكن ستيفانى كانت قد أسرت زوجها بوفائها وحبها ومصائبها وتضحياتها ، فلم يكن النصائح أهله من أثر إلا ازدياد تعلقه بها وتقديره إياها فأقبل عليها بجمعة قلبه يفيض عليها من علامات حبه آيات بينات .

وشاءت الأيام أن تبسم لها مرة أخرى وأن تجبر خاطرها الكسير أو أن تلوح لها فى وسط الظلام المخيم على حياتها ببريق من النور يبعث فى نفسها الأمل والرجاء فوضعت غلاماً فى سنة ١٨١٨ وآلت هذه المرة على نفسها لتحيطنه بعنايتها ولتحرسنه بنفسها ولتقينه كل سوء . ولقد أحست مبلغ الكمد الذى حل بقلوب أعدائها حين مولد هذا الطفل الجديد ، وقاست بنظرها مدى اليأس الذى استولى على نفوسهم عندما تلألأ فى سماء القصر نجم ذلك المولود ، وأدركت أن حقدهم يلاحقه فى المهد كما لاحق أخاً له من قبل ، فحرصت عليه أن تمتد إليه يد غريبة وخصصت له شقة فى طبقة من القصر لا ينفذ إليها أحد إلا بإذنها وأقامت حوله حرساً من المرضعات والحاضنات التى تثق بولائهن وتعتمد على إخلاصهن ، ولم تتحرج فى إظهار مخاوفها والجهر بالحذر من أعدائها وظنت أنها بذلك قد جعلت طفلها فى حصن حصين . ولكن هذه الاحتياطات كلها لم تجدها نفعاً ومات الطفل بعد مولده بأسابيع أثر مرض مفاجىء قضى على حياته بعد ظهور أعراضه بساعات .

والمصائب إذا نزلت لا تنزل فرادى بل تتلاحق وتتوافى كأنها على موعد . فلم يكد الحول يتم دورته على وفاة الطفل حتى أصبح الغراندوق شارل ذات يوم فإذاً به يحس تمزيقاً فى أحشائه وناراً تلهب جوفه ، وإذا بنيته القوية وشبابه الغض لا يقويان على مقاومة هذه الأعراض الطارئة فيقضى نحبه آخر النهار . ويجئ خادمه الخاص فى اليوم التالى فيتجرع كمية كبيرة من السم تودى بحياته ولا تمكنه قبل أن تفيض روحه من أن ينطق بأكثر من هذه الكلمات : « لقد خنت سيدى ولم أطق العيش بعد هذه الخيانة ... »

وهكذا انهدم آخر صرح كانت ستيفانى تحتمى به وألفت نفسها مكشوفة فى العراء وحيدة عزلاء مستهدفة للضربات من كل صوب . فاستسلمت لقضاء الله واختارت لنفسها عزلة قصية فى قصر قديم بمدينة مانهايم وكتب عليها أن ترى ولاية العهد تنتقل إلى أكبر أولاد عدوتها الأميرة هوخبرج وأن تشهد بعينيها ذلك الزنيم يجنى ثمار جرائم أمه ويعتلى العرش ويستهل المراسيم بقوله : « نحن ليوبولد الأول غراندوق بإذن بعناية الله ... »

الملكة فكتوريا والأمير اسكندر

هذه مأساة من مآسى غرام الملوك لم تحدث فى العالم ضجة كالتى أحدثها غرام الملك كارول بمدام لوبيسكو ، أو غرام الملك إدوارد الثامن بمسز سمبسن . فهى لم تسبب طلاقا ولا أزمة دستورية ولم تسفر عن سقوط عرش أو ضياع تاج . لا بل لم تثر اهتمام المؤرخين ولا طلعة الصحفيين ، ولم تكن فى يوم من الأيام حديث العلية ولاسمر السهرات . ولولا مذكرات خاصة نشرت حديثاً وجاءت مكملة لمذكرات الملكة ڤيكتوريا ملكة انجلترا لظلت تلك المأساة سراً مجهولا ولطواها الزمن فيما يطويه من الأسرار .

كانت الملكة ڤيكتوريا تدون ذكرياتها اليومية فى مذكرة تثبت فيها أهم الحوادث التى تقع لها أو تمر أمام نظرها ، سواء أكانت هذه الحوادث عامة تتعلق بشؤون الدولة ، أم شخصية تتعلق بحياتها الخاصة. ولقد نشرت تلك المذكرات بعدوفاتها بسنين [١] فقرأ الناس فيما قرأوه فيها نتفاً مبعثرة موجزة غامضة تشير إلى زيارة القويصر [٢] اسكندر ولىعهد الروسيا للوندرة

---

(١) Journal de la Reine Victoria

(٢) القويصر ترجمة اخترتها لكلمة Tsarévitch ومعناها بالروسية « القيصر الصغير » او « ابن القيصر » وهو اللقب الذى كان يطلق على ولى العهد فى روسيا القيصرية . والقويصر اسكندر الذى نتحدث عنه هنا هو الذى اعتلى العرش فيما بعد باسم الإمبراطور اسكندر الثانى .

سنة ١٨٣٩ ، وتلمح فى خفة إلى عاطفة ميل كانت قد نبتت فى قلب الملكة نحو هذا الأمير الشاب . ولكن تلك النتف افرط إيجازها وغموضها لا تشبع طلبة الباحث ولا تروى ظمأ المؤرخ إذ لابد لها من تكملة توضح سرها وتلقى الضوء على المستور وراءها ليتم معناها فيستطيع المؤرخ أن يستنتج منها النتيجة التي يضيف بها صفحات جديدة إلى صفحات التاريخ .

ولقد أتاحت الفرصة المسعدة لهذه التكملة من بعثها من مرقدها ونفض غبار السنين عنها ، إذ عثرت النبيلة الروسية السيدة هيلين يوريفتش بين الأوراق التى خلفها حموها الجنرال سرج يوريفتش على مذكرات كان يدون فيها ذكرياته عن العهد الذى كان يشغل فيه وظيفة الرائد للقويصر اسكندر ويرافقه فى السياحات التى يقوم بها للتعرف بملوك أوربا تنفيذاً لرغبة أبيه الإمبراطور . ولقد نشرت السيدة هيلين يوريفتش هذه المذكرات[1] حديثاً فإذا هى تتضمن تفاصيل شائقة عن زيارة القويصر لبلاط إنجلترا سنة ١٨٣٩ وعن عاطفة الميل الذى نبتت إذ ذاك فى قلب الملكة فيكتوريا نحو ضيفها العظيم .

ولشد ما يغتبط المؤرخ عندما يوفق بين المذكرتين ويطبق تواريخ الواحدة على تواريخ الأخرى ويكمل النقص الشائع فى الأولى بالتفاصيل المستفيضة فى الثانية ، فيجد نفسه أمام مأساة غرامية رائعة تذيب القلوب رحمة وتستدر الدمع عطفاً وحناناً .

---

(١) Mémoires et Souvenirs par le Général S. Youriévitch



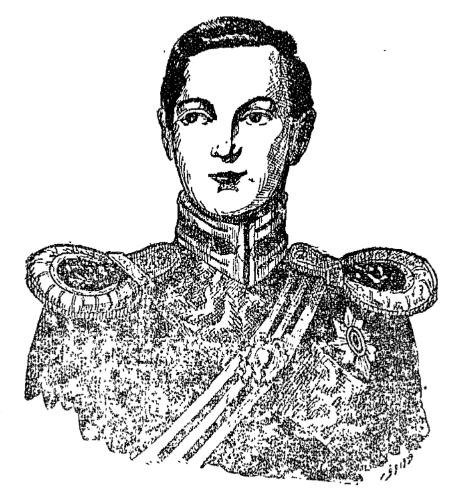
الملكة فيكتوريا فى العشرين من عمرها

كان ذلك فى سنة ١٨٣٩ ، يوم لم تكن الأخلاق ، حتى أخلاق الملوك قد تطورت إلى ما تطورت إليه فى العصر الحديث ، وحين كان للعروش قدسها وللتقاليد حكمها ، وحين كان الملوك ملوكا ، لا يخطر لأحدهم ببال أن يوازن بين تاجه وقلبه ، أو أن يضحى برسالته على مذبح هواه وحبه .

فى ربيع تلك السنة هبط القويصر اسكندر ولى عهد الروسيا بلاط انجلترا ضيفاً على الملكة فيكتوريا فى رهط من حاشيته تتمثل فى أشخاصهم عظمة روسيا القيصرية وتتجلى فى مظاهرهم فخامة بلاط آل رومانوف .

وكانت الملكة فيكتوريا إذ ذاك فتاة فى العشرين من عمرها أقرب إلى القصر منها إلى الطول ، سوداء الشعر ناعمته ، ناصعة بياض البشرة ، مشرقة الجبين ، دقيقة الأنف والفم ، رقيقة الشفتين ، حبتها الطبيعة عينين خلقتا لسحر النفوس وخطف القلوب ، واسعتين مشرعتين طويلتى الأهداب تحت حاجبين كأنهما القوسان خطتهما ريشة الرسام ، وقد برز عنقها الجميل فوق كتفين ممتلئتين وصدر مكتمل النضج ينم على أنوثة مبكرة ، وتدلى ذراعاها المدملجتان الملفوفتان إلى جانبى خصر ضامر نحيل يكاد لا ينهض بعبئيه فيتثنى بينهما تثنى الأملود . وإذا كانت الطبيعة قد أضفت على الملكة الشابة كثيراً من حسن المرأة وجمالها ، فهى لم تضن عليها بشىء من تلك القوى الجذابة التى تنبعث من خفة روح الحسناء ومن حديثها وحركاتها ومشيتها ودلالها ، والتى إذا أضيفت إلى الجمال أبرزته وعززته وجعلت منه فتنة للأعين وسحراً للقلوب .

أما القويصر اسكندر فكان فتى فى الحادية والعشرين من عمره أمرد سمهرى العود أشقر الشعر أزرق العينين تصالحت على طلعته الوضيئة ميعة الشباب ورزانة الرجولة ، وكان لطيف المعشر رقيق الفكاهة سهل الحديث ، يتنقل فى سمره من حوار إلى حوار ، ومن دعابة إلى دعابة فى خفة ورشاقة



القيصر اسكندر الثانى فى أثناء ولايته للعهد

تجعلان الاستماع إليه متعة للعقل والأذن ، وكان يجيد الرقص والرماحة والرماية والصيد ، ويحسن التكلم بالفرنسية والانجليزية والألمانية كأنه من أهلها . ولقد استمال إليه قلوب الناس ببساطته إذ كان — وهو يدرك كل الإدراك عظمة اسمه وسمو مركزه وخطر الآمال المعقودة عليه — يتناسى هذه الاعتبارات فى غير ما إهمال ولا تبذل ، فيبدو سمحاً أليفاً لا يتكلف تواضع الرفيع ولا يتصنع تنازل العظيم . واستمال قلوب النساء بشبابه ومرحه ، وبالبشر الذى كان يفيض من محياه ، وعلى الأخص بذلك النوع من الحياء المتهيب اللطيف الذى يلازم كل شاب لم يألف عشرة النساء .

ومذ التقى هذا الفتى الغض الإهاب بتلك الفتاة التى توجتها الأقدار بتاج الملك بعد أن توجتها الطبيعة بتاج الجمال ، توافق ذوقاهما وائتلفت روحاهما ونبض قلباهما بإحساس واحد لم يتبينا كنهه أول الأمر ، ولكنهما شعرا أن كلا منهما منجذب إلى الآخر بعامل غريب قوى لا يقاوم . وأنا لنكاد نلمس هذه العاطفة الناشئة فى تقدير الملكة لضيفها الشاب إذ تدون فى مذكراتها إثر المقابلة الأولى فتقول :

« السبت ٤ مايو سنة ١٨٣٩ — عند منتصف الساعة الثانية بعد ظهر اليوم ذهبت إلى مكتبى لأستقبل به الأمير ولى عهد الروسيا الذى قدمه إلىّ لورد پالمرستن ، وكان فى صحبته الكونت أورلوف والكونت بوزو دى بورجو .

« أجلست الأمير إلى جانبى وقد بدا لى طويل القامة ممشوق القد مليح قسمات الوجه وسيم الطلعة وإن لم يكن كامل الجمال . عيناه زرقاوان واسعتان وأنفه دقيق وله فم حلو تنبعث منه ابتسامات ذات وميض ساحر جذاب » .

« انتقلت به إلى البهو الكبير حيث قدم إلىّ كبراء رجال حاشيته ، ثم تأبط ذراعى واقتادنى إلى مكانى ، فجلست بينه وبين البرنس هنرى ، وجلس لورد ملبورن بين ليدى نورماندى ومس أنسن » .

« إنى أجد الأمير لطيفاً حبيبا . وما أشك فى أن عشرته ستحلو لى طوال إقامته عندى ، وأغلب الظن أن الطيبة والبساطة والمرح سجايا فطرية فيه . وهو يكبرنى بسنة واحدة .

« إنى استلطف الأمير كثيراً وأحس أن ميلى إليه شديد ، فهو دمث الطبع وديع الخلق . والحقيقة أنه رفيق جذاب » .

وتريد المصادفة أو تريد الترتيبات السرية أن تخرج الملكة للنزهة على جوادها بعد هذه المقابلة بيومين فيلتقى بها القويصر فى الطريق فيسير إلى جانبها ثم يتسابقان بالجياد ويقطعان شوطا طويلا ثم يعود كل منهما إلى مقره جذلان فرحان . فنقرأ فى مذكرات الجنرال يوريفتش :

« الثلاثاء ٧ مايو — حدثنى القويصر اليوم عن نزهة خلوية تنزهها مع الملكة فيكتوريا ، وهو يبدو فى حديثه شديد الميل إليها ظاهر الكلف بها . وكأنى به يتحين المناسبات التى يجتمع بها فيها .

« انتهزت فرصة سفر البريد اليوم وكتبت تقريرى إلى جلالة القيصر ، وذكرت فيه أن صحة ولى العهد على أحسن حال ، وأفضيت إليه بأن الناس هنا يتحدثون عن قرب استقالة لورد ملبورن رئيس الوزارة »

ويمضى على ذلك يومان آخران فيشعر الجنرال بشىء من القلق مصدره تزايد انجذاب سيده وتلميذه إلى الملكة ، ولكن تفكيره السياسى يطغى على كل تفكير فى ناحية أخرى ، فلا يرى فى العاطفة المطردة النمو بقلب الشابين إلا الفوائد السياسية التى يمكن اجتناؤها منها ، فيكتب :

« ٩ مايو — نحن مدعوون مساء الغد إلى سهرة راقصة فى القصر ، وولى العهد لا ينفك يحدثنى عن الملكة وجمالها ، ولا يمل هذا الحديث مهما طال ، ويخيل لى أن حسنها وكياستها قد أثرا فى نفسه أعمق الأثر .

ولكن أى عجب فى ذلك وهى شابة مليحة تسر طلعتها الناظرين ؟ يجب استغلال هذا التودد المتبادل بين الشابين فى توطيد دعائم العلائق الحسنة بين روسيا وإنجلترا ، وما أحسب أن فرصة خيراً من هـذه تسنح لنا فى المستقبل . ومن يدرى ؟ فلعل كياسة هذا الفتى اليافع نظفر بما لم تظفر به حكمة أبيه وتدابير السياسيين ! » .

وليتصور القارىء معى حفلة ساهرة راقصة تتزحزح فيها خدود التقاليد عن مواضعها ، فيستباح نوع من الحرية لا عهد للبلاط الانجليزى بمثله إذ يعلن أن الملكة ستراقص القويصر وبعض كبار المدعوين . وليتصور تلك الأنوار الساطعة من الثريات تنعكس على لألاء الجواهر ولمعان الذهب وبريق الحرير ، وروائح الأزهار تنتشر من كل مكان فتمتزج بعبق العطور والمساحيق ، وتلك الأنبذة الرفيعة وحميا الكؤوس تدب فى الجسوم فتشرح الأفئدة وتحل عقدة اللسان ، وحرارة الرقص والمخاصرة وتلاصق الصدور وتدانى القلوب ، والمرح الشامل والأنس المقيم وخلط الجد بالهزل على أنغام موسيقى مشجية منعشة تنتشى بها الأرواح فتطير معها شعاعا إلى أجواء الشهوات العليا ثم تتناثر همسات ودعابات وبسمات . ليتصور القارىء كل ذلك وأثره فى نفس شابين متحابين يدفع الحب كلا منهما نحو صاحبه فلا يصده سوى حائل دقيق من التهيب والاستحياء ، وليقل بعد ذلك أى مجال أنسب من هذا لتناجى القلوب وتصارح العواطف والكشف عما فى النفوس ! ؟

بث الأمير الملكة حبه واستمعت إليه الملكة فى حياء مشجع على الاسترسال . وهبت عاصفة الحب فى قلبى الشابين قوية غلابة لا تحتمل الحوائل والحدود ولا تأبه لما قد يقال ولا لما قد يكون . وبينما كان حياء المرأة يملى على الملكة التحفظ والحزم والتريث ، كان وجدها يغلبها ويفضح أشياء من خفية قلبها فتتجلى هذه الأشياء فى أحاديثها وطربها ومزحها ، وفى خروجها بعض الأحيان على التقاليد المتزمتة المفروضة عليها . أما القويصر فقد أقبل عليها بجمعة قلبه يحيطها بنفسه وبعواطفه ، ويحاصرها حصاراً لا يدع لها وقتاً تراجع نفسها فيه أو تحزم أمرها أو تتدبر عواقب ذلك الحب القوى المكين .

* * *

من مذكرات الجنرال بوريفتش :

« ١١ مايو سنة ١٨٣٩ — كانت سهرة أمس فخمة حافلة بالمسرات ، وقد رقص القويصر معظم الرقصات مع الملكة ، وهو يبدو شديد السعادة والهناء كلما اجتمع بها ، ويغلب على ظنى أنها تبادله هذا الشعور ، فهى تسر كثيراً بصحبته بل إن الرضاء والارتياح ليتفجران من أسارير وجهها كلما رقصت معه أو جلست إلى جانبه . الحق أنهما يكوّنان زوجاً من الشباب لا مثيل له .

« عدنا من السهرة بعد الساعة الرابعة من الصباح وقد أجفلت خيول مركبتنا واصطدمت بخيول مركبة ليدى باجت ولكن القويصر كان شارد الفكر حتى أنه لم ينتبه إلى الحادث » .

من مذكرات الملكة فيكتوريا بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٨٣٩ :

« عند الساعة العاشرة من المساء دخلت البهو الكبير حيث كان رجال البلاط مصطفين لاستقبالي لأفتتح الرقص . وقد لحق بنا الأمير والكونت أورلوف والبرنس هنرى دورانج وخالتى دوقة جلوستر ودوقة كمبردج والبرنسيس أوجستا

« بدأت الرقص مع الأمير ثم انتقلت إلى البهو الثانى ورقصت مع البرنس دولجوروكى ولورد دوجلاس . ولما بلغت الساعة الواحدة من الصباح جلسنا إلى الموائد لتناول طعام السهرة واستأنفنا الرقص بعد ذلك

« ذهبت مع الأمير إلى أحد الأبهاء لنشاهد راقصتين اسكوتلنديتين ، وقد سر منهما الأمير سروراً عظيما وصفق لهما طويلا ، ثم ختمت السهرة بأن راقصته رقصة « الكادريل » وانصرفت عند منتصف الساعة الرابعة إلى غرفة نومى هنيئة البال مرتاحة الخاطر »

غمرت الملكة لجة عواطفها وساقها تيار الشباب إلى أبعد حدود الأمانى والأحلام . ولعمرى أنى لتلك الفتاة التى ولدت فى مهد السعادة والجاه وتعودت من زمانها أن يواتيها بما تشاء ، والتى لم تكد عيناها تتفتحان على الحياة حتى وقعتا على ذلك الشاب الجميل الذى تخيلته المثل الأعلى من الرجال ، أنى لها أن تقاوم ذلك التيار القوى الذى باتت تتخبط فيه أو أن تدرك الموقف العسير الذى يوقفها إياه ؟ . أما القويصر — برغم شبابه وقلة تجاريبه وبرغم عواطفه الفياضة وطبيعته المرحة المتدفقة — فقد أدرك خطر

المغامرة التى انساق فيها ، ولبث ثلاثة أيام يفكر فى أمره تفكيراً عميقاً يكاد لا يكلم أحداً ولا يصغى إلى أحد . ثم قهرته عاطفة الحب واشتدت به تباريح الوجد فلم يقو على ضبط نفسه ولا على كتم سره ، وأفضى إلى رائده بالحقيقة الرهيبة .

من مذكرات الجنرال بوريفتش :

« الأحد ١٢ مايو — انصرفت الآن من حضرة القويصر ، وأحس أن صوابى يكاد يطير من رأسى . لقد كان الشاب ممتقع اللون مضعضع الحواس متلعثم اللسان عندما أسر إلىّ أنه يحب الملكة فيكتوريا وأنها تحبه .

« يا للهول ! إنى حيال أزمة عاطفية تقلق بالى وتزعج خاطرى ! ولشد ما يبدو لى الأمر عجيباً كلما فكرت أنه لم يمض بعد على تعارفهما ثمانية أيام .

« لم أرد أن أصدم القويصر بهواجسى ومخاوفى وطلبت إليه أن يمهلنى الوقت الكافى للتفكير ، وأظننى أحسنت ، فلو أنى فاجأته بحقيقة رأيى فى المسألة لما ضمنت سلامته من قوة الصدمة »

وتشتد الأزمة فى اليوم التالى وتتجلى فى شكلها الصحيح ، فنقرأ فى مذكرات الجنرال :

« الاثنين ١٣ مايو — طلب منى القويصر أن أمضى الأمسية إلى جانبه . وقد لبث وقتاً طويلا وهو مقطب الجبين مشرد النظر لا ينطق بكلمة ولا يأتى بحركة . ثم نهض وجعل يسير فى الحجرة بخطوات غير متزنة تنم على الاضطراب النفسى . وعاد فأخذ مكانه إلى جانبى وصوب نحوى عينيه

الواسمتين وقال لى بصوت هادئ رصين لم أتعوده منه قبل ذلك : « انى أحب الملكة فيكتوريا وكلى يقين أنها تحبنى . إنى لم أكتم عنك شيئاً مذ عرفتك وها أنذا أعترف لك بأنى ، لأول مرة فى حياتى ، قد صادفت المرأة التى تصبو إليها نفسى ، وبأنى أحب هذه الفتاة حباً يخيل لى أن الحياة بغيره تصير عبثاً لا يطاق . نعم إنى أحبها ومحال أن يخفق قلبى بعد اليوم بحب امرأة سواها » وطفق القويصر يحدثنى على هذا النحو حديثاً طويلا أهم نفسى وأحزن قلبى ، ولكنى حزمت أمرى وصارحته بأن هذه العلاقة الناشئة بينه وبين الملكة لا يمكن إلا أن تكون مقدمة لمشروع زواج . وأفهمته أن هذا الزواج مستحيل إلا إذا خان واجبه الوطنى ونزل عن حقوقه فى عرش الإمبراطورية ، وهذا مالا يرضاه ضميره ولا يقره عليه عاقل . ولقد اقتنع القويصر بهذا الكلام ولكنه لبث محزوناً مكتئباً إلى درجة يتعذر علىّ وصفها ، ثم تركنى وهو فى حالة جعلت الدموع تترقرق بين أجفانى .

« إن حيرتى لشديدة حتى لا أدرى ما ينبغى أن أفعل . أأكتب إلى جلالة القيصر لأقفه على حقيقة الواقع أم أصبر وأنتظر ؟ أنى محجم متردد ، وإن الأحجام والتردد ليتزايدان كلما فكرت فى الغضب الذى سيستولى عليه متى علم المغامرة التى يجتازها ولى عهده العزيز . حقاً إن الأمر جد خطير ! »

وبعد يومين تتحرج الحال ويستشرى الخطر وتدخل المسألة فى طور لا يحتمل ولا يحسن السكوت عليه فيكتب الجنرال :

« الأربعاء ١٥ مايو – حالة القويصر تسبب لى قلقاً كبيراً فإن غرامه يتأجج فى قلبه ووجده يهتاج نفسه ، حتى لقد اعترف لى بأنه أصبح فى موقف لا يستطيع أن يتحمله طويلا . »

« إنى أحب هذا الشاب كما أحب ابنى ، ولقد أنزلته من قلبى منزلة الولد ، ولذلك أتألم لألمه ولا أستطيع أن أراه على هذه الحال ، فالهم يكاد يقتله . لا سبيل إلى علاج المسألة إلا بتقصير أجل إقامتنا هنا وبالارتحال عن انجلترا ، وسأعمل على تحقيق ذلك » .

« الخميس ١٦ مايو – حددنا للسفر يوم ٣٠ من الشهر الحالى ولكن القويصر يظهر رغبته فى مد الفترة الباقية وسأقاوم هذه الرغبة جهد الاستطاعة » .

« إنه لا يفتأ يؤكد لى أنه إذا خطب الملكة قابلت خطبته بالقبول والارتياح ، وأنه يحس منها رغبتها فى أن تكون زوجا له . ولكن ، يا للمصيبة ، كيف يكون ذلك ؟ أتنزل هى عن عرشها لتصحبه إلى سان بطرسبورج ، أم ينزل هو عن العرش المهيأ له ليمكث معها فى لوندرة ، أم يتزوجان ويبقى الزوج فى شرق أوروبا وتبقى الزوجة فى غربها . كل هذه الفروض مستحيلة ولن يكون شىء من ذلك لأن طبيعة الأشياء تأباه . ولكن ماذا أعمل ؟ أسأل الله أن يعيننى فى مهمتى الشاقة العسيرة لأن سعادة هذا الشاب هى سعادتى وكل ما أبتغى فى الحياة . يارب خذ بيدى فإنى أجتاز أشد أزمة قد تعترض حياتى . واجبى بيّن واضح لا يحتمل

رأيين ، ومسئوليتى أعظم من أن تتسع لـكل هذا التلـكؤ والتسويف .
لقد قال لى القويصر إنى صديقه الوحيد وإنه لا يعتمد على غيرى فى هـذه
المأساة ، وإنى لأشعر أن ليس فى استطاعتى تحقيق سعادته المستحيلة
ولا التوفيق بين رغبته الطائشة وشتى الواجبات . إذاً لا مناص لى من
تأدية واجبى وسأؤديه إلى النهاية مهما يكن مراً وعسيراً . فلأسكت قلبى
ولأخرس عواطفى فاليوم للواجب وليكن بعد ذلك ما يكون » .

ويحس الجنرال أن أنجع الوسائل حيال مثل هذا الحب العميق إنما هى
ضربة الشرط الحاسمة لا المسكنات المؤقتة ، ويرى أنه قد آن الأوان للضغط
على القويصر وعلى المـلكة فى وقت واحد . أما القويصر فقد صار على بينة
من أمره . وأما الملـكة فيجب صد تيار عواطفها المندفع ، وذلك لا يكون
إلا بالاستعانة برجالها والقربين إليها . إذاً لا بد من الإفضاء بالأمر إلى
لورد ملبورن رئيس الحـكومة وإلى أصدقاء الملـكة ليتخيروا الوسيلة التى
يضعون بها حداً لتلك المأساة الصامتة .

من مذكرات الجنرال يوريفتش

« ٢٢ مايو — دار بينى اليوم وبين البارونة لـ . . . صديقة الملـكة
وأمينة سرها حديث طويل . وقد أفضت إلى بأن الملـكة لم تـكتم عنها
غرامها الشديد بالغراندوق ، وبأنه أول شاب أعجبها وهام به قلبها ، حتى
أنها صارت لا تشعر بالسعادة إلا فى الساعات التى تخلوها به . وأكدت

البارونة أن الملكة تغتبط كل الاغتباط إذا خطبها الغراندوق ، بل إنها تنتظر الساعة التى يكاشفها فيها بذلك فى صبر قلق وشوق مستحر » .

« ... إن البارونة لـ ... تدرك حرج الموقف كما أدركه ، وتكاد لا تتصور مضاعفات الحالة إذا خطر للشاب أن يقدم على إظهار رغبته الملكة فى التزوج بها . ولقد قالت لى إن القويصر إذا فعل فإنما يزج بنفسه وبأبيه وبالعلائق القائمة بين الدولتين فى موقف دقيق ، بل إنه يخلق بذلك حالة شاذة لا قبل لأحد بحلها . وقد وعدتنى البارونة إن تعمل من ناحيتها كل ما فى وسعها لتدارك المسألة قبل أن يصبح الجميع أمام الأمر الواقع ، ولتحاشى الكارثة قبل وقوعها » .

عندئذ لا يرى رجال الدولة سوى التفريق بين الشابين بأسرع الوسائل فيقرر الروسيون إنهاء أجل الزيارة والارتحال عن انجلترا يوم ٣٠ مايو ، ويتبادلون فى ذلك المكاتبات الرسمية مع الحكومة الإنجليزية حتى لا يبقى مجال للتردد أو التسويف .

* * *

ويدخل هذا الغرام الناشىء فى دور النزع . وتأبى الأقدار إلا أن يكفن فى مهده . ويشعر القويصر أن واجبه ينتظره هناك فى روسيا فيتأهب للسفر إليها ، ويعد الأيام والساعات الباقية له بالقرب من الملكة كما يعد المحتضر الأيام والساعات الباقية له من الحياة . وتقع الملكة فيكتوريا فى حالة نفسية ينم عليها وجهها الشاحب وانقباض روحها وانصرافها عن

الناس وقلة اكتراثها لشيء مما يعرض عليها . ثم تدرك بعد طول التفكير أنها حلمت حلماً لذيذاً أعقبته اليقظة المرة المؤلمة ، وأن الوقت قد حان لتواجه الواقع الموجع الذى يقضى عليها أن تكون ملكة ممزقة القلب ، تضحى على هيكل العرش بكل ما خلق ليسعد به الناس فى الحياة . ويتبدى يأسها وحزنها فى إهمالها مذكراتها اليومية فهى لا تودعها شيئاً من همومها المضنية ولا تفضح نفسها على الورق بشيء من اللوعة التى تعانيها ، ولكنها تكتفى بتدوين ذكريات تافهة نستطيع أن نستشف منها روحا مضطربة قلقة تريد أن تنفجر .

من مذكرات الملكة فيكتوريا :

« ٢٧ مايو — اليوم صحو والجو جميل ، والشمس مشرقة ترسل أشعتها الذهبية على خضرة الشجر التى ما تزال مبللة بأمطار أمس فتحيى البشر والحبور فى النفوس ، ولكنى مع ذلك أشعر بحزن يملك على مشاعرى ، وانقباض يصرفنى عن كل شيء حتى عن اجتلاء محاسن الطبيعة فى هذا اليوم البهيج . رأيت الغراندوق قادما إلى القصر وقد حيانى وأنا أطل من نافذة غرفتى ، وكانت الساعة السابعة . ولبثنا نتجاذب أطراف الحديث إلى أن حان وقت العشاء فنهضنا إلى حجرة المائدة فى جمع من حاشية الأمير ورجال البلاط .

« ظلت الأحاديث خافتة والمحاورات فاترة إلى أن انتقلنا إلى البهو الأحمر حيث كانت فرقة موسيقية تنتظرنا لافتتاح المرقص . ولقد افتتحناه

برقصة « الـكادريل » وكان الغراندوق زميلى فيها . أما الرقصات الأخرى فلم أشترك فيها بحكم التقاليد المرعية بل جلست فى أثنائها أتحدث إلى الأمير وأستمع إليه » .

« بعد أن تناولنا طعام السهرة وبعض المرطبات رغب الأمير فى أن أرقص معه رقصة المازوركا ، فلم أشأ أن أخيب رغبته وتخطيت بذلك كل التقاليد لأول مرة فى حياتى » .

« إن الرقص مع الغراندوق شىء لذيذ ، فهو رشيق الحركات سريع الخطا يكاد يحمل صاحبته بذراعه حتى لتشعر أنه يطير بها . وهو فوق ذلك شاب خفيف الروح حلو المجون صريح الأسارير حتى ليقرأ الإنسان على وجهه كل ما يدور بنفسه » .

« لعبنا كثيراً وضحكنا كثيراً ولا أذكر أنى طربت قبل اليوم طربى من مصاحبته . ولقد ذهبت إلى غرفة نومى عند الساعة الثالثة من الصباح ، ولـكنى لم أنم إلا بعد الخامسة »

ولا يجد لورد ملبورن رئيس الحـكومة بدا من التدخل فى الأمر ، فيقابل الملـكة ويطرق الموضوع بتلك الرشاقة فى الحـديث التى برع فيها ساسـة الانجليز واشتهروا بها والتى تجعلهم يعملون المبضع فى الجسم فيجرحون ولا يسيلون نقطة من الدم . وتنقل إلينا الملـكة طرفا من هذا الحديث فى مذكراتها ، فتقول :

« ٢٩ مايو — كنت أتحدث إلى صديقى لورد ملبورن وقد قلت له إنى

كل هذا اللهو يفيدنى وينعش نفسى ، فأجابنى وهو يبتسم ابتسامة شراً من العبوس : « ولـكنك ستتألمين كثيراً بعد ذلك . يجب أن تترفقى بصحتك أكثر مما تفعلين وإلا أضنتك هذه الجهود . إنك تشكين من شئ تسمينه ضيقاً قد استولى على نفسك وتعللين به ذلك الاضطراب الذى تتخبطين فيه منذ أسابيع ، وهذا النفور من الناس الذى نحسه منك والذى لم يبق أحد حولك إلا وقد لاحظه . فهلا تخشين أن يحملك ضيق صدرك على النفور من العمل الرسمى أيضاً ، فتسنى بذلك سنة غير محمودة ؟ » .

« أردت أؤكد له أن ذلك لن يكون ، وأنه مهما يكن من شواغل نفسى فلن تؤثر هذه الشواغل فى أعمالى الرسمية ، ولـكنه لم يشأ أن يسمع إلى ، بل قال : « إنك تحيين فى هذه الأسابيع الأخيرة حياة غير طبيعية وغير معقولة من شابة فى سنك ؛ وإنى وأنا أحدثك الآن حديث الصديق ، أتوسل إليك أن تكونى أكثر رفقاً بصحتك وشبابك . إن الحياة أمامك ممتدة طويلة ، وفيها متسع لتحقيق كل معقول من الأمانى وكل ممكن من الآمال . ولـكن من السعادات ما هو مستحيل إن لم يكن بطبيعته فبطبيعة الظروف والأحوال ، فلماذا تدعين الآمال المستحيلة تساور نفسك فتنغصها وتفسد عليها نعيم الحياة ؟ » .

قلت : « ولـكن أليست الملكة إنساناً له حقه فى السعادة كسائر الناس ؟ » فأطرق الرجل مليا ثم رفع رأسه المتثاقل وحدق إلى عينى وقال : « أنتم الملوك ناس ولـكن لا كسائر الناس ، لأن لـكم رسالة سامية يجب

أن تندمج بها شخصياتكم حتى تفنى فيها فلا يبقى من الإنسان إلا الملك ، ولن يتم هذا الاندماج وهذا التفانى إلا إذا سما الملك بنفسه إلى المستوى اللائق برسالته وضحى فى سبيل سموه إليه بكثير من آرائه الشخصية وميوله النفسية . وإن الملك إذ يرتقى العرش إنما يوقع بهذا الارتقاء صك تلك التضحية ، ولن يحله من توقيعه شيء حتى لو أراد أن يتحرر منه بالنزول عن سرير الملك ، لأنه إذا فعل فإنما يضيف إلى حقارة الحنث بالعهد حقارة الفرار من الواجب » . أمام هذا الشيخ الجليل الذى أبهظت كتفيه أعباء الحكم وأعباء السنين ، وأمام هذه العبارات التى تنم على عقيدة لا تحتمل الجدل والنقاش ، لم يسعنى أن أحبس دمعة كانت تترقرق فى عينى ، فما إن أرسلتها تجرى على خدى حتى نظر إلىّ الرجل نظرة تفيض رحمة وحنانا ، وأخذ يدى وقبلها ثم نهض واقفاً وقال : « الآن قد اتفقنا يا مولاتى ، وسأبيت الليلة هادىء البال » .

* * *

ويحل اليوم الرهيب يوم الفراق المرير ، وما أشق الفراق على قلبين أرادا أن يرتشفا كأس السعادة فإذا الكأس صبر وعلقم . وما أقسى الوداع على نفسين تفتحت لهما أبواب الهناء يوما ثم أوصدت ، فلم يبق أمامهما من الهناء إلا الذكرى واللوعة والحنين .

من مذكرات الملكة فيكتوريا :

« ٢٩ مايو — ذهبت إلى الحجرة المجاورة لغرفة نومى ، وقد وفد على

الغراندوق يصحبه لورد بالمرستن ليستأذننى فى السفر . أخذ الأمير يدى وضغطها ضغطا تمثلت فيه حرارة روحه ، وكان شاحب الوجه متهدج الصوت عند ما قال لى : « إن الـكلام يخوننى ولا يسعفنى لأعبر لك عن كل ما أشعر به الآن » . ثم استطرد ، فقال إنه يشكر لى من أعماق القلب كل العناية التى أحطته بها وكل صنوف المجاملات التى لقيها فى بلادى وفى بلاطى سواء منى أو من رجال حكومتى أو من أفراد شعبى ، وإنه كبير الأمل فى أن يعود لزيارتى متى سمحت له الظروف ، وأكد لى أن ذلك الاستقبال الرائع الذى استقبل به فى إنجلترا ، وتلك الحفاوة التى احتفاها به الشعب لا يمكن إلا أن يكون لهما أكبر الأثر فى توثيق عرى روابط الصداقة التى تربط دولتينا . ثم عاد فتناول يدى وضغطهما مرة أخرى بكلتا يديه ، فمددت ذراعى وأدنيت رأسه منى وقبلته على خديه فعانقنى هو أيضاً عناقا تبينت فيه كثيراً من المودة والأخوة » .

« إن الذى أحسسته فى تلك اللحظة كان غريباً ، فلقد شعرت أن روحاً صديقة تنتزع منى لا أن مجرد ضيف لطيف يودعنى . نعم لقد شعرت بحزن بالغ وأنا أودع هذا الشاب الرقيق حتى لقد خيل إلى أنى أحبه حقيقة أو أنى على الأقل ميالة إليه كل الميل »

من مذكرات الجنرال بوريفتش :

« ٣٠ مايو سنة ١٨٣٩ — أمس استأذنا الملـكة فى السفر وودعنا رجال الحـكومة والبلاط . وإذ خلوت بالقويصر بعد ذلك لم يملك الشاب المسكين

نفسه فارتمى بين ذراعى وبكى طويلا . وقال لى وهو يشهق شهيقاً كان يقطع منى نياط القلب : « لن أنسى هذا الفراق ما حييت ، لقد عانقت ڤيكتوريا وعانقتنى ، وإن القبلة التى التى طبعتها بشفتيها على خدى لخير تذكار أتزود به منها وسأحتفظ به ليصحبنى إلى القبر بعد الممات » ولقد أردت أن أهدئ من روعه ولكن إجهاشه بالبكاء لم يجعله يستمع إلى عبارات المواساة التى كنت أرتجلها عفو الخاطر المضطرب والقريحة المنزعجة المشتتة ، وأخيراً بسطت كفى على كتفيه وحدقت إلى وجهه وأهبت به : « أنت ملك يا مولاى ولا يجمل بك أن يبكى أمام رعيته » قال : « عذراً يا صديقى فإن مابى لشديد لا أقوى عليه » فأعدت الكرة فى شىء من العنف وصحت به : « كن ملكا يا مولاى » فارتمى بين ذراعى مرة ثانية وهو يغمغم بين شفته : « أليس أيسر عليك أن تكون إنساناً أيها الصديق » ثم غادرنى وانكفأ على سريره وهو يقول : « إذا كانت هذه تباشير الملك فيا لشقاء الملوك ! »

المَشْبُوهُونَ

إذا علمت أن « أوفريني » قرية فرنسية صغيرة تقوم فى نهاية إقليم الأين عند تخوم بلجيكا ، وقد ظلت حتى اليوم بعيدة من طرق المواصلات الرئيسية ، منعزلة عن المدن والدساكر ، نائية عن مظاهر المدنية الحديثة بجميع أشكالها ، فقد نستطيع أن نتصور ما كانت عليه تلك القرية منذ أربعين ومائة سنة أى إبان الثورة الفرنسية الكبرى ، حين لم تكن تضم بين أرجائها أكثر من خمسين بيتاً تؤوى مائتين أو ثلاثمائة من عباد الله المتواضعين كانوا يفلحون الأرض ويجيدون صنع السلال ولا يعلمون مما يحدث فى الدنيا قليلا ولا كثيراً .

كان على مقربة من أوفريني بيت منيف ، عالى الأسوار شامخ الأبراج يعرف باسم « القصر » من غير نسبة إلى إضافة تميزه من غيره ، ولعمرى علام النسبة والإضافة وليس فى كل تلك المنطقة قصر سواه ؟

أما صاحب « القصر » فكان سيداً من سادة الريف يدعى كونت أوفريني ، ورث عن آبائه غير ذلك القصر أراضى شاسعة وغابات واسعة كان يعيش من دخلها الوافر مؤثراً هدوء الريف على حياة المدن فى ذلك الزمان المضطرب

وقد عاش كونت أوفريني عزباً لا يقلق باله جمع المال لمن يعقبهم من

الأولاد ، فكان سخى الكف مبسوطها لا يضن بشىء على جيرانه القرويين، ومن ثم فقد ظلت علاقاته بهؤلاء الجيران على أحسن حال : كرماً مشرباً بالعطف من ناحية ، وولاء مقترناً بالاحترام من الناحية الأخرى . فإذا حزب أهل القرية أمر أو أعوزهم شيء لجأوا إلى القصر يستشيرون «السيد» فيما حزبهم ، ويسألونه العون على ما أعوزهم ، فيبادر « السيد » إلى إسداء المشورة الحسنة ومد يد النجدة التى تفرج الضائقة وتذهب الهموم .

ولقد كان مقدراً لتلك العلاقات الطيبة أن تظل على صفائها ما ظل « السيد » على قيد الحياة . بيد أن أحداث الثورة جاءت فكدرت ذلك الصفاء وأبدلت به جفوة ما كان أحد الطرفين ليتوقعها ولا ليريدها ولكن هكذا قدر فكان .

نعم إن صحف باريس لم تكن تتسرب إلى ذلك الركن المنعزل من أركان فرنسا ، وهى لو تسربت إليه لما وجدت فى أوفرينى من يقرؤها .

ولكن آفة القرى سياسيوها .

وما من قرية مهما صغر حجمها وقل سكانها إلا فيها واحد أو أكثر من أولئك « السياسيون » الذين يمتازون عن الجهلاء بأنهم يفكون رموز الكتابة ويحفظون جملا وتراكيب يلوكونها لمناسبة ولغير مناسبة فى كل موقف وفى كل مكان ، ويهتمون بالشئون العامة فيستوردون الصحف من أقرب المدن ويقرؤونها على الناس ويفسرون لهم ما فيها جهد ما تصل إليه عقولهم وإن لم يتوفق النص والتفسير فى شىء .

فمنذ شبت نيران الثورة واندلعت ألسنتها إلى الريف ، أخذ «سياسيو» قرية أوفريني يتتبعون أخبارها ويستقصون أنباءها ويحدثون الأهل والجيران عما وصلت إليه أحوالها . ثم جاءت الانتخابات العامة بمعاركها المدوية ، فوفد إلى القرية ناس من أهل المدن القريبة يمجدون الثورة وأغراضها ويبينون للأهالى مزايا الحرية والإخاء والمساواة ، ويحضونهم على كره الأشراف والنبلاء وذوى الألقاب والثراء ، ويحثونهم على انتخاب الجمهوريين الأحرار والوطنيين المخلصين ، ونبذ « الطغاة » وأعوانهم الذين يستحلون مال الشعب ويلغون فى دمه ويريدون له العسر والجوع والخراب .

على أن هذه الخطب النارية والجمل الملتهبة لم تكن لتحدث أثراً كبيراً فى نفوس هؤلاء القرويين لأنهم لا يعرفون من الأشراف والنبلاء وذوى الألقاب إلا كونت أوفريني ، وهو على ما يعلمون ، لم يستحل مالا بغير حق ولم يلغ فى دم أحد ، ولم يرد بهم شراً ولا فقراً ولا خراباً ، فهم لا يجدون فى قرارة نفوسهم ما يحملهم على بغضه أو مايدعوهم إلى نبذه

بيد أن أهل قرية أوفريني ناس كسائر الناس ، إذا لم تقنعهم الحملات الخطابية بما تحتويه من عبارات منمقة وكلمات رنانة وجمل جوفاء ، فلا أقل من أن تترك هذه البلاغة الرخيصة فى نفوسهم شيئاً من القلق والاضطراب يشككهم حتى فيما يؤمنون بأنه الحق الذى لا مرية فيه . فلا عجب — وقد تكررت وفادة خطباء المدن عليهم — أن ساورهم الشك فى حقيقة ذلك « السيد » الطيب المحسن ، المقيم بالقرب منهم ، وإن أحسوا نحوه شيئاً

لم يعرفوا ماهيته تماماً ولـكنه مزيج من الريبة والحذر والنفور ، غشى ثقتهم به وحجبهم له بسحابة كدرة أوهنت من تلك الرابطة القوية التى ظلت تربطهم به إلى ذلك الحين .

ولقد أحس كونت أوفرينى منهم ذلك الفتور فى الملاقات ولاحظ تلك المباعدة بين الزيارات ، وأدرك أن سموم خطباء الثورة قد بدأت تسرى فى دمائهم وأن تهريج سياسيي القرية قد أخذ يعمل عمله المدمر فى عقولهم ، ولـكنه لم يشأ أن يعتب ولا أن يؤاخذ ، بل آثر أن يتجاهل كل شىء وأن يتظاهر بمظهر الرجل السليم الطوية الخالى الذهن مما يجرى حوله أو يظن به أو يقال فيه ، واعتـكف فى قصره اعتكاف الحـكيم عن الناس إن أقبلوا عليه أحسن استقبالهم وإن أعرضوا عنه لم يحقد عليهم بل طلب لهم من الله الهداية والغفران .

أما من ناحيـة السياسة والأوضاع الجديدة التى استحدثتها الثورة فى البلاد فإن الـكونت ، وهو الذى لم يستعمل يوماً من الأيام حقاً من حقوق أمثاله السادة المقطعين ولم يستغل امتيازاً من امتيازاتهم ، لم يثر كما ثار غيره من النبلاء حين ألغت حكومة الثورة تلك الحقوق والامتيازات . ولما لم يكن قد أتى فى ماضيه ولا فى حاضره جريرة مما تأخذ به الحـكومة الثورية أشراف البلاد فتقطع رؤوسهم من أجلها أو تزج بهم فى غيابات السجون ، فإنه لم يشأ أن يهاجر كما هاجر الأشراف ، بل آثر أن يظل فى عزلته القصية إلى أن تهدأ العاصفة ويصفو الجو وتعود السكينة إلى البلاد .

وكان من عادة كونت أوفرينى أن يحيى فى قصره كل سنة ذكرى مولد السيد المسيح فيقيم فى القصر حفلة ساهرة تجمع بين الغناء والرقص والسمر ، يدعو إليها أهل القرية ونساءهم ، فيؤدب لهم مأدبة فاخرة يجدون فيها من ألوان الطعام والشراب ما يشبعون به بطونهم ويملأون بالفائض منه سلالهم التى يغدون بها فارغة ويعودون بها طافحة ، وأن ينصب لهم فى وسط البهو الكبير شجرة عيد الميلاد وهى صنوبرة يقطعها من البستان فيزين فروعها بمصابيح زاهية الألوان ويعلق فى أغصانها لعباً متباينة الأشكال ، وعلباً من الحلوى مختلفة الأحجام ويحيط قاعدتها بالفطائر الشهية والمسكرات المغرية ، ثم يدعو إليها أطفال القرية فيأتون مع أهلهم ويظلون ساهرين حتى إذا ما انتصف الليل وزعت عليهم بطاقات تحمل كل واحدة منها رقماً يقابله رقم مثله على لعبة أو علبة أو فطيرة ، فتكون اللعبة أو العلبة من نصيب صاحب البطاقة التى تحمل ذات الرقم .

ولقد كانت ليالى عيد الميلاد فى قصر أوفرينى تبلغ من البهجة والروعة والكرم مبلغاً يجعلها طول السنة حديث الرجال وأمنية النساء وحلم الأطفال ينتظرونها فى صبر ممض ويستقبلونها كما يستقبل المحروم حلو الأمانى بعد طول الانتظار .

فلما كان شتاء عام ١٧٩٣ ، عام اشتداد وطأة حكم الإرهاب والطغيان ، وحلت ليلة عيد الميلاد ، لم يشأ كونت أوفرينى أن يراعى مقتضيات السياسة القائمة ولا حالة هياج الشعب على الأغنياء والنبلاء ، فأراد أن يقيم حفلته

السنوية وفقاً لما جرت عليه عادته ، وزين القصر بالأنوار وأدب الأدبة وأقام المرقص ونصب شجرة عيد الميلاد ، وجعل ينتقل بين الأروقة والأبهاء والحجرات متفقداً كل شيء عاملا على أن تستكمل الحفلة كل مراتبها وأن تستوفى كل مباهجها .

وبينما هو فى ذلك إذا به يسمع صليل جرس الباب الخارجى فظن أن أضيافه — لفرط اشتياقهم إلى شهود حفلته — قد أقبلوا عليها قبل الموعد المضروب . ولقد لبث ينتظر أن يرى أفواج الأطفال والنساء تتدفق فى الأروقة والغرف والأبهاء ، ولكن شد ما كانت دهشته عندما أبصر الخادم يدخل عليه رجلين اثنين ، أحدهما جيرار عمدة القرية ، والثانى بيرو شيخ البلد وليس وراءهما أحد من المدعوين .

كان الكونت يعرف هذين الرجلين : فجيرار العمدة ، فلاح أمى ، أو لا يفضل الأمى بكثير ، رضى الخلق يعرف قدر نفسه فلا يتعالى على أحد ولا يضمر لأحد سوءاً . أما بيرو ، شيخ البلد ، ففظ غليظ الطبع حسود ، غره بنفسه أنه تعلم فك رموز الخط ولو بجهد جهيد ، ومن الكتابة رسم الحروف على الورق ولو بعناء شديد . ولقد ظن أنه بذلك قد بلغ من العلم نهايته ومن الكمال ذروته ، فسجل بنفسه اسمه عضواً بنادى اليعاقبة الثورى فى أقرب مدينة إلى أوفرينى ، واشترك فى صحيفة ثورية كان يقرأها على بلدييه قراءة مكسرة لا يفهم ولا يفهمون منها كلمة ، ونصب نفسه زعيما سياسياً لأهل القرية ، يلقنهم كل يوم أن ليس لأحد من الناس أن يستعبدهم

وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وأن العبودية والذل إنما هما فى محاسنة الأشراف ومجاملة النبلاء ، وأن قوانين الحرية وأصول الكرامة الإنسانية لا تسمح بأن تكون لهم صلة بصاحب القصر ولو كانت صلة مصالح مشتركة أو منافع تعود عليهم بالخير .

نعم دهش الكونت من هذه الزيارة بعد أن طال انقطاع العمدة وشيخ البلد عن القصر ، ولكنه أخفى دهشته ومد يده ليصافح الرجلين . فتناول بيرو هذه اليد بأصابع مترددة متراخية ونظر إلى شجرة عيد الميلاد نظرة محتقرة متهكمة . وأحنى جيرار رأسه فى أدب متكلف ورد التحية بفتور ظاهر . وأراد الكونت أن يعهد للحديث فلم يكد يشكر لهما تفضلهما بسبق المدعوين إلى تشريف داره ، حتى قطع عليه جيرار الكلام قائلا : « لا ، ليس هذا بالسبب الذى جئنا من أجله . أليس كذلك يا بيرو ؟ »

وقال بيرو : « نعم ليس هذا سبب مجيئنا »

ودعاهما الكونت إلى دخول حجرة مكتبه وهو يقول : « ان لدى فترة من الوقت أستطيع فيها الاستماع إليكما ريثما يفد المدعوون » ولكن بيرو استوقفه ، وقال : « نود أن نصارحك بالحقيقة . والحقيقة أن مدعويك لن يجيئوا فمن العبث أن تنتظرهم » .

قال الكونت : « كيف ذلك ؟ ولم ؟ » فغمغم جيرار قائلا : « نحن آسفان . . آسفان حقاً . . ويستطيع مواطنى بيرو أن يعبر لك عن مبلغ أسفنا ولكن هؤلاء المدعوين فكروا . . ثم رأوا . . أن الظروف لا تسمح

للوطنيين الصادقين فى تملقهم بالحرية والمساواة أن يشتركوا فى بعض المظاهر المشوبة بالأرستقراطية ... »

وابتسم الـكونت وقال : « ما هذا الذى تقول يا صديق بيرو ؟ وكيف يصح فى الأذهان أن ما كان خيراً فى نظرهم حتى العام الماضى ينقلب شراً فى هذا العام ؟ وهل يجوز أن نستنكر اليوم ذكريات كنا نمجدها بالأمس إلا أن تـكون موازين الأشياء قد اختلت والأخلاق تغيرت ؟ »

وأدرك بيرو أن لا سبيل إلى نقض هذا المنطق بكلام معقول ، فعمد إلى بعض ما وسعته ذاكرته من كلمات وعبارات رآها فى الصحف الثورية أو سمعها فى خطب اليعاقبة فقال :

« كفى مداورة أيها المواطن ولنقلها كلمة صريحة . . اننا ، نحن الجمهوريين ، إذا قررنا مقاطعة حفلاتك فلأنها مظاهرات أرستقراطية تستفز الضمير البشرى وتعارض أبسط مبادئ الإخاء والمساواة »

ولم ير الـكونت فائدة فى الاستمرار فهز كتفيه وقال : « لعلنا ننتهز فرصة أخرى من الوقت أوسع من هذه فتفسر لى يا مواطنى بيرو كيف أن صنوبرة مزينة بالفوانيس ومحملة ببعض الحلوى والفاكهة تعارض مبادئ الإخاء والمساواة . أما الآن فحسبنا هذا القدر من الحديث ، ولنرجئ بقيته إلى أن تتحسن الأحوال وتهدأ ثائرة العقول »

ثم نهض واقفاً كمن يأذن لزائريه بالانصراف ومد إليهما يده وهو يقول :
« أليس لديكما ما تقولانه غير ذلك ؟ »

وتلعثم جيرار ، واستشار صاحبه بعينيه ثم قال : « معذرة وعفواً يا مواطنى ، فقد جئت أستشيرك فى مسألة من نوع لا عهدلى بمثله ، ولست أشك فى أن معلوماتك الواسعة ستوجهنى فيها خير توجيه ... »

قال الكونت وهو يتعجب من هؤلاء الذين يقررون مقاطعته ولا يستغنون عن مشورته :

— « تكلم »

وانطلق جيرار يفصح عن مسألته فذكر أنه أمضى فى منصبه ثلاث سنوات تعود فى خلالها أن يتصرف فى المسائل الإدارية والرسمية بما يمليه عليه عقله وما يوحى إليه به مساعدوه ، فإذا استشكل عليهم أمر أو تعقدت أمامهم مسألة هرعوا إلى الكونت يستنيرون بخبرته فيها باعتباره أذكى المواطنين وأعلمهم . أما اليوم فهو إزاء مشكلة لم يعرض له مثلها من قبل ، ذلك أن لجنة إنقاذ البلاد[1] Le comité de Salut Public أرسلت إليه بواسطة مدير الإقليم كتاباً تطلب منه فيه قائمة بأسماء « المشبوهين » فى قريته . ثم قال :

« ... ولقد أجهدت عقلى لعلى أفهم معنى كلمة المشبوهين أو ما يمكن أن ترمز إليه فلم أفهم لها معنى ولم أقف لها على مدلول . ولقد فزعت إلى صديقى بيرو هذا وإلى جميع أذكياء القرية فألفيتهم مثلى فى جهل معناها

---

(١) الاسم الذى كان يطلق على مجلس الوزراء أو الهيئة التنفيذية فى عهد الثورة الفرنسية الكبرى .

ومرماها ، لم يسمعوها من قبل ولا يعرفون أحداً سمع بها . فهل لك أيها المواطن[1] أن تقول لى ما المراد بكلمة مشبوه ؟ »

ونظر الكونت إلى الرجلين نظرة فاحصة سريعة أيقن منها أن لا خبث فى كلامهما وأن سؤالها لا ينطوى على شىء غير ما هو ظاهر منه . ومرت بذهنه مظاهر عهد الإرهاب وتذكر القوائم المشهورة ، قوائم المشبوهين Liste des Suspects التى تأمر الحكومة الثورية مديرى الأقاليم بأن يدونوا فيها أسماء الذين يرتابون فى ولائهم للحكم الجمهورى أو يظنون فيهم الميل إلى النظام الملكى البائد ، فلا يتردد المديرون فى أن يملأوها بأسماء الأشراف والنبلاء وذوى الأموال والألقاب وكل من يمت إلى الأرستقراطية الملكية بسبب ، ثم يرسلونها إلى الحكومة فلا تلبث أن تأمر بالقبض عليهم جميعاً فيحشرون فى السجون ريثما يتلقاهم النائب العام « فوكيه تانفيل » بتحقيق صورى وجيز يرسلهم من بعده إلى ساحة الأعدام حيث تحصد رءوسهم سكين المقصلة .

وفكر الكونت فيمن عسى تنطبق عليهم كلمة المشبوهين فى قرية أوفرينى ، فلم يجد إلا نفسه ولم ير بداً من أن يتحايل لينجو من الهلاك فتبسم وقال :

« نعم . . نعم . . إنى أعرف ذلك : « مشبوه » تعبير جديد سمعته

---

(١) المواطن Citoyen كلمة حلت محل جميع الألقاب بعد إلغائها فى عهد الثورة فكان القوم يتنادون بها بدلا من قولهم ياسيدى Monsieur .

فى هذه الأيام ولم أكن أسمعه من قبل . . ولكن ما المقصود بتحرير قوائم المشبوهين فى هذه القرية ؟ »

قال العمدة جيرار ، وهو يمد إليه كتاب الحكومة : « نحرر القوائم ونرسلها إلى لجنة إنقاذ البلاد لتقوم ، كما تقول فى كتابها هذا ، باتخاذ التدابير اللازمة نحو أولئك المشبوهين »

فهز الكونت رأسه وهو يغمغم بين شفتيه : « التدابير اللازمة . . » ثم انطلق يتكلم فى أكثر ما يمكن من الجد فقال :

« الأمر كما يظهر جد خطير يا صديقى جيرار . إذن فاعلم أن الحكومة الثورية تريد أن تعرف أسماء الذى امتازوا من أهل القرية منذ بدء الثورة إلى اليوم بوطنيتهم السليمة وإخلاصهم للمبادئ الحديثة وكرههم للنظام القديم . . »

وكان بيرو يمد رأسه ويرهف أذنيه حتى لا تفوته كلمة . وقد استطرد الكونت فقال :

« وما من شك فى أن لجنة إنقاذ البلاد تريد أن تكافئ أولئك الجمهوريين المخلصين لها الموالين لأنظمتها ومبادئها بتوزيع الوظائف وإجراء الأرزاق عليهم . فالمشبوهون ، فى لغة الإدارة ، هم الذين يجوز أن تغدق الحكومة عليهم هذه النعم باعتبار كونهم قد استحقوا تقدير الوطن »

وأسرع بيرو فقال : « هذا ما خطر لى أول وهلة ولكننى ترددت فيه » .

فقال الـكونت : « إن هذا لا يدهشنى يا بيرو ، فلقد صدقت إذ قلت لى أن حكومة الجمهورية قد ظفرت بجميع أعدائها فأوردتهم موارد التهلكة فالآن لم يبق أمامها إلا أن تجزى أصدقاءها وأنصارها أحسن الجزاء . . إن الجمهورية التى أجهزت على خصومها لا يسعها أن تنسى رجالها .. ووالله إذا كان فى كل ذلك ما يؤلمنى فهو أن اسمى لن يظهر فى قائمة الشرف التى يسمونها قائمة المشبوهين »

وقال العمدة مجاملا : « لو كان فى ذلك مايرضيك . . »

فقطع عليه الـكونت الـكلام قائلا : « لا . لا .. إن صفتى الأرستقراطية ولقب النبل الذى أحمل لا يسمحان بذلك والا ظنت الحـكومة بك الظنون . على أننى لم أعمل لخدمة الجمهورية شيئا حتى أستحق أن يذكر اسمى بجانب أسمائـكم أنتم يا من جاهدتم فى سبيل الحرية والمساواة »

وبدت علامات الحيرة على وجه العمدة وقال : « إذن فسأضع اسم زميلى بيرو فى أول القائمة »

— فـكرة حسنة ورأى سديد يا جيرار

ونظر الـكونت إلى بيرو الذى كان يبتسم ابتسامة الحيى الذى أخجل المديح كبرياءه وقال : « لا تبخس نفسك قدرها يا بيرو ولا تتواضع فى مواطن إظهار الجدارة والاستحقاق . لقد أفنيت نشاطك فى خدمة الجمهورية ، فلماذا تتوارى عندما يحين يوم المـكافأة وتقدير الخدمات ؟ قم ياجيرار الى مكتبى واكتب »

وسار جيرار الى المكتب وجلس وتناول القلم بأصابعه الغليظة وجعل يخط على الورقة كلمات شوهاء فى سطور متعرجة ، وكان يتهجى كل كلمة حرفاً حرفاً ويجهد نفسه فى تحسين خطه وقد تناثرت قطرات العرق على جبينه وتدلى لسانه من بين فكيه . فلما أتم العنوان عدل قامته فى زهو وقرأ : « قائمة بأسماء المشبوهين فى ناحية أوفرينى » . ثم نظر إلى الورقة معجباً واستطرد قائلا : « انتهينا من العنوان والآن إلى الأسماء . . بيرو . أولا .... ثم من ؟ . . لا يمكن أن نكتفى باسم واحد وإلا فما أفقر قريتنا فى الرجال ! » .

وقال الكونت وهو يبدى أمارات الجد والاهتمام : « طبعا . . اسم واحد لا يكفى ، وأنت تعرف أهل بلدك أكثر مما أعرفهم . . خذ اسم هافار ، فإن حبه للجمهورية والإخاء والمساواة جعله يتنكر لى وينسى عوارفى لديه وصار كلما رآنى لايتورع عن أن يصيح : الى المشنقة . . مثل هذا الوطنى المخلص لا يترك . . وعندك أيضا راندون . . فهو صادق الإيمان بمبادىء الثورة حتى أنه يستبيح الصيد فى غابتى زاعماً أن القوانين التى تحمى الملكية وتحرم الصيد فى ملك الغير لم يبق لها وجود . . مثل هذا أيضاً لا يترك . . وجانديل الذى كسر صليب القرافة بدعوى أن الثورة ألغت الأديان . . ودوكين الذى يأبى أن يرفع قبعته التحيتى زاعماً أن الأدب لا يتفق ومبادىء المساواة . . أولئك كلهم ناس برهنوا على تعلقهم بالحكم الجمهورى والمبادىء الثورية »

وكان جيرار يكتب هذه الأسماء الواحد بعد الآخر ، فلما انتهى من كتابتها رفع رأسه وقال فى حياء شديد . . « وماذا يكون إذا وضعت اسمى أنا أيضاً »

وعز على الكونت أن يعبث بسذاجة هذا الفلاح الطيب إلى هذا الحد ، فقال : « لا يحسن بك أن تفعل ذلك يا مواطنى جيرار ، فأنت عمدة القرية وستوقع القائمة بإمضائك ، فليس جميلا منك أن تزكى نفسك وتطلب مكافأة »

وفى المساء أرسل جيرار قائمة المشبوهين إلى لجنة الإنقاذ وقلبه مفعم بالأسى لأن اسمه غير مدرج بها . أما بيرو فلم تطاوعه نفسه على كتم الخبر فنشره فى القرية كلها مؤكداً أن المواطنين أعضاء لجنة الإنقاذ لن يبطئوا فى دعوته إلى باريس ليمنحوه المكافأة التى يستحقها . . ولعلها وظيفة سامية أو نفحة مالية محترمة أو إقطاع من أملاك النبلاء . . ومن يدرى ؟ فلعلها خير من كل ذلك بكثير !

ولشدما حسده الحاسدون وغبطه الغابطون يوم جاءت شرذمة من الشرطة صباح يوم من الأيام تحمله فى مركبة هو وجانديل وراندون ودوكين وسائر المشبوهين إلى باريس حيث تنتظرهم الهبات المالية والمناصب والإقطاعات . فلقد ذهب العمدة جيرار إلى امرأته عابس الوجه مقطب الجبين يقول لها والأسى يقطع نياط قلبه : « ماتنقضى منى حسرة ولا أسف كلما ذكرت أن القلم كان فى يدى فلم أكتب به اسمى بين أسماء أولئك المشبوهين المحظوظين ،

تباً للكونت فلو تركنى لنفسى لكنت الساعة فى طريقى إلى باريس » فقالت وهى تتنزى من الألم : « لعلك تعلمت بعد هذه المرة أن لا تصغى إلى نصائح أولئك النبلاء المناحيس »

ولشدما تحرج موقف العمدة أمام فتيان القرية ورجالها لما علموا برحيل الفوج الأول من « المشبوهين » السعداء الذين رشحهم لمكافآت الحكومة فثارت ثائرتهم عليه واتهموه بأنه ظلمهم وانتقص أقدارهم وآثر عليهم من هم دونهم فى الوطنية والإيمان بالمبادىء الثورية . ولم يدعوه حتى كتب قائمة مشبوهين جديدة لم يهمل فيها ذكر أحد منهم حتى اسمه ولم يفته أن يجعله فى رأس القائمة . ولقد خطر للكونت أن يتفقد أحوال القرية ويتنسم أخبارها فما إن جال فى أنحائها جولة حتى أدهشه الصمت المخيم على دورها وطرقاتها . ولقد استخبر فخبر بما كان من أمر أشداء القرية مع عمدتهم وأن شراذم من رجال الشرطة هبطت القرية بعد ذلك بإسبوعين على عربات نقل كبيرة فكدست فيها فتيان البلدة ورجالها تكديساً وذهبت بهم إلى باريس ، وقد مضت على سفرهم ستة أسابيع كاملة ولم يصل القرية عنهم خبر فلا يعلم أحد عنهم شيئاً

* * *

هدأ بال كونت أوفرينى وطابت نفسه بعد أن احتوت سجون باريس جيرانه المزعجين الذين لو طال جوارهم له لطغوا عليه ولاستلبوه ضياعه وماله باسم الحرية والمساواة . وهكذا استطاع أن يعيش فى قصره آمناً طول عهد الإرهاب

فلما انقضى ذلك العهد الأسود بويلاته وبلاياه وعاد إلى فرنسا أمنها وسلامها على أثر سقوط الطاغية روبسبير وقيام الحكومة الإدارية ، سافر الكونت إلى باريس ليتعرف مصير « المشبوهين » ولينقذ من غيابات السجن من بقي منهم على قيد الحياة . ولكن المظالم التي نزلت بالشعب أيام الإرهاب كانت أكثر من أن تصفى في شهر أو في شهور ، فوجب أن يلبث أولئك المساكين في سجونهم إلى أن تفرغ الحكومة من مشاغلها فتنظر في أمرهم

ولاحظ شيوخ في القرية أن الكونت يكثر من السفر إلى باريس ولكنهم لم يتبينوا سبب ذلك إلا بعد أن رأوا الشبان والرجال الغائبين يعودون إليهم أفواجا حيارى خجلين مما آل إليه أمرهم في باريس وهم إنما ذهبوا إليها ليستولوا على المناصب والأعطيات

ولئن شكر أهل القرية للكونت سعيه الحميد في سبيل تسريحهم من السجون فقد ظلت سحابة من الغيظ تغشى قلوبهم كلما ذكروا أن هذا السيد الماكر قد لعب بعمدتهم وخدعه خدعة كادت ، لولا لطف الله ورحمة ، أن تؤدى بهم جميعاً إلى الهلاك . على أن ما علموه بعد عودتهم من أن الكونت كان يكفل عيالهم ونساءهم وشيوخهم طول غيبتهم قد أحدث أثره في تبديد تلك السحابة وإعادة المياه إلى مجاريها ، فلم تقبل ليلة عيد الميلاد لسنة ١٧٩٤ حتى كان قصر أوفريني يعج بأهل القرية وقد أحاطوا عند منتصف الليل بالصنوبرة الغنية يستجلون محاسنها ويلتقطون لعبها وحلواها جذلين مبتهلين

وحانت من الكونت لفتة فلاحظ أن العمدة جيرار يتوارى وراء

الناس حياء كأنه يحس غرابة موقفه فى تلك الليلة بعد ما كان منه فى العام الماضى ، فمد إليه يده وجذبه إلى الصف الأول من صفوف الحاضرين . ولقد نظر الكونت إلى الفلاح ، ونظر الفلاح إلى الكونت نظرة طويلة أعقبتها ضحكة عالية أغنتهما عن كل إفصاح

قال الكونت : « أتحقد على ياجيرار ؟ »

فأجاب : « لا والله ياسيدى الكونت ، فلو أنى عرفت معنى كلمة « مشبوه » وأدركت حقيقة المراد من تحرير تلك القائمة الملعونة ما وضعت فيها اسماً غير اسمك . وإنى لأحمد الله على هذا الجهل الذى حفظك وأبقاك بيننا ، فلعمرى لو ذهبت إلى هناك لما قدرت لك عودة ولا كتبت لك سلامة . لقد شاهدت الأمور بنفسى هنالك وعرفت كيف كان المشبوهون يحاكمون وكيف كانوا يموتون . فإذا كنا نحن قد بقينا أحياء فلأننا صماليك لا قيمة لنا ولا خطر ، ولذلك أهملونا أو أرجأونا . . أما أنت يا سيدى الكونت ... »

ثم مال عليه وهمس فى أذنه :

« ومع ذلك فقد أخلصت لى النصيحة يا سيدى وأشرت على بأن لا أضع اسمى فى القائمة ولكنى أسأت بك الظن وأصغيت إلى امرأتى ، حقاً إن الله قدر ولطف » .

بداية مشؤومة لنهاية مشؤومة

فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ١٨٩٦ دخل القيصر نيقولا الثانى بموكبه الفخم مدينة موسكو ليتوج نفسه إمبراطوراً على الروسيا ، طبقاً لتقاليد أسلافه ، الذين كانت حفلات تتويجهم تقام فى كاتدرائية اوسبانسكى بتلك المدينة ، فكان القيصر يتناول التاج ويضعه على رأسه بيديه رمزاً إلى أنه لا يدين بهذا التاج للشعب ولا لأحد سوى الله .

ولقد أخذ الشعب الروسى وحكومته يتأهبان لذلك الاحتفال قبل حلول أيامه بأسابيع ، فرصفت الشوارع التى سيمر بها الموكب رصفاً جديدا ، وفرشت بالرمل الأصفر والأحمر ، وصفت على جوانبها المقاعد والمدرجات والمقاصير ، وزينت وجهات المنازل والشرفات بالأزهار والخضراوات والأعلام ، وتنافس السكان غنيهم وفقيرهم فى تنسيق الزينة وتجميل الدور وإقامة معالم الأفراح حتى بدت المدينة الكبيرة كأنها الجنة ازينت للمؤمنين.

وعند الظهر دقت أجراس الكنائس ودوت طلقات المدافع مؤذنة ببلوغ الموكب الإمبراطورى باب المدينة ، فهرع السكان على اختلاف طبقاتهم إلى الشوارع والطرق والنوافذ والشرفات لمشاهدة الركب الجليل ، ولم يلبثوا طويلا حتى أقبلت فرقة من عسكر القوزاق تسير فى الطليعة فوق جيادها الصغيرة تتلوها فرقة الحرس الإمبراطورى الفخم بملابسها الزاهية ومزاريقها

اللامعة ، ثم أقبل جلالة الإمبراطور فوق جواد أبيض جميل يحف به كبار قواد الجيش ورجال البلاط ومن ورائه القيصرة ألكسندرة فى عربة كبيرة مذهبة يجرها ستة من الخيل .

وإذ ترجل الإمبراطور ووطئت قدماه سلم الكنيسة انطلقت أجراس الأربعمائة كنيسة القائمة بموسكو تدق دقا متواصلا ، فكان رنينها يمتزج بهزيم المدافع فيبعث فى النفوس الرهبة والجلال .

أما الكاتدرائية فقد تبدت فى مظهر تعجز الكلمات عن تأدية وصفه . فلقد أضيئت فى أرجائها آلاف من الشموع ، وفى سقوفها مئات من الثريات ترسل نورها الباهر على الجدران والأعمدة التى غطيت بالطنافس والسجف المختلفة الألوان والموشاة بالذهب والفضة والمرصعة بالكريم من الأحجار ، وقد نصب العرش الإمبراطورى ذو المقعدين فوق منصة مكسوة بالديباج الأحمر بين أربعة أعمدة من الذهب الوهاج . واصطف عن يمينه وعن يساره أمراء البيت المالك وأميراته ووزراء الدولة والممثلون السياسيون ورجال الإكليروس وقواد الجيوش وأعيان الامبراطورية ونبلاؤها ، بملابس التشريفة الكبرى المزركشة بالذهب تلمع فوقها الأنواط والأوسمة والنياشين فيمتزج تألقها بالبريق المنبعث من حلى النساء وجواهرهن، ويختلط كل هذا بأضواء الثريات وأنوار الشموع حتى ليجد الناظر نفسه أمام منظر بهيج ساحر يجمع بين الجمال والجلال ويملأ النفس خشوعا والبصر سرورا .

اقتحم القيصر والقيصرة باب الكاتدرائية ، فوقف الحاضرون إجلالا ، وانحنت هامات الرجال وركعت السيدات واقتعد نيقولا الثانى وزوجته العرش وأومآ إلى مستقبليهما بالرأس إيماءة شكر وتحية ، وتقدم الكاهن الأعظم إليهما بالصليب فقبلاه واقفين ، فمنحهما البركة الربانية ويداه فوق رأسيهما . ثم نهض القيصر وتناول التاج بيديه ووضعه على رأسه هنيهة ثم عاد فمس به شعر القيصرة وهى جاثية أمامه رمزاً إلى أنها تستمد سلطانها من سلطانه ، ثم أعاده إلى رأسه وأنهضها ووضع على جبينها قبلة واستويا على العرش . وعندئذ بدأ القسس يرتلون الصلوات ويقيمون شعائر التتويج ، ومسح الكاهن بالزيت المقدس جبين الإمبراطور وعينيه وأنفه وفمه وشفتيه وأذنيه ، فسجد شكراً لله الذى رفعه إلى عرش الآباء والأجداد ، ثم جلس يستمع إلى الوزراء وقواد الجيوش وهم يقسمون بين يديه أيمان الإخلاص والطاعة والولاء ، حتى إذا ما انتهت مراسم الحفلة انصرف وعروسه فى موكبهما العظيم إلى قصر الكرملين .

وكانت تقاليد القياصرة قد جرت منذ عهد الإمبراطور بوريس جودونوف على أن يجعلوا من تتويجهم عيداً قوميا يقدمون فيه إلى عدد كبير من أفراد الشعب هدايا صغيرة تذكرهم بهذا الحادث السعيد ، فكانت الجماهير تحتشد غداة كل حفلة تتويج فى ساحات المدينة ورحباتها وتلبث ساعات طويلة فى انتظار افتتاح المقاصير التى تنصبها الحكومة فيها ، فتتسلم منها الهدايا وتنصرف فى سلام . فلما كانت حفلة تتويج القيصر

إسكندر الثالث اجتمع من أفراد الشعب أربعمائة ألف نفس غصت بهم الشوارع والميادين العامة فاضطرت السلطات إلى ترحيلهم إلى سهل فسيح خارج موسكو يدعى سهل خودينسكو تتسع أرجاؤه لأضعاف هذا العدد . ومن ذلك الحين أصبح سهل خودينسكو ملتقى للشعب فى أعياد التتويج .

فنى يوم ١٤ مايو سنة ١٨٩٦ بدأ سكان موسكو يحتلون السهل وكان المسافرون من المدينة أو الوافدون إليها يرون زمر الأهالى تتوافد مئات وآلافا وعشرات آلاف مشاة حفاة رثات الأسمال مختلفى السحن والأزياء فكانت قطارات السكك الحديدية تغص بركابها فتفيض بهم حتى تمتلىء ممراتها فيقف الكثيرون منهم على سلم العربات أو يعتلون سطوحها ، وازدحمت السكك الزراعية بالعربات والعجلات ، تحمل آلافاً وآلافاً من الفلاحين وفدوا من أقصى الشمال ومن أقصى الجنوب ومن سيبيريا نفسها وقد غادروا قراهم من أيام عدة وقطعوا مئات المراحل للتمتع بالاشتراك فى العيد . أما المحطات فكانت تعج بالجماهير التى لجأت إليها للمبيت تحت سقوفها وفوق أفاريزها ، حتى إذا لم يبق فيها مكان لقدم تسلل الناس إلى الشوارع والميادين ليناموا على المدرجات والمقاعد المصفوفة ، فإذا امتلأت أقبلوا على السهل يفترشون أرضه ويلتحفون بسمائه منتظرين طلوع النهار بصبر جميل . وهكذا ظل العدد يتضخم والزحام يشتد والكتل البشرية تتكاثف ، حتى زاد عدد الجمع المحتشد على ثمانمائة ألف نسمة من أخلاط الناس وحثالة الأقوام وجواب الآفاق وصغار العمال والأطفال والنساء .

وكان القيصر قد جعل الهدية التي ستوزع في الغد على كل فرد كأساً من البلّور مزخرفة بالخزف الملون نقش عليها التاج الإمبراطوري فوق شعار الدولة والأحرف الأولى من اسمي « نيقولا وألكسندره » ومنديلا كتبت عليه عبارة : « ذكرى عيد الشعب سنة ١٨٩٦ » وصرة فيها كمية من الخبز واللحم والنقل والحلوى والفطائر .

واختارت الحكومة جانباً من جوانب السهل يفصل بينه وبين باقي السهل خندق طبيعي عمقه ثلاثة أمتار وعرضه خمسة عشر متراً ، فأقامت عليه مقاصير كدست فيها الهدايا ثم ضربت حوله نطاقاً من الحبال الغليظة ليحول دون هجوم الناس على المقاصير أو دون سقوطهم في الخندق وأعلنت أن تلك المقاصير ستفتح في الساعة العاشرة من صباح الغد .

وأراد القيصر أن يستكمل العيد أسباب المرح واللهو والطرب ، فأمر فصفت على امتداد جوانب السهل مقاصف تحوي براميل الأنبذة والجعة وشتى صنوف الخمر والمرطبات ، وملاعب للبهلوانات والحواة والمهرجين ، ومسارح للتمثيل والرقص ، ومنابر للخطباء والمتكلمين ، ومقاصير للمغنين والموسيقيين . فانتشرت جموع الشعب على تلك الملاهي والمشارب والمقاصف وقضت سحابة النهار وطول الليل تمرح وتلعب وترقص وتغني غير عالمة أن القدر يخبئ لها نكبة من أروع النكبات .

ولقد طال الليل بتلك الجموع وهي ساهرة مضطربة قلقة لا تستقر ولا تهدأ ولا تستريح . فلما أقبل الصباح كانت الوجوه شاحبة والقوى خائرة

والأعصاب متوترة ، وقد بدأت الصفوف المتأخرة تحاول أن تحتل مكاناً متقدماً فكانت تدفع ما أمامها بعنف ، على حين كان المتقدمون يجتهدون فى أن يحتفظوا بمواقفهم فيصدون الزاحفين إلى الخلف بقوة . وهكذا نشأت حركة مد وجزر من تدافع تلك الأمواج البشرية الهائلة أدت إلى النتيجة الطبيعية وهى سقوط بعض الناس تحت الأقدام واختناق بعض آخر فكانت تبعث هنا وهناك أصوات الاستغاثة وصيحات الألم ولكن أنى لوسائل الإسعاف أن تجد سبيلا إلى المصابين فى وسط هذا البحر الزاخر ؟

وإذ اقتربت ساعة توزيع الهدايا سرت بين الجماهير إشاعة تقول بأن عدد هذه الهدايا لا يكاد يكفى أربعمائة ألف مع أن عدد الطالبين ثمانمائة ألف ، فأخذ كل واحد يحاول أن يفوز بنفسه وأن يكون من السابقين ، فحدثت حركة اندفاع من الخلف إلى الأمام لم تقو الصفوف المتقدمة على صدها أو الثبات فى وجهها فاندفعت هى الأخرى تحت تأثير الضغط وانكفأت تلك الكتل الضخمة من الناس على الحبال واقتلعتها وساقها التيار الجارف فزج بها إلى الخندق وسقط الصف الأول إلى الهاوية وسقط عليه الصف الثانى فالثالث ، وكلما وجد المتأخرون فراغاً اندفعوا فيه حتى اشتد الهول وعم الاضطراب فلا فى استطاعة المتقدمين أن يتقهقروا أو أن يثبتوا فى وجه التيار ، ولا فى علم المتأخرين ما هو حادث فى الصفوف الأمامية فيكفوا عن الاندفاع أو يتريثوا . وامتلأ الخندق بأجساد الناس شيوخاً وأطفالا ونساء ، وعبر الآخرون الخندق فوق تلك الأكوام البشرية المكدسة

فى الهاوية ، فتكسرت الهامات وانسحقت الجماجم وتهشمت المظلم وتمزقت الجسوم وتصعدت من تلك المقبرة البشعة آلاف الأصوات تبكى وتئن وتستغيث، ولكن ما يكاد رأس يطل حتى تهوى فوقه عشرة أجسام، وما تكاد ذراع تمتد حتى تنثنى تحتها كومة من المتساقطين . وظنت الصفوف الخلفية أن السابقين سيستنفدون الهدايا وكبر عليها أن تقاسى ما قاست ولا تفوز بشىء ، فأعملت الأرجل والسواعد والأكتاف لتتقدم ، ثم فقدت الجماهير صوابها فدارت المعارك بالأيدى ثم بالعصى ثم بالخناجر والمدى فتحول السهل إلى ميدان قتال عنيف تتناقل أرجاؤه أصداء الولولة وصيحات الفزع .

وادلهم الخطب وفدح المصاب إذ تكسرت تحت ثقل الجماهير ألواح من الخشب كانت تغطى بئراً فى وسط السهل عمقها ثلاثون متراً فسقط فيها مئات من الناس حتى طفحت . ولم يكن ثم وسيلة لإنقاذ أحد أو لتنبيه الآخرين إلى الخطر ، فظلت تلك الجموع الزاخرة تتدافع وتتزاحم والأطفال والنساء والشيوخ يسقطون فى الحفر المبعثرة فى أرجاء السهل فيجىء الذين وراءهم فيطؤونهم بالأقدام ويمرون فوق جسومهم مندفعين نحو القاصير التى تحوى الهدايا المشئومة

ولقد وقف حفاظ الأمن ورجال البوليس عاجزين عن التدخل لتلطيف الحالة أو لحفظ النظام ، إذ كانت طبيعة الزحام تحول دون أى تدخل أو إسعاف أو مساعدة . وهكذا بقيت الكتلة البشرية فى هذا

الهول ساعات طويلة حتى بدأت كثافتها تخف من الجوانب فتسرب الناس ناجين بأرواحهم بين مختنق يترنح ومضغوط يتمايل ومعصور يكاد يغمى عليه

وأبلغ خبر الكارثة إلى القيصر فبادر مع القيصرة إلى مكان الفاجعة ليشرف على عملية الإنقاذ وليواسى الجرحى والمنكوبين . فألفى الخندق والبئر والحفر مقابر هائلة تكدست فيها الجثث ، وألفى وجه السهل مغطى بالأشلاء والدماء فعاد إلى القصر محزون النفس مكتئب الفؤاد . وفى المساء أحصت السلطات عدد الضحايا فاذا هو أكثر من ستة آلاف جاءوا من أقصى البلاد ليحظوا بهدايا العيدفإذا الحتف ينتظرهم فى هذا المكان المشئوم!!

مايكل كولينز

لما قتل ما يكل كولينز فى سنة ١٩٢١ غير بالغ من العمر ثلاثين عاماً وعاماً سرت فى إيرلندا كلها هزة حزن كتلك الهزات التى تشعر بها الأمم عند ما تفقد رجلا تعتبره بحق أعظم زعمائها وعماد الحركة الوطنية فيها

ولقد قال مستر باتريك هوجان وزير الزراعة فى الحكومة الإيرلندية يرثى صديقه الشهيد : « إن إيرلندا رغم حزنها العميق على ما يكل كولينز لا تستطيع أن تدرك مدى مصابها بفقده . إن هذا الشاب لو عاش لجعل إيرلندا أمة عظيمة ودولة ذات شأن ، فلقد كان عقله ذا استقامة وسعة وعمق وقوة إلى درجة تضعه فى صف أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ . ومن يدرى الى أى حد كان يصل بايرلندا لو امتد به الأجل ، إنى واثق من أنه كان يجعل اسمها يدوى فى أذن العالم »

وكتب الوزير فيتزجيرالد : « .. إن إيرلندا كلها تبكى ولكنها لاتعلم فداحة النكبة التى دهمتنا ... لقد كنا نحبه ونثق به ونعتمد عليه والآن أصبحنا بعده أيتاماً . نعم إن كولينز قد مات وما كنت أظن أن رجلا مثله يموت »

وكتب مستر أوهيجنس وزير الداخلية : « إن ما يكل كولينز قد مات وما كنت أحسب أن الموت يستطيع أن يقف مثل هذا القلب ... الآن

نظرت إلى الوجه الهادىء الناعم وجه زعيمى وصديقى ، ولمست يديه الباردتين وحملت نعشه فوق كتفى وصرت أرى شيئاً واحداً لاأرى سواه : ذلك أن مايكل كولينز وهو أعظم رجل خدم قضية أمة من أول التاريخ حتى اليوم قد مات ، بل قد أردته رصاصة أطلقها عليه أحد مواطنيه . لم يكن مايكل كولينز زعيما فحسب ، بل كان من البنائين الذين يشيدون الأمم » .

ولد ميكاييل أو « مايكل » كما يسميه الإيرلنديون أو « ميك » كما يسميه أصدقاؤه ، عام ١٨٩٠ فى قرية من قرى مقاطعة كورك وكان أصغر أبناء أبيه الثمانية ، فقد أباه وهو فى السابعة من عمره وفقد أمه وهو فى الخامسة عشرة ولم تكف المزرعة الصغيرة التى خلفها له أبوه لتقوم بأودة وأود إخوته ، فغادر كورك إلى إنجلترا يبحث عن عمل يغنيه ، وسرعان ما استخدم فى صندوق التوفير بإدارة البريد وظل فى عمله ثلاث سنوات ثم انتقل للعمل فى مصرف أميركى بلوندرا استطاع بجده أن يصل إلى منصب ذى شأن فيه . وقد مهد له عمله فى هذا المصرف سبيل الإلمام بالمسائل المالية والشئون الإقتصادية حتى أصبح فيها من الخبيرين المبرزين

وولع كولينز بالألعاب الرياضية وإحراز الأوسمة فى القفز والعدو وحمل الأثقال ، وبرع فى لعبة الهورلنج « Hurling » وهى اللعبة الأهلية التى تحتاج إلى كثير من القوة البدنية وسرعة الخاطر . ولقد كان للألعاب الرياضية أثر كبير فى حياته السياسية كما سيراه القارىء بعد قليل . ولكن

أعماله اليومية لم تنسه وطنه ، فاشترك فى الجمعيات الإيرلندية على اختلاف أنواعها ودرس لغة بلاده وآدابها وألم بأحوال أمته من كل نواحيها . فلما كان عام ١٩١٤ وشبت الحرب العالمية انضم إلى فرقة المتطوعين الإيرلنديين فكان من منظميها وذوى النفوذ فيها وظل يعمل فى خدمة الإمبراطورية حتى أقبل عام ١٩١٥ فأحس بوطنه قادماً على أمور خطيرة ورأى فى الجو ما حمله على أن يعود إليه فعاد .

وفى عام ١٩١٦ بدرت بوادر الثورة الإيرلندية فانضم إلى الثائرين الذين مالبثوا أن رأوا فيه منظما عاقلا وقائداً مدربا فاختاروه أميناً لأسرار لجنة تألفت لإسعاف عائلات الأسرى وضحايا الثورة وقبضت عليه السلطات وأودعته السجن ثم أفرجت عنه فى عيد الميلاد ، فما غادر السجن إلا لينضم إلى حزب السين فين ، فقام بدور خطير فى تنظيمه وإعداد جيوشه ثم عاد الإنجليز فقبضوا عليه فى عام ١٩١٨ ولكنهم عادوا فأفرجوا عنه . وما أظن الانجليز أسفوا لشيء بعد ذلك أسفهم لهذا الإفراج الذى عانوا من جرائه أشد ما عانوا من المشاكل والمتاعب .

شبت الثورة واضطرم سعيرها وكان ده ڤاليرا منفياً وآرثر جريفث سجينا فحمل مايكل كولينز علم القيادة ووقف فى الصف الأول من صفوف الدفاع عن الوطن حتى قال الجنرال مكريدى القائد العام للقوات الإنجليزية فى إيرلندا : « إن هذا الصبى هو الزعيم الحقيقى لجميع العصابات الإيرلندية »

بدأ كولينز عمله بأن أوجد إدارة دقيقة منظمة للاستعلامات فكان

يرتب حركاته العسكرية من هجوم أو تحصن أو ارتداد وفقاً لما توافيه به هذه الإدارة المدهشة من المعلومات . وكان على اتصال وثيق بكافة طبقات الشعب محبوباً منها جميعاً وكان له أصدقاء أوفياء بين سعاة البريد وسائق السيارات والحوذيين وباعة الصحف وخدم الفنادق ، بل بين حراس السجون ورجال البوليس أيضاً . وكان يعرف كيف يعاشرهم ويرضيهم ويكسب مودتهم فما هي إلا كلمة منه فينتشروا في أنحاء البلاد يوصلون أوراقه ويبلغون رسائله ويعودون إليه بما يريده من المعلومات .

امتاز مايكل كولينز بذاكرة قوية وبقدرة على الحركة والعمل قلّ أن يوجد لهما مثيل . ولعل أظهر شيء في أخلاقه كان ميله إلى المزاح والضحك ، فما فارقت الابتسامة شفتيه حتى في أحرج المواقف وأشدها هولا . وما عرضت فرصة لمجاملة أصدقائه المسجونين إلا انتهزها ، فكثيراً ما هرّب إليهم الكتب والطعام والسجائر ورسائل التشجيع . ويروي أصدقاؤه أن موظفا عنده عزيزاً لديه مرض مرضاً خطرا فما انقطع كولينز عن زيارته بالمستشفى كل يوم وهو يعلم أن البوليس يتعقبه ويحاول بكل الوسائل أن يقبض عليه . أما وقائعه مع البوليس فكادت تكون وقائع يومية ومن نوع عجيب يذكرنا بما قرأناه عن أرسين لوبين وشرلوك هولمز ، بل لقد كانت تلك الوقائع موضوع فكاهة إيرلندا بأسرها وموضوع دهشة الناس جميعاً حتى لقد جعلت الحكومة الإنجليزية جائزة خمسة آلاف من الجنيهات لمن يقبض عليه حياً ثم رفعتها إلى عشرة آلاف ثم إلى عشرين ألفاً لمن يقبض

عليه حيا أو ميتاً . . . ولـكن ذهبت جهود البوليس والجيش سدى وظل الإرلنديون يتفكهون كل يوم بخبر واقعة جديدة فاز فيها بطلهم المحبوب على الشرطة الإنجليزية .

وقد أحدثت هذه المطاردة المستمرة أثرها فى نفس الشعب الإيرلندى فضاعف عطفه على زعيمه المضطهد وكان هذا العطف يتجلى فى الصلوات التى تقيمها الجماهير ابتهالا إلى الله أن يحفظ لإيرلندا رجلها العظيم . ولم يقف أثر هذه المطاردة عند حد العطف بل تجاوزه إلى أن جعل مايكل كولينز موضع إعجاب مواطنيه ومحل ثقتهم التى لا تحد حتى أنهم كانوا يعتقدون أن إيرلندا بخير ما دام هذا الرجل بخير .

حدث مرة أن طوقت فرقتان من البوليس قسمين من أقسام المدينة ومنعتا السير فى الشوارع وحرمتا على الناس الخروج من منازلهم يومين كاملين وأمضتا هذين اليومين فى تفتيش البيوت بعناية ودقة باحثتين عن الزعيم المطارد ولم تسفر هذه العملية عن شىء لأن كولينز قد مر من بين الصفوف متخفياً فى زى راهبة من راهبات الإسعاف تبتسم لرجال البوليس وهم يحيونها تحية الاحترام .

وحدث أن كان ذات مرة فى حانوت تاجر وإذا بضوضاء تعلو فى الشارع والناس يصيحون « البوليس ... البوليس ... » ولم يكن ثمة شك فى أن كولينز سيقع بين أيديهم ، ولـكن سرعان ما شاهد الناس أربعة من زبائن التاجر يغادرون الحانوت مطلقين سيقانهم للريح والبوليس يجرى

وراءهم منادياً « اقبضوا عليهم . . . إن مايكل كولينز بينهم » وفى هذه الأثناء خرج كولينز من باب الحانوت الخلفى هادئاً مطمئناً .

وحدث أنه كان يتغدى ذات يوم فى مطعم وإذا بالبوليس يهاجم المطعم شاهراً المسدسات على الحاضرين وتقدم ضابط البوليس إلى مايكل يتفرس فى وجهه فما كان من البطل إلا أن ابتسم ثم ضحك ضحكة عالية وقال فى بساطة : « إنى أشبهه كثيراً . . أليس كذلك ؟ حقاً أن هـذه المشابهة كادت تكون السبب فى القبض علىّ أكثر من مرة . . . أرنى صورته يا سيدى الضابط » وتناول الصورة من يد الضابط وتأمل فيها قليلا وقال : « إنى لو كنت أسرح شعر رأسى على طريقته لكان الشبه تاماً ... انظر يا سيدى . . . أليس كذلك ؟ » ثم أعاد الصورة واستمر يأكل بطمأنينة حتى انصرف الضابط ورجاله يبحثون عن كولينز فى مكان آخر . . .

وكان يتعشى ذات مساء فى مطعم جرشهام وقد جلس ضابطان من ضباط البوليس إلى المائدة المجاورة لمائدته بعد أن علقا على الحائط قرابيهما وفيهما مسدساهما وجعلا ينظران إليه نظرة فحص وريبة ، ولكن سرعان ما وجد السبيل إلى محادثتهما وبقى يتنقل فى الحديث من موضوع إلى آخر حتى جعله يدور حول مايكل كولينز والآثام التى يرتكبها ضد البلاد وظل يسامر الضابطين ويصرف نظرهما إلى بعض الأشياء حتى تمكن من أخذ المسدسين من قرابيهما ثم ارتدى معطفه وودع الصديقين الجديدين ، فلما

نزل بعض درجات السلم أهاب بهما قائلا : « سامحانى فلقد فاتنى أن أقول لكما إنى مايكل كولينز » واختفى .

ولقد مكنته قدرته على القفز مرة من الفرار من الأعداء . ذلك أن البوليس أحاط بمنزل كان فيه فلم ير وسيلة للخلاص إلا أن صعد إلى سطح البيت والبوليس يتعقبه وهناك رأى فتحة تؤدى من السطح إلى السلم ولكن بينهما فراغاً عظيما فتدلى فى تلك الفتحة وأمسك حافتها بيديه وظل يهز جسمه بقوة ثم قفز قفزة هائلة أدرك بها « بسطة السلم » وهرول إلى الشارع واختفى والبوليس عاجز عن اللحاق به .

وكان ذات مرة مع بعض أصدقائه فى سيارة وقد أحاط بها الجنود لتفتيشها فنزل منها يدق يداً بيد ويلعن الزمان الذى يسخر فيه الجيش البريطانى العظيم فى مطاردة مثل اللعين مايكل كولينز وبعد أن تمت عملية التفتيش ركب السيارة وانطلق مع أصدقائه هازئين ضاحكين .

وحدث أن بلغ مرة باب بيته فرأى حوله جمعاً كبيراً والبوليس يفتش غرفه للبحث عنه فظل واقفاً وسط الجماهير ينتظر نتيجة التفتيش ، فلما انصرف البوليس صعد إلى غرفته وبات فيها إلى الصباح .

ونزل مرة من قطار الترام فألقى نفسه بين ذراعى جندى من جنود الجيش فابتدره قائلا : « لعلك تبحث عن هذا الرجل الذى يطارده البوليس » وأشار بيده إلى الدور العلوى من قطار الترام وبينما كان الجندى يجيل النظر ليرى « هذا الرجل » أفلت كولينز من بين يديه وحال بينهما جمهور من الركاب لعلهم من أصدقائه . . .

على أننا لو أردنا أن نسرد وقائع مايكل كولينز مع الجيش والبوليس لملأنا مجلداً ضخماً . وسواء أكانت هذه الوقائع صحيحة أم مجرد روايات ابتكرتها مخيلة المعجبين بالرجل فقد كان لها أثرها الطيب فى انعاش الأذهان وبث الأمل فى نفوس المجاهدين . وأى بأس يستطيع أن يتسرب إلى شعب يرى زعيمه يداعب الموت كل يوم وينتصر عليه ؟

بينما كان الشعب الإيرلندى يلهو بقصص بطله العظيم كان هذا البطل منصرفا إلى الجدى من المسائل والخطير من الشئون ، فما كاد يعين وزيراً للمالية حتى فكر فى عقدقرض يستعين به على الاستمرار فى محاربة الإنجليز. ولا شك أن فكرة عقد القرض فى مثل تلك الظروف كانت على الأقل فكرة مضحكة ، إذ أن حكومة إيرلندا لم يكن معترفاً بها من أحد ولأن أموالها كانت عرضة للمصادرة فى كل لحظة ، ولأنه لم يكن لدى هـــذه الحكومة مايضمن سداد الدين ، ولأن الذى يقرضها بنسا واحــداً كان يعرض نفسه للمحاكمة ومن بعدها للإعدام . ولــكن كل ذلك لم يثن عزيمة الوزير الشاب فأعلن رغبة الحكومة الإيرلندية فى اقتراض مليون من الجنيهات . ولــكم كانت دهشة إنجلترا عظيمة عند ماغطى هذا القرض فى أميركا وإنجلترا نفسها فى أيام وزاد ماعرض من الأموال عن المليون ...

ولا شك أن نجاح هذا القرض كان من أهم العوامل التى حملت الحكومة الإنجليزية على مهادنة إيرلندا ثم على مصالحتها إذ لم تمض أسابيع على هذه العملية المالية حتى اعترف المستر لويد جورج بهزيمته وطلب إلى

إيرلندا أن توفد إليه رسلها للبحث فى شروط الصلح فأوفدت إليه وفداً فى طليعته مايكل كولينز .

عقدت الهدنة بين البلدين المتحاربين وفرح العالم لانتهاء هذه المذابح البشرية واغتبط الشعب الإيرلندى بما وصلت إليه جهود زعمائه وآن الأوان ليحظى هذا الشعب المجيد برؤية بطله العظيم . نعم لقد ظل شخص مايكل كولينز رغم شهرته الواسعة مجهولاً من سواد الشعب وها هى ذى الظروف تسمح لهذا الشخص أن يبدو للناس . ولكن كولينز لم يكن بالرجل الذى تستهويه الشهرة ولا بالذى تذهب برأسه نشوة المجد والظفر ومن يدرى؟ فلعله لم يخطر بباله أنه زعيم وأنه قد أدى لبلاده خير الخدمات !

كان مايكل كولينز يفر من الجماهير التى تلتف حوله للهتاف باسمه ويتحاشى كل مظاهر الزعامة والرياسة وكل مامن شأنه أن يميزه من سائر الناس وكان لايعتبر نفسه أكثر من جندى من جنود الوطن يؤدى الواجب المفروض عليه فاذا ما أظهر له البعض إعجابهم بسيرته أظهر لهم عجبه لما يتوهمونه فيه . . .

ذهبت إليه مدام سيمون تيرى الصحفية الفرنسية لتحدثه فى بعض الشئون الإيرلندية وقدأوردت مادار بينهما من الحديث فى كتابها « إيرلندا بين حرب الاستقلال والحرب الأهلية » وها هو ذا بنصه :

« قليل من الصحفيين يستطيعون أن يفخروا بأنهم تحدثوا إلى الزعيم مايكل كولينز لأن الرجل يفر من الصحفيين فراره من البوليس . ذهبت

فى فترة الهدنة إلى وزارة المالية ووقفت بين جمهور الزائرين انتظر قدوم الوزير وإذا بشاب طويل القامة ممتلىء الجسم يتقدم بخطوات سريعة ويقفز فوق الحواجز الخشبية بدلا من أن يسير فى الممر المزدحم بالناس ثم يقفز درجات السلم أربعاً فأربعاً ويختفى . هذا هو الوزير

دخلت عليه فألفيت أمامى شاباً لايتجاوز الثلاثين من عمره ممتلئاً حياة ونشاطاً كثيف الشعر أسوده عريض الجبهة ذا حركات فى القيام والقعود كحركات الصبيان . . . رباه ! أهذا مايكل كولينز الزعيم السفاح الذى يحدثنا عنه الإنجليز ؟ هذا الوجه الوديع ، وهذه الابتسامة الهادئة ، وتلك التقاطيع البريئة . أهذا مايسميه الإنجليز كبيرالعصاة وسفاك الدماء ؟ نظرت إليه فألفيته حاد البصر بارز الذقن مطبق الشفتين فتساءلت هل أستطيع أن أستخرج شيئاً من بين هاتين الشفتين ؟

حدق فى وجهى وقال : « تعلمين ياسيدتى أنى لا أفضى بحديث إلى أحد الصحفيين »

قلت : « ولكنى ماجئت لأطلب حديثاً بالمعنى المعروف وإنما جئت أستعلم عن بعض الشئون » وهنا ظهرت عليه علامات الارتياح وقال : « إذا كان الأمر كما تقولين فلا بأس »

ولكنى حاولت عبثاً أن أجعله يصرح لى بشىء مما أريد وانتهينا إلى أن صرت أنا التى أتكلم وهو الذى يصغى إلىّ ومع ذلك يقول بعض الناس إن الإرلنديين ثرثارون

قلت : « أود لو تقص على بعض وقائعك »

فضحك وقال : « لست أنا الذى أقص عليك هذه الأشياء ... »

— ولكنى أريد أن أعلم إذا كانت هذه الوقائع التى ترددها الألسنة وقائع صحيحة

وهنا لاحظت عليه أنه يتردد ويفكر ... إذاً فلأساعده لعله يتكلم .

قلت : « قصة الراهبة ... يوم خرجت من بين صفوف الجنود التى تبحث عنك وأنت فى زى الراهبة . . . هل حصل ذلك ؟ وكيف استطعت وأنت بهذا الحجم أن تتخفى فى زى امرأة ؟ »

ضحك كولينز ضحكا عاليا وقال : «لا أستطيع أن أروى لك شيئاً . . . كلا لا أستطيع . إننى لم أعمل عملا يستحق الذكر . . . أمامك غيرى فاسألهم عما وقع لهم ... أتعلمين مثلا أن بوب بارتون وده ڤاليرا قد فرا يوما من سجن ما ونتجوى Mountjoy ؟ »

قلت : « أعلم ذلك وأعلم أنك أنت الذى مهدت لهما سبيل الفرار ، ولكنى ماجئت لتحدثنى عن غيرك فحدثنى عن نفسك أولا »

طفق الوزير الشاب يضحك ويسترسل فى الضحك وأنا أسائل نفسى أيضحك لأنه يتذكر وقائعه المضحكة مع البوليس أم هو يضحك لأنه يعلم أنى أجهد نفسى سدى أم هو يستر حيرته وتواضعه بهذا الضحك ؟

قلت : « ولماذا قفزت من السطح إلى السلم ... كيف فعلت ذلك ؟ »

قال : « شعرت بالخطر المحدق بى وكان لا بد أن أقفز فقفزت »

قلت : « ألا تستطيع أن تزيدنى إيضاحاً ؟ »

فاعتدل فى كرسيه ونظر إلىَّ باسماً وقال : « ولـكنى لم أبلغ بعد السن التى يملى فيها الإنسان مذكراته »

لم أيأس وطفقت أقول له إن قضية إيرلندا قضية يستمان فى كسبها بعطف الرأى العام فى العالم وأن خير وسيلة لـكسب العطف أن يجعل الزعماء أنفسهم محببين إلى العالم وأن الصحافة تسهل لهم هذا السبيل . وكأن كلماتى قد أثرت فى نفسه فجعل يعبث بأصابعه فى شعر رأسه ويحدق فى عينى ثم يفـكر ثم يلوى ساعديه بحركة عصبية ويقول : « لا ... لا أستطيع أن أقول شيئاً ... لا أستطيع »

وليت شعرى أى ألفاظ أبلغ من هذا الصمت وأى قول أفصح من هذا التردد ؟ لقد تجلت لى نفسية هذا الرجل العظيم فى هذه المحادثة التى لم يقل فيها شيئاً ، وعلمت أن هؤلاء الرجال يستطيعون أن يأتوا بالمعجزات ولـكنهم لا يستطيعون أن يفخروا بها »

* * *

تجلت عبقرية مايكل كولينز على أحسن ما تـكون فى مفاوضات الصلح فدلت على أنه من أكبر رجال الدولة ومن أمهر الساسة ومن أقدر المصلحين . ولقد كان مستر لويد جورج يتوهم أنه سيفاوض شاباً كل رأس ماله السياسى العناد والإصرار . وإذا به أمام رجل من أكبر رجال الدولة متوقد الذهن واسع المعلومات وافر المـادة يدرك الحقائق ويقدرها ويرتب عليها

ما تستوجبه من النتائج فى كياسة وحزم لم يعرفا فى كثير من محترفى السياسة .

ومايكل كولينز كما قدمنا رجل جهد وكفاح يعمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم، ينام فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل، ويستيقظ فى الساعة السادسة مالكا كل نشاطه وقواه . وتكاد لا تراه يسير فى الطرق إلا جرياً كأنه من سعاة المخازن التجارية . وهو يفسر ذلك بقوله : « إن الوقت الذى أمضيه فى السير البطىء يكفى لأقوم فيه بأعمال كثيرة » ومتى استيقظ فى الصباح أسرع إلى غرف إخوانه فيدخلها ليسحب مراتب الأسرة من تحتهم أو ليرش وجوههم بالماء البارد . وكثيراً ما يداعبهم كما يفعل صغار التلاميذ بأن يخفى ثياب بعضهم فوق الدواليب أو بأن يضع أوراق هذا فى جيب ذاك وهكذا ينشر البشر والابتهاج أينما حل . فإذا ما فرغ من ذلك انصرف إلى عمله اليومى الذى لا يقوى على القيام به عشرة رجال . وأعجب ما فى هذا الرجل الضحوك المهزار غضبه . فهو إذا غضب هاج وأصلى المخطىء وابلا من عبارات التأنيب القاسية غير ملتفت إلى ما قد يحيط بخطئه من الظروف المخففة . إنه يعمل ويريد أن يقتدى به الجميع ، وبما أنه لا يخطىء فلا معنى لأن يخطىء سواه . ولعل أبغض الأشياء إلى نفس مايكل كولينز الثرثرة وطول الشرح فهو إذا تحدث إليك أفهمك غرضه فى كلمات ويريد منك إذا حدثته أن تفعل مثل ذلك . كان يجلس فى مجلس «الديل إريان» يستمع إلى الخطباء فإذا ما خرج أحدهم عن الموضوع أو أطال القول هب كالمارد مقطب الجبين عابس الوجه

وصرخ قائلا : «Cut this Cackle and get on with the work» أى « كفى ثرثرة وهيا بنا إلى العمل » وتكاد تكون هذه العبارة شعاره فى حياته .

وهو رجل لا يدع الأوهام والخيالات تتسرب إلى عقله فتفسد إدراكه لحقيقة الواقع . وأبغض الناس إلى قلبه أولئك الزعماء الهدامون الذين يبرعون فى النقد ولا يقوون على الإنشاء والتعمير والذين يحلقون بعقولهم فى أجواء الخيال يبحثون فيها عن الكمال المطلق فإذا نزلوا إلى أرض الحقائق ألفوا كل بضاعتهم زخرفاً من الكلام . لذلك رأينا مايكل كولينز بعد إمضاء معاهدة الصلح مع إنجلترا يريد أن يوجه قوى البلاد إلى إعداد المستقبل وما يتطلبه من إصلاح وتجديد . ولكم وقف فى مجلس « الديل إيريان » يرد على خصوم المعاهدة مبيناً ما فيها من المزايا العملية ويصيح : « إن المستقبل يتسع للكلام المنمق ولكن الحاضر لا يتسع لغير العمل المجدى » ولكم حاول أن يفتح عيون خصومه ليدركوا حقيقة الواقع . ولكن الأوهام كانت قد طاحت ببعض الرءوس والصيغ الجوفاء قد أحدثت أثرها السيىء فى النفوس فانقسم الأصدقاء فريقين : أكثرية عاقلة مفكرة سارت وراء مايكل كولينز ترضى بالمعاهدة ، وأقلية صاخبة ساخطة سارت وراء ده ڤاليرا ترفضها ، وهنا دب دبيب الحزبية فى الكتلة المباركة فكان دبيبها نهاية الجهاد المقدس وفاتحة المأساة المبكية مأساة الحرب الأهلية التى لا تبقى ولا تذر .

* * *

شبت الحرب الأهلية بين إخوان الأمس وانهال الخصوم على مايكل كولينز يكيلون له المطاعن والمثالب فاتهموه بالضعف والجبن ورموه بخيانة الوطن وهو ثابت وسط هذا الإعصار الزعزع هادىء النفس مرتاح الضمير. نعم وقف هذا الرجل الذى يعرف عند الضرورة كيف يسكت الثرثار بكلمة وكيف يصعق الخصم بحركة ، وقف يجادل بالحسنى ويدفع بالتى هى أحسن لا يبتغى إلا الحق ومصلحة البلاد .

كان يرى أن قضية إرلندا فوق شخصه وفوق شرفه وفوق كل اعتبار، فكان يصبر على خصومه حتى إذا فرغوا من السب والاتهام قام فى وسطهم باسماً وقال : « أيها الإخوان . المجد خذوه فنحن لانريد مجداً أما الوطن فدعوه فنحن نريد به خيراً »

وظل كولينز يحفظ لخصومه فى أعماق نفسه حباً خالصاً لأنه لا يمقت هؤلاء الخصوم وإنما يمقت آراءهم فما سولت له نفسه يوماً أن يرمى أحدهم بتهمة ولا أن يشك فى إخلاصهم وصدق وطنيتهم ، وما خطر له ببال أن سوف ينقلب أصدقاء الأمس ويجاهدوه حرباً عليه وعلى البلاد حتى أنه عشية الانتخابات لم يتردد فى أن ينزل لخصومه أنصاره ڤاليرا عن عدد من المقاعد أكثر مما كانو يطمعون فيه . وما فعل ذلك يأساً، إذ أن الأغلبية الكبرى كانت تؤيده بل فعله صوناً لوحدة الأمة وحرصاً على اتحاد البلاد .

ولكنه لما رأى جهوده فى هذا السبيل هباءً ورأى الأقلية تريد أن تقسر الأكثرية لتنزل على إرادتها وتعبث بنصوص المعاهدة بعد أن قبلتها

الغالبية فى مجلس النواب ورأى المعارضين يريدون أن يضحوا بمصلحة الأمة فى سبيل ماتمليه عليهم الخيالات والأوهام ، لما رأى ذلك لم يجد بداً من الضرب على أيدى العابثين فشهر عليهم حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة ، وهكذا عاد يستأنف الجهاد فى سبيل تخليص بلاده من شرور بعض أبنائها .

وذهب خصومه فى أرجاء البلاد يشيعون أن مايكل كولينز أصبح يخاف على حياته وأنه لا يبرح داره إلا فى سيارة مصفحة محوطة بالجند والحراس . ولكن الذين كانوا بجانبه بعد أن تولى القيادة العامة للجيش يشهدون أن الخوف لايعرف السبيل إلى هذا القلب الكبير وأن مايكل كولينز ما خاف وما جزع وما استكان بل كان يطوف شوارع دبلين فى سيارته المكشوفة لا يصحبه فيها غير سائقها .

نعم إن حياته كانت فى خطر ولكن هل خلق كولينز ليعبأ بالأخطار ؟ أراد مرة أن يزور شقيقته المريضة فى الطرف الثانى من المدينة ، وكانت الحملة الانتخابية فى أشدها والأعداء يتربصون له فى كل مكان وقد جاءه النذير بألا يذهب لأن رجالا كمنوا له فى الطريق يريدون قتله ، فما كان منه إلا أن ركب سيارته وإلى جانبه ابن أخته الصغير لا يصحبهما حرس ولا جنود ، وهناك فى منحنى الطريق أبصر أربعة من الرجال وقد انبطحوا على بطونهم وسددوا إليه بنادقهم . فلم تكن إلا طرفة عين حتى كان فوق رءوسهم وقد شهر مسدسه عليهم وصاح : « ارفعوا أيديكم فى الهواء » فرفعوها ثم قال : « إنكم تتربصون لى فها أنذا ماذا تريدون منى ؟ » فحار الرجال ولم يحيروا جواباً . عندئذ جردهم من سلاحهم وأمرهم بالانصراف .

وحدث أيضاً أنه كان عائدا من اجتماع انتخابى وإذا بعصابة تنقض عليه وتطلق أعيرة نارية لم تصبه ، وحاول أصدقاؤه أن يجذبوه ليبعدوه عن الخطر فاستكبر ثم انطلق يعدو إلى ناحية مهاجميه الذين ماأبصروه حتى أطلقوا سيقانهم للريح فجرى وراءهم وقبض بيده على واحد منهم وعاد به وهو يضحك ضحكته العالية كأنه اصطاد أرنباً أو غزالا

وروى صديقه الجنرال ملكاهى أن كولينز كان مريضاً يشكو من حمى قوية عشية رحلته إلى مقاطعة كورك ، ولكنه ظل رغم المرض يضع الخطط للتفتيش على معسكرات تلك القاطعة وثكناتها فلما نصح له الجنرال بالإخلاد إلى الراحة والعلاج أجابه : « سأعالج نفسى بعد عودتى من الرحلة » .

وفى كورك نصحه أعوانه ألا يذهب إلى غرب القاطعة لأنهم يعلمون أن هناك كميناً يجهلون مكانه وأوعزوا إليه أن يرسل من ينوب عنه فى التفتيش فأبى وقال : « كيف تريدون أن أرسل غيرى إلى مكان أخشى الذهاب إليه بنفسى ؟ » وعند بزوغ الفجر كان فى طريقه إلى غرب كورك يصحبه نفر من أركان حربه . ولكنهم علموا أن الطريق العام قد قطعته عصابة من الثوار لا تستطيع السيارات أن تسير فيه . فارتد مايكل كولينز ومن معه وسلكوا طريقاً آخر قفراً موحشاً فلما أمسى عليهم المساء خرجت عليهم عصابة مسلحة أطلقت نيرانها فأصابت أحد الذين معه . وهنا أسرع البطل ونزل من سيارته ونقل الجريح إلى مكان بعيد عن ساحة المعركة وعاد

يتولى قيادة النفر الذى يصحبه فأصلى العصابة وابلا من نار أردى نصف رجالها على الأرض وفر النصف الآخر يلتمسون النجاة . فى هذه اللحظة التى ظن فيها مايكل كولينز أن المعركة قد انتهت أصابته رصاصة أطلقها أحد الفارين فصادفت من رأسه مقتلا وخر على الأرض صريعاً ولم ينطق بكلمة . وهكذا قضى الزعيم العظيم مايكل كولينز غير متجاوز الحادية والثلاثين من عمره ممتلئاً شباباً وهمة وعزماً وهكذا ذهب هذا القلب المشبع بالإيمان الوطنى والرأس العامر بخير مشروعات الإصلاح . وهكذا قدر على البطل الشاب ألا يموت برصاص الأعـــداء ولـكن برصاص إخوانه فى الوطن ، أولئك الإخوان الذين وقف حياته للدفاع عنهم حتى لفظ النفس الأخير .

* * *

هناك فى وسط مقبرة مدينة دبلن وعلى سطح أكمة جلاسنفن الجميلة يرى المشاهد قبرين تسقيهما عيون الإيرلنديين كل صباح بالدمع المتون : على اليسار قبر آرثر جريفث ، وعلى اليمين قبر مايكل كولينز أبر أبناء إيرلندا وأخلص خدامها وأصدق زعمائها . ألا فسلام على هذين الشهيدين فى قبريهما وسلام على ما علقته عليهما إيرلندا من أمان وآمال .

"بول - لوي كوريية" وقصة مصرعه

اشتهر الكاتب الفرنسي بول — لوى كوريبه Paul-Louis Courier في الربع الأول من القرن الماضي بنزعته الجمهورية المتطرفة وبحملاته القاسية على حكومة الملك لويس الثامن عشر والكنيسة الكاثوليكية ويظهر أن هذا الكاتب كان كالمعيدى « سمعك به خير من أن تراه » فقد امتاز بأسلوب في الكتابة لم يقرأ الناس مثله من عهد ڤولتير ، أسلوب واضح قوى لذاع ، حلو الفكاهة مر الجد ، قد مزجت شدة البأس فيه برقة التعبير . لكنه كان



(بول — لوى كوريبه)

مع ذلك دميم الخلقة صفراوى المزاج دائم العبوس مستوحشاً لا يألف أحداً ولا يألفه أحد ، خامل الروح موسوس الفكر جاف الحوار زرى الهندام يسير مائل الرأس مسبل الجفنين ينظر إلى من حوله نظرة المرتاب الحذر الذى يكره الناس ويتوهم أنهم جميعاً يكرهونه ويتربصون به الدوائر .

نشأ أول أمره فى الجيش ولـكنه لم يكن بالجندى الممتاز ، فهجر الحياة العسكرية وأولع بالأسفار وظل يتنقل فى مختلف أرجاء أوربا إلى أن غلبته طبيعته الملول ، فعاد إلى مسقط رأسه باريس ولبث بها يمارس صناعة القلم التى خلق ميسراً لها ووفق فيها كل التوفيق ، ثم خطب وهو فى الأربعين من عمره الآنسة هرمينيا كلافييــــه التى لم تكن قد تجاوزت ربيعها الثامن عشر .

ولم تــكن هرمينيا رائعة الجمال ولـكنها كانت على شىء من الحسن واعتدال القد وذكاء العقل وخفة الظل يحببها إلى الناس ويلفت إليها الأنظار ، وكانت متعلمة تكثر من مطالعة الـكتب وتتقن التصوير وتميل إلى الموسيقى ، وتحب الحياة ومجتمعاتها ومسراتها ، شأنها فى ذلك شأن كل شابة من نوعها تربت فى حجر اليسر ونشأت فى بحبوحة السعة وأفاضت عليها الوراثة نعمى الحياة .

وفتحت هرمينيا عينيها على الدنيا فألفت الأقدار قيضت لها زوجا بينها وبينه من الفروق ما بين أسلوبه وشخصه ، فاشمأزت نفسها ولـكن طبيعتها المرحة هونت عليها الأمر أو أبت عليها أن تثور ، فأذعنت لقضاء الله أو لقضاء أبويها وحاولت أن تتعزى عن حب زوجها بحب أهلها ، وأن تجد فى مسرات الخارج ما يسرى عنها هموم البيت ، وأن تتلمس فى الـكتاب والريشة والـكمان ما يعوضها عن حنان الزوج أو مداعبة الولد .

ولقد كانت الحياة على هذا النحو الممض تهون أو تحتمل ، لو أن كوربيه عرف لامرأته الشابة قدر تضحيتها ومبلغ ما نزلت له عنه من حقوق الجمال

وآمال الشباب . ولكن الرجل كان أثراً ومستوحشاً لم ترقه ضوضاء المدينة وحياة المجتمعات ، فلم تمض على زواجه ثلاثة أشهر حتى عاودته هواية الأسفار فحزم أمتعته وهجر بيته وارتحل إلى الريف يسرح صفراءه وكآبته بين الحقول والأودية والغابات .

وكأنما رضيت هرمينيا بالهم الذى لم يرض بها ، فكانت تحاول أن تستعطف زوجها وأن تتألفه وتكتب إليه لتعاتبه على غيبته الطويلة وتؤاخذه على إهماله إياها وقلة تفكيره فيها ، ولكن كوربيه لم يكن ليستشف وراء هذه المرة المستذلة والكبرياء المهدرة تلك النفس المحزونة التى تناجيه ، ولا ليرى فى كتب زوجته وتوسلاتها سوى ثرثرة امرأة تكتب لأنها لا تجد شيئاً آخر تعمله . فلما تكاثرت عليه الرسائل ووجب الرد ولو على واحدة منها ، تناول القلم وكأنما استمد له المداد من سواد قلبه فكتب إليها :

« لقد خلقت متوحشاً ، سأحيا وأموت متوحشاً ، فكل محاولة أعمد إليها لترقيق طبعى وتهذيب خلقى عناء عقيم ليس من ورائه سوى أن يزيدنى وحشة ونفوراً من الناس . لست رجل عواطف ولقد كبرت وتجاوزت سن التطبع ، فما فى وسعى أن أتغير ولا أن أتصنع ، فحبذا لو رضيت بى أو تحملتنى كما أنا حتى يقضى الله بيننا بما يشاء » .

وكانت الشابة الحسناء تقرأ ذلك وتستعرض ماضيها وحاضرها فتتحسس خلو قلبها من كل عاطفة ، وفراغ حياتها من كل أمل ، فتقعد موجعة النفس كاسفة البال تنتظر شيئاً تجهله أو تداعب أمنية لا تعرف ما هى .

وابتاع كوربيه مزرعة بزمام بلدة فيريتز بإقليم تورين تكتنفها غابة كثيفة وتبعد عن أقرب القرى مرحلة كاملة . وكانت هذه المزرعة التى سميت « شافونيير » واقعة فى قفر مترامى الأطراف لا تبصر العين فيه منظراً يسر الخاطر أو يشرح الصدر . وقد وصفها كوربيه فى كتاب منه إلى زوجته قال فى نهايته : « . . وإن أردت الحق فاعلمى أنك لا تستطيعين أن تعيشى فى هذه الجهة أسبوعا وإلا قتلتك الوحشة وأودى بك السأم » .

ومع ذلك لم يكد الرجل يستقر فى مزرعته حتى أرسل يستدعيها لتعيش معه فى ذلك القفر الذى يعترف بأنها لا تستطيع أن تعيش فيه ، وكتب إليها فى لهجة تنم على اغتباط الفلاح الذى أصبح مالكا وصاحب ضيعة : « أريد أن نسكن ملكى الجديد فهو ملك يحسدنى عليه أعيان الإقليم » . ثم يحدد لها نوع الحياة التى ستحياها حتى لا تعلل نفسها بأمل كاذب أو أمنية لا تتحقق ، فيضيف بلهجة السيد المستبد الذى يفرض طاعته ويملى أوامره : « . . ومتى استقررنا وسط غابتنا فسنقيم بها ولا نبرحها ، وهكذا لن تعودى فتزعجينى بإقامة الولائم وإحياء السهرات وتلك القصص التى أشكر الله أنك ستخلفينها وراءك بباريس ، على أنك لو أردت فلا تستطيعين لأنه لن يكون لنا فى حياتنا الجديدة معارف ولا أصدقاء » .

وأذعنت هرمينيا لرغبة زوجها الغاشم وجاءت من باريس لتشاطره مسكنه الريفى الوضيع . ولقد حاولت أن تصلح من البيت ما أفسدته يد البلى ، أو تجميل حجره بما يستر ثقوب جدرانه وتشقق سقوفه ، ولكن

بخل الزوج كان يأبى عليه أن ينفق بعض المـال فى إصلاح ما تستوجبه الضرورة ، أو فى زخرف لا يفيد .

واستسلمت السكينة لحظها أو لم تر بداً من الاستسلام . وعكفت على القراءة والتصوير والموسيقى تستعين بها على الوحدة وتروح عن نفسها سأم الفراغ وملل الأيام . ولـكن هذه الفنون الرفيعة لا تطيب للنفس إلا بقدر ما تصادف من إعجاب الناس وتشجيع المشجعين . وأنى لهرمينيا من يشجعها أو يعجب بفنها وهى تعيش بين طبقة من أفظاظ الفلاحين وزوجها ينصرف عنها إلى أعمال ضيعته قبيل الفجر ولا يعود إليها إلا إذا جن الليل وخيم الظلام ؟

وعافت نفسها تلك التسليات كما عافت من قبل كل شىء ، فأرادت أن تلهو بمشاركة زوجها فى أعماله ومشاغله ، فـكانت تصحو مبكرة وتمتطى صهوة جوادها وتذهب إلى القرى المجاورة أيام أسواقها فتبيع المحاصيل وتشترى العلف والبذور وتساوم فى الأثمان وتشاجر العمال وتختلف إلى حانات الفلاحين فتؤا كلهم وتشاربهم وتسامرهم حتى إذا ما انتهى النهار ومالت الشمس إلى المغيب عادت إلى البيت لتأتنس بكآبة زوجها وعبوس وجهه ولتنام على صوت صفير الرياح ينفذ إليها من شـقوق الأبواب والنوافذ .

أما بول — لوى كوربيه فـكان المثل السىء للمالك الحريص ، يهجر فراشه قبل أن يصحو الناس فيدور حول مزرعته متفقداً متجسساً يراقب.

الحراس ويعد أكوام العلف وأحمال الخشب ويفحص أقفال المخازن ويتعهـــد حالة الأجران ، فإذا أبصر غلاما يحتطب فى الغابة أو طفلة تصيب ما قد تساقط من الخشب أو انتثر على الطريق من العلف صادر المسروق وأنزل بالسارق والحارس أشد العقاب ، ثم يعود آخر النهار أغبر الوجه قذر الثياب موحل القدمين ساخطا على الدنيا ومن فيها ، غير قانع بشىء ولا راض عن أحد . ويأوى إلى مكتبه ، وما مكتبه إلا حجرة قائمة بين الزريبة والمعصرة تكدست فيها غرائر الحنطة إلى جانب أكوام من الكتب النفيسة ، وجاورت فيها أحمال الخشب المقطوع والأبواب المكسرة أسرة قديمة وستائر مطوية وإطارات مذهبة ثمينة ومجاميع نقوش أثرية قيمة ، والكل مكسو بطبقة من التراب الناعم وقد عششت فيها الحشرات ونسجت خيوطها العناكب . وهنالك فى تلك الحجرة القذرة التى لا تلهم القلم ولا تسعف الخيـال ، كان بول — لوى كوريـيـه يدون حساباته أو يضبط إيراده ومصروفه ، ثم يدبج مقالاته الرائعة التى طالما استهوت قراء الصحف واستثارت إعجاب الجمـاهير ، أو ينهال على الحكومة الملكية والكنيسة الكاثوليكية بنشرات يكتبها بأسلوبه اللاذع وتهكمه القاذع ويرسل بها إلى الناشرين فيطبعونها فى الخفاء ويقبل الناس على شرائها فى السر أيما إقبال .

ولعل أعجب المتناقضات فى ذلك الرجل أنه كان يتجلى فى كتاباته سمح النفس كريم العواطف كثير الحنو على البائسين والضعفاء ، بعكس ما يتبدى

في حياته العملية مقترا شحيحا شرسا في معاملة أجيريه ومستخدميه ، يضن عليهم بالمساعدة الطفيفة ويمنع عنهم الماعون ، ويقتطع من أجورهم لغير سبب أو لأتفه الأسباب . وأنه لمن العجب حقاً أن يكون ذلك الكاتب أحب كتاب عصره إلى نفوس قرائه وأن يكون في الوقت ذاته أبغض الناس إلى عارفيه والمتصلين به حتى ليسميه بعضهم « اليهودى العبوس »

ولقد عاشرته هرمينيا على تلك الحالة عشر سنوات ضيق عليها خلالها المذاهب ، وقضى على بقية من الصابرة كانت باقية في نفسها . وأخيراً وبعد تلك السنين الطوال ، تنبهت هذه الباريسية المثقفة الذكية إلى بؤس عيشها وحقارة حياتها ، وتنبهت فيها غرائزها المكبوتة وآمالها الخائبة ، وهب كل ما فيها يطالب بالحياة والنور . ولم تكن قد تربت على مبادىء من الدين قويمة تقيها الزلل أو تعصمها من الانحراف إلى طريق الغواية والضلال ، وجاءت كتابات زوجها فعلمتها الاستهتار بالأوضاع الاجتماعية ، والاستهانة بالتقاليد الصالحة ، والزراية بما اصطلح الناس على أنه طهر ولياقة وعفاف . فلما خاب رجاؤها في زوجها وتحطمت آمالها في حياتها وعدمت من يؤنسها في وحشتها ويعزيها في بأسائها ويقويها على مواصلة تضحيتها ، ولم تر نهاية لذلك الإسار الدائم ولا خلاصاً من هذا العذاب المقيم ، آلت لتثأرن لنفسها من زوجها الذى أفسد عليها شبابها ، ومن أبويها اللذين أوقعاها في يد هذا الزوج ، ومن الأوضاع الاجتماعية التى تقسرها على هذه الزوجية المستحيلة ، فارتمت بين ذراعى حوذى المزرعة واتخذته خليلا .

كان هذا الحوذى فتى اسمه بيير دوبوا فى الثامنة والعشرين من عمره ، صبوح الوجه نامى العود مكتمل الرجولة . ومنذ بذلت له هرمينيا قلبها وجسمها لم تعد تعبأ بأحد أو تأبه لاعتبار ، فكانت لا تحاول إخفاء علاقاتها به ولا ستر ظواهر هذه العلاقة . وكأنما انفجرت عواطفها المضغوطة أو انطلقت شهواتها من عقالها فتركت الشابة لنفسها الحبل على الغارب وتحررت من كل قيد وذهبت تصاحب رفيقها فى عربته إلى الأسواق وتتأبط ذراعه فى الشوارع وتتريض معه فى الحقول وتدعوه إلى مائدتها فى الحانة متحدية بسلوكها الحياء البشرى ورأى الناس وانتقاد المنتقدين .

وكان لبيير دوبوا أخ عاطل اسمه فوريان أتم خدمته العسكرية ولم يوفق إلى عمل يشغله فاستغل بيير حظوته لدى مدام كوربيه وزين لها أن تستخدم هذا الأخ ، فأجابت سؤاله وألحقت فوريان بخدمة المزرعة . ولم يمض طويل زمن حتى عرف الفتى سبيله إلى قلب هذه السيدة فاحتل مكانه فيه إلى جانب أخيه . وهكذا اتسع قلب هرمينيا للأخوين معاً وطابت لها عشرتهما واتخذتهما صديقين لا يفارقانها ، فإذا غاب زوجها أو إذا سافر إلى باريس ليمضى أشهر السجن التى يحكم عليه بها من جراء حملاته على الحكومة دعتهما إلى مائدتها وبالغت فى الاحتفاء بهما وعاملتهما كما لو كانا سيدين من مقامها ومركزها .

وسرعان ما انتشرت فى المزرعة وفى القرى المجاورة حكاية غرام السيدة بخادمها فأصبحت أحدوثة القوم وموضوع سمرهم وعجبهم حتى لم يبق من أهل الجهة من يجهلها إلا الزوج الذى شغلته حساباته ومقالاته عن كل شيء ، ولم يجد صديقاً يحبه أو يغار على شرفه فينبهه إلى أن عرضه قد صار مضغة فى الأفواه

ولكن إذا كان عمى الأزواج يطول فهو لايدوم . فلقد كان للمسيو كوربيه بين خدامه جاسوس اسمه لويس فريمون وثق به لطول عهده بخدمته ولما توهمه فيه من أمانة ووفاء ، وقد رصده أول الأمر لمراقبة سير الأعمال ثم جعله حارساً للغابة وخوله حق الإشراف على كل شيء . فكان يوافيه بما يكتشفه من السرقات ويطلعه على مايقف عليه من سلوك العمال . وحدث لأمر ما أن اختلف فريمون ودوبوا فتشاحنا ، فبادر الجاسوس وأوقف سيده على سر العلاقة القائمة بين الحوذى وسيدته ، فثارت ثائرة الرجل واستقدم بيير وصفى حسابه معه ونقده الباقى من هذا الحساب وطرده من خدمته . وغادر الحوذى المزرعة حاقداً مغضباً يتوعد المالك بالانتقام القريب ويقول لمن يريد أن يسمع : « والله لو صادفته فى طريق مرة لقتلته كما أقتل كلباً أجرب »

ومنذ ابتعد دوبوا عن شافونيير توترت العلائق بين كوربيه وزوجته حتى لقد كانا ، وهما يعيشان تحت سقف واحد ، لايكادان يلتقيان إلا ليتبادلا بعض الإهانات ، أو ليؤكد أحدهما للآخر أنه يمقته مقتاً شديداً ..

وأحست هرمينيا أن الحياة المشتركة باتت مستحيلة فهجرت المزرعة أياما لم يعلم أحد أين قضتها ، ثم آبت ولكنها لم تكد تستقر حتى اختفت بضعة أيام أخر . ولبثت هكذا تروح وتجيء فلا تعنى بأن تفضى إلى زوجها بسر تغيبها ولا بالمكان الذى تقضى لياليها فيه وكان الزوج لفرط حقده أو لفرط كبريائه لايتنزل إلى سؤالها ويكتفى بأن يعلم من جاسوسه فريمون أن علاقتها بدوبوا لم تنقطع وأنها توافيه ببلدة فيريتز حيث تبيت معه الليالى التى تتغيبها عن شافونيير

وسرى بين أهل المزرعة أن فريمون قد صادر رسائل غرام كانت هرمينيا تكتبها إلى دوبوا وأطلع سيده عليها ، وأن السيد يتأهب لرفع قضية يطلب فيها الانفصال عن زوجته ، فارتاع الفلاحون لهذا النبأ وعز عليهم أن تفارقهم تلك السيدة الكريمة التى طالما منعت عنهم أذى المالك الثقيل ، وتوقع الجميع أن ستصبح الحياة من بعدها فى شافونيير جحيما لايطاق . ويظهر أن هرمينيا أرادت أن تتعجل الأمور فلم تشأ أن تظل إلى جانب زوجها وهى تعلم من دخيلة نفسه ماتعلم ، فتمارضت ولزمت سريرها أياما ثم استأذنته وسافرت إلى باريس لتستعين بكبار أطبائها على معالجة دائها المزعوم ، ولتمضى فى الاستشفاء بين أهلها فصل الربيع . وهكذا خلت شافونيير من ملكتها المحبوبة بينما ازداد وجه كوربيه تجهما وكآبة وجبينه عبوساً وتقطيبا .

ولكن إذا كانت المودة بين الحارس فريمون والحوذى المطرود دوبوا

قد فترت أو انقطعت ، فإن الذين عنـدهم علم الأشياء كانوا يؤكدون أن العلاقة بين الصاحبين القديمين لاتزال قائمة ، وأنهما كثيراً ما يلتقيان فى حانة واقعة على طريق مدينة تور فيختليان خلوات طويلة يتهامسان فيها ويتساران كأنهما يدبران أمراً ذا بال . ولقد ذهب البعض فى تأويل ذلك إلى أن الحوذى يتودد إلى عدوه ليتوسل به عند سيده فى العودة إلى عمله ، وقال آخرون بل هو يستدرجه إلى شرك أو كمين يقتله فيه ويروى بدمه غليل نفسه المتعطشة للانتقام

وفى فجر اليوم العاشر من شهر أبريل سنة ١٨٢٥ نهض الحارس فريمون من فراشه وحمل بندقيته وخرج ليتفقد أحوال الغابة جريا على العادة التى ألفها منه الناس كل يوم . ولـكنه لم يكد يعود من طوافه قبيل الظهيرة ويتناول غداءه مع إخوانه من عمال المزرعة ، حتى تأبط بندقيته مرة أخرى وانصرف ليستأنف الطواف قائلا إنه على موعد مع المسيو كوربيه ليعد وإياه حزم الأخشاب التى قطعها الحطابون فى ذلك اليوم

وقبيل الساعة الخامسة بقليل خرج المسيو كوربيه واتجه شطر البركة الواقعة عند طرف الغابة من الناحية الأخرى ولم يكن يحمـل سلاحا غير هراوته القصيرة التى لاتفارقه . ولقد صادفته فى طريقه طفلة كانت تحتطب هناك فما إن رأته حتى ولت من وجهـه فراراً واختبأت فى حرج من الأحراج التى تـكتنف الطريق

فلما أقبل المساء سمع القرويون الذاهبون إلى بلدة سان افيرتان دوى

مقذوف نارى شديد صدر من ناحية الغابة وردده الأصداء إلى مسافات بعيدة ، فوقف هؤلاء القرويون يرهفون آذانهم متسمعين ، فلما لم يسمعوا صوت استغاثة ولا صوت شىء آخر ، مضوا فى طريقهم متسائلين : أهى جريمة ارتكبت ، أم الحارس صادف ذئباً ، فقتله أم فى الأمر شىء سوف يتضح عند الصباح ؟

وعند الساعة التاسعة من المساء عاد فريمون من الغابة وأسند بندقيته إلى حائط الحجرة وجلس مع زملائه . ولاحظ أحـــدهم أن السيد لم يعد فقال فريمون : « لعله عاد ولم نره » فأكد الآخرون قول الأول فنهض فريمون قائلا : « سأبحث عنه فى غرفته »وغاب قليلاً ثم عاد وهو يردد فى دهشة : « ترى ماالذى عاقه حتى الآن ؟ »

وأقبل فوريان من الخارج ولم تـكن دهشته أقل من دهشة رفاقه عند ماعـــلم أن السيد لم يرجع إلى البيت واقترح أن يبادروا جميعاً إلى البحث عنه ، فانطلقوا فى غسق الليل يسألون طبيب القرية المجاورة وسكان قصر المركيز سبيلاس وبيت المسيو هيربان وكل من يعلمون أن كوربيه يعرفهم لعله يكون مدعواً عند واحد منهم . فلما أعياهم السؤال عادوا واتفقوا على أن يتريثوا إلى الصباح فيستأنفوا البحث من جديد

وفى الصباح استفاضت إشاعة اختفاء المسيو كوربيه فقدم عمدة فيرتيز مع بعض رجاله وانطلقوا إلى الغابة بقيادة الحارس فريمون الذى يعرف مسالـكها وماشيها ودروبها ، وصاروا يبحثون بين الأدغال وينقبون فى

فى العواسج والأحراج ، فلما بلغوا مفترق الطرق عند البركة أبصروا جسما منبطحاً على وجهه فوق الأرض الوحلة ، فصاح أحدهم : « تعال يا فريعون فهذا سيدك قتيلا »

وتقدم فريعون بخطوات مترددة خائفة ونظر إلى الجثة نظرة مشدوه عقل الهلع لسانه ، ووقف محملق العينين فاغراً فمه ولم ينطق بكلمة . وكانت جثة المسيو كوربيه منكفئة على وجهها غارقة فى بركة من الدم الذى لم يجف بعد . ولاحظ الحاضرون أن إحدى القدمين قد نزع حذاؤها منها وألفوا الحذاء على بعد خطوة من القتيل

وجاءت السلطات القضائية من مدينة تور وعاينت الحادث ومكانه ، ودل الكشف الطبى على أن الموت أعقب الإصابة مباشرة ، وأن القتل حصل بمقذوف نارى أطلق عن قرب من بندقية محشوة بثلاث سبائك من الرصاص ، وأن هذه السبائك نفذت إلى الجسم من الخاصرة اليمنى وخرجت من منطقة القلب واستقرت فى ثياب القتيل . ولكن الذى أدهش الطبيب الشرعى وقاضى التحقيق هو أن المقذوف قد اتجه فى الجسم من أسفل إلى أعلى ، وأن هذا الاتجاه لايمكن أن يكون إذا كان المصاب واقفاً أو سائراً على قدميه . فهل كان المسيو كوربيه نائماً عند مباغتة القاتل ؟ ولماذا اختار هذه النومة العجيبة ؟ ومتى كان الناس ينامون على وجوههم فى طريق مكسو بالطين اللزج ؟ ثم ماهذا الحذاء المخلوع من قدم واحدة ؟ كل هذه معميات حيرت المحققين فلم يهتدوا فيها إلى حل ولا تفسير

واستخرج الطبيب من الجرح قطعة صغيرة من الورق ظهر أنها من جريدة مطبوعة وعليها هـــذه الحروف الثلاثة « OUY » « ووى » واستنتج من وجودها فى ممر الرصاص أن القاتل استعملها « طبة للمقذوف » بين الرصاص والبارود ، ثم اتضح فى النهاية أنها اقتطعت من جريدة اسمها « الملحق الأدبى » كان المسيو كوربيه مشتركا فيها .

اذاً لابد من البحث عن القاتل بين حاشية القتيل .

واتجهت الشبهات طبعاً إلى الحوذى بيير دوبوا فهو الموتور الذى اقسم أن يقتل سيده كما يقتــل الـكلب الأجرب لو صادفه فى الطريق . وقبضت عليه السلطات وأودعته سجن تور رهن التحقيق ، وألحقت به أخاه فوريان الذى قد يكون ضالعاً فى الجريمة أو شريكا لأخيه لما هو معروف من صلته بعدام كوربيه ، وظهرت قرينة هامة أيدت ظنون المحققين بل قلبت هذه الظنون يقينا لا شك فيه . وذلك أن السلطات وجدت فى منزل المتهم الأول عند تفتيشه عدة نسخ من جريدة « الملحق الأدبى » فلما سئل عن سبب وجودها لديه زعم أن طاهية المسيو كوربيه قد أعطته إياها قبل مغادرته مزرعة شافونيير .

وكان الشعب الفرنسى قد تأثر أعمق التأثر لمصرع الـكاتب الشعبى المحبوب واعتبر موته خسارة قومية فادحة . ولم تتورع بعض الصحف الجمهورية عن إثارة الريب فى النفوس فأخذت تلمح إلى أن الجريمة قد تـكون سياسية ارتـكبها البوليس الملـكى لتخليص الحـكومة من خصم عنيد .

لذلك اهتم أولو الأمر بالحادث أيما اهتمام وأوصت المراجع العليا جهات الاختصاص بوجوب التعجيل بالكشف عن سر الجناية وإظهار الفاعلين حتى تضع حداً للإشاعات الكاذبة والمفتريات التى كثر فيها القال والقيل .

واغتبط النائب العام ، إذ استطاع أن يكتب إلى وزير الحقانية أنه وضع يده على القاتل وشريكه ، وأن القرائن كلها تنطبق بأن الأخوين دوبوا هما صاحبا المصلحة فى هذه الجناية ، إذ بزوال المسيو كوربيه يخلو لهما وجه زوجته ويسيطران على تركته الواسعة بفضل ما لهما من المكانة والمنزلة فى نفس هذه الزوجة .

بيد أن هذا النائب العام المغتبط بما وصلت إليه مباحثه ، والذى ظن أنه أقام الاتهام على أساس مبين ، لم يكن ليتوقع مفاجأة عجيبة تقلب حسابه رأساً على عقب ، وتمزق شبكة القرائن والأدلة التى نصبها حول المتهمين . فلقد هرعت مدام كوربيه إذ علمت مصرع زوجها إلى شافونيير ، ولم تكد تلم بظروف الجناية حتى أقامت نفسها محامية عن دوبوا وأخيه تؤكد براءتهما وتعد بإظهار الفاعل الحقيقى الذى لا يمكن أن يكون شخصاً آخر غير الحارس فريمون . . .

فلما جاء قاضى التحقيق ليتلقى شهادتها لم تخف عليه يقينها بأن القرائن التى أدت إلى القبض على الأخوين قرائن واهية لا تثبت لحظة أمام ما لديها من الأدلة على إدانة فريمون . وقالت إن المرحوم زوجها كان يعتزم فصله من الخدمة لما ظهر له من قلة أمانته ، وإن الحارس كان يعلم ذلك فأراد أن

يتلخص من سيده لكى لا يفقد وظيفته . وذكرت أن المرحوم كان قد ضرب للحارس موعداً فى الساعة الخامسة من اليوم الذى ارتكبت فيه الجريمة عند البركة ، وأن القتل حدث فى هذا المكان وبعد هذا الموعد بقليل .

ولقد ظن قاضى التحقيق أول الأمر أن أرملة القتيل تحاول بكل حماسة إنقاذ صاحبها والإيقاع بالحارس الذى طالما تجسس عليها وفضح علاقتها بدوبوا وأخيه . بيد أنه لم يسعه من ناحية أخرى أن يضرب صفحاً عن القرائن القوية التي أدلت بها ، والتى لا تقل فى أهميتها عن تلك التى بررت فى نظره القبض على المتهمين الآخرين . ولكن أين الأدلة الحاسمة التى يقدمها إلى النائب العام لينتزع من يده المتهمين اللذين اطمأن إلى إدانتهما وليقنعه بأن يستبدل بهما متهماً جديداً !

وأدركت هرمينيا وساوسه وشكوكه فذهبت تستجمع الأدلة والبراهين وتستنطق الخدم والعمال وتبحث فى زوايا المزرعة وتنقب فى غرفها ، وعادت إلى القاضى فى اليوم التالى تزيل ما ساوره من الوساوس والشكوك ، فقادته إلى غرفة فريمون وأرشدته إلى قالب معد لصب الرصاص وإلى ماسورة من الرصاص اقتطع منها جزء لا تزال الآثار تدل على أنه اقتطع حديثاً ، وقالت إنها ترجح أن هذا الجزء المقتطع هو الذى صنعت منه السبائك ثم صبت فى ذلك القالب واستعملت فى حشو البندقية . وأرشدته أيضاً إلى نسخ جريدة « الملحق الأدبى » مكدسة فى الغرفة ومن بينها نسخة نشرت فى مقالة

بامضاء « اتيين جووى .E. Jouy » وقد مزق منها جزء هو الذى وجد فى جرح القتيل وعليه الأحرف « ouy ووى » وهى الأحرف الأخيرة من اسم الكاتب . ثم جاءت ببعض الخدم فشهدوا بأنهم رأوا فريمون ينظف بندقيته بعد عودته من طوافه بالغابة ليلة الجريمة وأن إحدى ماسورتى البندقية كانت محشوة بينما الأخرى فارغة . وقرر بعضهم أنهم سمعوا من امرأة فريمون أنه لما دخل عليها ليلة الحادث كان مهتاج الأعصاب حتى أنه قال لها وهو يريها قبعته : « لو كانت هذه القبعة تعلم ما يدور تحتها فى رأسى لألقيتها إلى النار » .

تلقاء هذه الأدلة القاطعة لم يسع النائب العام إلا الإفراج عن الأخوين دوبوا والقبض على الحارس فريمون وتقديمه إلى محكمة الجنايات .

وعرضت القضية على محكمة جنايات تور فى الحادى والثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٨٢٥ فاكتظت القاعة بكبار المحامين ومشاهير رجال القانون وعلية القوم وأعلام الإقليم . وأخذت مدام كوربيه مكانها بين الشهود وقد لبست ثياب الحداد وتبدت غير مبالية بما يجرى حولها حتى لقد وضعت على ركبتيها كراسة للرسم وتناولت قلمها وأخذت ترسم وجوه القضاة والمحامين ، واقتعد فريمون مكانه فى قفص المتهمين وانحصرت إجابته عن الأسئلة التى وجهت إليه فى قوله : « لا أعلم شيئاً عن الجريمة ولم أقتل المسيو كوربيه ، ولكن حقد زوجته هو الذى أوقفنى هذا الموقف وأنا برىء » .

وترافع النائب العام مرافعة قصيرة لم يسمح له ضميره فى نهايتها أن يطلب من المحكمة الحكم على المتهم بالإعدام وقال : « نعم إن القرائن والأدلة كلها تنطق بأن لويس فرعون غير غريب عن هذه الجناية وبأن له يداً قوية فيها ، ولكن فى القضية سراً لم يكشف عنه التحقيق ، بل أن هذه القضية محاطة بغموض يغلب على يقينى أنه لو انجاب لظهر وراءه شركاء لهذا المتهم » .

ولقد سهلت هذه الأقوال مهمة الدفاع وصدر قرار المحلفين بأن المتهم غير مذنب فحكمت المحكمة ببراءته وأطلق سراحه فى الحال .

وغنى عن البيان أن هذا الحكم لم يرض فضول الجمهور ، ولم يعتبر ختاماً يحسن السكوت عليه لقضية كبيرة شغلت أذهان الناس أشهراً طويلة . ولكن ذاكرة الرأى العام سريعة النسيان ، وفى حوادث الأيام ما يصرفها عن شؤون الأمس الدابر بجديد اليوم الحاضر ، فلم تمض على قضية مقتل لوى كوربيه بضعة أسابيع حتى كانت قصة قديمة لا تثير نقاشاً ولا تستتبع جدالا .

أما الحياة فى شافونيير فلم تلبث حتى عادت إلى سالف عهدها ، وأقامت هرمينيا فى بيتها الريفى بعد أن أصلحته وجملته ، وأعادت إلى خدمتها بيير دوبوا وأخاه فوريان ، وعهدت إليهما بإدارة المزرعة وولاية شئونها . وكأنما أحست أنها مدينة لزوجها بهذه التركة الواسعة الوافرة ، فأقامت له نصباً تذكارياً فى المكان الذى لقى حتفه فيه ، ونقشت عليه عبارة تحدث

السابلة بأن الـكاتب العظيم « مدفون فى مقبرة فيريتز ولـكنه أسلم الروح فى هذه البقعة بعد أن أسلم اسمه إلى الخلود » ثم جاءت يد مجهولة فخطت تحتها هذه الـكلمات :

« إن لويس فريمون هو القاتل ، وإنه ايعانى آلام الندم ومرارة تأنيب الضمير » .

وأما فريمون فـكان بطبيعة الحال قد اعتزل وظيفته وعاد إلى قريته مطمئناً إلى أن الحـكم النهائى الصادر عن محكمة الجنايات قد جعله بمنجاة من الخطر حتى لو أعيد نظر القضية واجتمع على إدانته فيها ألف دليل .

بيد أن هذا المتهم المبرأ المطمئن إلى المستقبل كان يبدو وكأن روحه ترزح تحت عبء هذه البراءة ، أو كأن ضميره ينوء بحمل شىء يحسه هو ولا يحسه أحد سواه . فلقد كان يمضى الأيام ذاهلا عن نفسه وعما حوله ، شاخص البصر نحو مزرعة شافونير ، مشرد العقل مستوحشاً يتجنب الناس ويتحاشى التحدث إلى أقربهم إليه . ولم تمض شهور على براءته حتى كان جسمه قد نحل وقواه قد همدت ففارقت وجهه نضارة الشباب وكست الغضون محياه وبات كهلا مضعضع الحواس متراخى الأطراف ، كأنه يعانى حقاً آلام الندم ومرارة تأنيب الضمير .

* * *

مضت على تلك الحوادث أربع سنوات نسى أهل إقليم التورين خلالها كوريبه ومقتله ، والظروف الغامضة التى أحاطت بتلك الجناية العجيبة ،

ويئست السلطات القضائية من البحث والتحرى ، وأيقنت أنها حيال لغز أسبل عليه ستار كثيف من الظلام فكفت عن السعى والاستقصاء .

ولكن ما يستعصى على الناس لا يستعصى على الأيام ، وما يقصر دونه ذكاء الرجال قد تكشف عنه المصادفات . وما أبلغ عمل المصادفات فى حياة الإنسان !

فقد حدث فى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٨٢٩ أن فتاة اسمها سيلفين جيروه كانت تشتغل أجيرة عند أحد الزراع ببلدة فيريتز ، أرسلها سيدها إلى شافونيير لتبتاع له منها كمية من البذور ، فامتطت حصاناً وذهبت تقضى ما كلفت قضاءه ، ثم عادت فى المساء مضطربة فزعة ، وقصت على سيدها أن الحصان إذ بلغ بها مدخل الغابة تقاعس فجأة ونصب مقدميه فى الهواء ورماها من فوق ظهره وأطلق ساقيه للريح . وفيما هى تقص قصتها بصوت لا يزال يتهدج من أثر الفزع والانفعال ، بدرت منها عبارة غريبة استرعت سمع الحاضرين ، إذ قالت : « ولقد أحسست خوفاً شديداً لم أحس مثله إلا ليلة شهدت مقتل المسيو كوربيه » ... فاستوقفها السيد وسألها متعجباً : « وهل شهدت مقتل المسيو كوربيه ؟ » فأطرقت الفتاة وكأنها أسفت لما بدر منها فترددت قليلا ، ثم كأنها أحست حاجتها إلى التخفيف عن ذاكرتها بإفشاء هذا السر الرهيب الذى أثقلها طوال أربع سنين فقالت : « نعم شهدته » وقصت عليه القصة الآتية :

« فى اليوم العاشر من شهر أبريل سنة ١٨٢٥ كنت أجمع خلسة بعض

الخشب من غابة شافونيير وأسير بحذر خشية أن يباغتنى الحارس متلبسة بسرقتى . وفيما أنا عائدة بحملى الصغير أبصرت المسيو كوربيه قادماً إلى ناحيتى بوجهه العبوس ، ففررت منه واختبأت وراء عوسج على جانب الطريق ، وهنالك أتيح لى أن أشهد المأساة من بدايتها إلى نهايتها : كانوا خمسة أعرف منهم فريمون وفوريان وبيير ذوبوا ، وقد التقوا بالمسيو كوربيه عند البركة ، وتحدثوا إليه فى أمر ، فهز كتفيه وأراد أن ينصرف ، وعندئذ انقض عليه فوريان من الخلف وأمسكه من ساقيه وطرحه أرضاً جاعلا وجهه فى الطين الذى كان يغطى الطريق . وفى اللحظة عينها أطلق عليه لويس فريمون مقذوفاً من بندقية أرداه قتيلا » .

واقتيدت الفتاة إلى عمدة القرية الذى استمع إليها ورأى فى قصتها ما يفسر المعميات التى حار فى تعليلها القضاة والمحققون ، كحكاية الحذاء المخلوع ، ونوم القتيل على وجهه ، وتصعد المقذوف النارى من الخاصرة إلى القلب ، فلم ير من حقه الاحتفاظ بهذه المعلومات لنفسه ، وذهب إلى قاضى التحقيق .

ووقفت سيلفين أمام القاضى تؤدى شهادتها . فلما أخذ عليها إخفاءها هذه الحقائق القيمة طوال فترة التحقيقات الأولى ، اعتذرت بأن أحداً لم يسألها ، ثم قالت : « والحقيقة أنى خفت أن أسأل عن سبب وجودى فى الغابة فى تلك الساعة ، فأضطر إلى الاعتراف بأنى كنت هناك لأسرق الخشب »

وأدع للقارئ تقدير الضجة التى أحدثها هذا الاعتراف الخطير . فلقد

هتك الستر وانكشف المستور ، ولم يبق بد من بعث القضية على ضوء البيانات الجديدة والقبض على المتهمين .

وإذ كان فوريان قد مات قبل ذلك بسنتين ، فقد أصدرت النيابة أمرها بالقبض على پيير دوبوا وعلى زميليه اللذين أرشـــدت سيافين إليهما مباحث البوليس . أما فريعون فكان فى نجوة من طائلة القضاء لأن حكم البراءة ونظرية وجوب احترام الشيء المحكوم فيه قد أكسباه حصانة قانونية لا تدع سبيلا إلى محاكمته مرة أخرى على التهمة التى برىء منها . لذلك اكتفى النائب العام بأن يستدعيه شاهداً فى القضية وأفهمه حقيقة موقفه فيها وأن لا خوف عليه من الاعتراف بالحقيقة كاملة وكأن فريعون لم يطمئن إلى تأكيدات النائب العام ، فأرسل يستشير محاميه فى الأمر ، فلما طمأنه على سلامته اعترف بكل شيء فجاءت أقواله مطابقة لما قررته سيلفين كل المطابقة .

عندئذ انجابت غياهب الظلمات وبزغت شمس الحقيقة ، وعلم الناس أن الحكومة بريئة من تدبير مقتـــل بول — لوى كوربيه ، وأن السلطات البوليسية والقضائية لم تحاول إخفاء جريمة الحكومة .

أما نتيجة القضية فلم تكن موضوع شك عند أحد . فها هو ذا القاتل محصن بالقانون ، وها هو ذا شريكه فوريان قد وفر بموته على العدالة مشقة إعدامه ، ولم يبق إلا شهود الحادث الذين لم يتوافر فيهم شروط الاشتراك الاشتراك فى الجريمة فبرأهم المحلفون .

ولكن الذى استرعى اهتمام الجمهور فى هذه القضية إنما هو تقدم الجانى

الأكبر شاهداً فيها لا متهما . فلقد استقبله النظارة عند دخوله قاعة الجلسة بهمهمة تأفف واستنكار ، ودمدمة مقت واشمئزاز . ولكن هذه الدمدمة وتلك الهمهمة لم تلبثا حتى خفتتا ثم استحالتا إلى شعور رثاء ورحمة عندما أبصر الناس هذا الشاب الذى لم يتجاوز الأربعين من عمره يسير بخطوات مزعزعة مرتجف الركبتين والساعدين ، لا تقوى ساقاه على حمل جسمه ، وقد اشتعل رأسه بالشيب ،وغارت عيناه فى محجريهما وفقدتا بريقهما حتى ليسترهما بيده ليقيهما ضوء النهار ، واحدودب ظهره وتهدلت أثوابه وفقد توازنه فصارت يداه تتلمسان متكأ تتكئان عليه .

وأدى البائس التعس شهادته أمام المحكمة واعترف بما اقترفت يداه فى صوت متهدج متقطع يخنقه الشهيق والبكاء . فلما انتهت أقواله وأذن له الرئيس بالانصراف اتجه إلى المحكمة وقال : « ناشدتكم الله أن تحكموا على بالإعدام فالموت أحب إلى مما أنا فيه » وخر إلى الأرض مغشياً عليه، وعندئذ تصعدت من الجمهور صيحات الأسى ، وأجهشت النساء فى البكاء لمشهد هذا المجرم المبرأ الذى تخطاه عقاب الإنسان فلم يخطئه عذاب الله، والذى حسبه الناس سعيداً بالحياة بعد جريمته ، فإذا هو يناشد العدالة أن تنقذه من هذه الحياة التى لم تكن غير احتضار مؤلم وموت بطىء .

وفى المساء حمل التنكود إلى مستشفى المدينة ليعالج من أزمة عصبية شديدة استولت عليه ، ولكنه لم يلبث به أربعة أيام حتى مات . وهكذا سدل الستار على تلك المأساة البشعة التى حيرت بغموضها دوائر السياسة ودوائر القضاء طوال خمس سنين .

من الثورة الفرنسية الكبرى

لم يكن فى فرنسا سنة ١٧٨٧ من يفكر فى الجمهورية تفكيراً جدياً ، ولا من يتصورها أمراً ممكنا ، وكل ما فى الأمر أن النفوس كانت متذمرة من الحاكمين ومن أساليب الحكم ، تواقة إلى إصلاحات تكفل وضع حد للعبث الناشب فى شؤون الدولة ، وتضمن المساواة فى فرض الضرائب وتوزيع العدالة بين الناس .

ولقد كان لسلوك الملك المتوفى لويس الخامس عشر أسوأ الأثر فى سمعة الملكية . فلقد أبهظ ذلك الملك كاهل الشعب بشتى صنوف الضرائب ، ومكن لمعشوقاته من ولاية الأمر ، وأطلق أيدى خلصائه فى مال الدولة وأملاك الأفراد ، ولم يغادر الدنيا قبل أن يشتد برعيته العسر وتبلغ روحها الحلقوم ، فكان طبيعية أن يؤدى كل ذلك إلى ثورة الخواطر وقلق النفوس ، وإلى جعل تلك الحالة موضوع بحث الباحثين وتفكير المفكرين .

وانتشرت يومئذ تعاليم ڤولتير وروسو ومونتسكيو وغيرهم من فلاسفة القرن الثامن عشر ، فكان من أول آثارها أن نبذ الشعب الفكرة القائلة بأن الملك إشعاع من نور الله أو ظل الله على الأرض . وبذلك فقدت الملكية أقوى دعائمها ، وأضحت مثاراً للجدل والمناقشات بعد أن كانت عقيدة لا ترقى إليها الشكوك . وفعلت تلك التعاليم فعلها فى النفوس ، فحررت العقول

من الأوهام، وجرّأت الألسنة والإقلام على كل سلطة ومقام ، حتى إذا اعتلى لويس السادس عشر العرش ألفى نفسه إزاء الحالة التى جعلته يقول قالته المشهورة : « الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » .

كان لويس السادس عشر برغم طيب فطرته ونبل نزعته وميله إلى مافيه خير شعبه ، ملكا ضعيف الرأى كثير التردد ، لا يعرف الحزم فيما يتطلب الحزم ولا اللين فيما يقتضى اللين . ولقد أحس الحاجة الملحة إلى إجراء إصلاحات عاجلة فى الإدارة الحكومية، وأدرك مدى تململ الأمة من استبداد طائفة الحكام بشئونها ، فأراد أن يشرك الشعب معه فى حركة الإصلاح المنشــــورة ، فدعاه إلى انتخاب نواب يتولون مع الهيئة التنفيذية علاج الحالة التى وصلت إليها البلاد، وتقرير العلاقات التى ينبغى أن تقوم بين الحاكمين والمحكومين .

وفى أوائل أبريل سنة ١٧٨٩ انعقد مجلس الأمة ممثلا لطبقات الشعب الثلاث : الإكليروس والنبلاء والعامة . فكان الابتهاج بانعقاده عظيماً ، واستقبل الباريسيون موكب أعضائه بأفخم مظاهر العطف وأبلغ عبارات الترحيب ،واستبشر الناس خيراً،واطمئنوا إلى المستقبل،وتبدت روح التفاؤل على كل وجه وفى كل مكان . ولكن الملك الضعيف الرأى الكثير التردد لم يلبث أن آنس خطراً على سلطته من اشتراك الأمة فأخذ بنصيحة مستشاريه من أنصار الحكم المطلق ، وعطل أعمال المجلس ، وأوصد أبوابه فى وجوه الأعضاء .

ثقل وقع الصدمة على نفس الأمة ، فهاجت الخواطر ، واضطربت الأفكار ، وثارت العاصمة ثورة عنيفة يصفها كمى ديمولان فى كتاب منه إلى أبيه يقول فيه : « إن باريس تغلى غليانا حتى ليمر الملك فلا يحييه أحد فإذا ظهر المسيو بايى رئيس المجلس انطلقت الأكف مصفقة له والألسنة هاتفة : لتحى الأمة ولتحى سلطة الأمة ... ولقد انضم الحرس الوطنى إلى الشعب وشاطره ميوله الوطنية ، وإنى لأرى خلل هذا الدخان وميض النار التى سوف يندلع لهيبها . فالنفوس فائرة ، والشعب المتحركة من الرأى العام متحفزة ، وكل البوادر تنذر بحركة عنيفة لا يمكن تقدير مداها الآن ... ولقد شاهدت الجماهير أمس تجلد سيدة جلداً قاسياً لأن بعضهم سمعها تسب الوزير نيكر . وحدث قبل ذلك أن اندس أحد جواسيس السلطة بين بعض الوطنيين المتجمهرين ، فما إن شعروا به وعرفوه حتى أخذوه وجردوه من ثيابه وأغرقوه فى حوض ماء ، ثم انتشلوه منه ، وجعلوا يرجمونه بالحجارة ويضربونه بالعصى ، ثم فقأوا إحدى عينيه وأخرجوها من محجرها ، ولبثوا يعذبونه طوال خمس ساعات حتى فارق الحياة » .

وكان الوزير نيكر محبوبا من الشعب لما عرفه فيه من حضه الملك على الأخذ بأسباب الإصلاح وسعيه المتواصل فى الترفيه عن الممول الرازح تحت أعباء الضرائب الثقال . ولكن مشروعات هذا الوزير كانت تلقى مقاومة شديدة من الملك المتأثر بنصائح بطانته ومستشاريه .

والواقع أن لويس السادس عشر فى تردده لم يوفق إلى إرضاء أحد .

فلقد كان يميل حيناً إلى الحزب المتطرف المنادى بالإصلاح ، فيغضب أنصار الاستبداد والحكم المطلق ، ثم لا يلبث أن يميل إلى هؤلاء فينفّر المتطرفين . ولقد ظن وقتاً ما أن دعوة مجلس الأمة إلى الاجتماع للتشاور فى مصالح الشعب ستهدىء الحالة المضطربة وتسكن النفوس الثائرة ، فعمل بنصح الوزير وأشرك الأمة فى سياسة شئون الدولة. فلما لم تهدأ الحالة ولم تسكن النفوس بالقدر الذى كان يرجوه صب جام غضبه على نيكر وأقاله من منصبه فجاءت هذه الإقالة بمثابة النار تلقى على الهشيم ، إذ رأت فيها الأمة إهانة لها واستفزازاً لعواطفها وتحدياً لرغباتها ، فقامت القيامة واضطربت حبل الأمن وانفك عقال الجماهير وخرج الأمر من أيدى السلطات وأضحت الشوارع مسرحا للفوضى والفتن ومظاهر الغضب والاستياء .

ولقد رأينا فى الفقرات التى اقتطعناها من كتاب كمى ديمولان إلى أبيه كيف كان الشعور العام متحفزاً يلهبه أصغر حادث ، فلما أشيع نبأ إقالة الوزير الشعبى المحبوب سرى هذا النبأ فى الناس سريان الكهرباء فاحتشدت الجماهير فى فناء القصر المعروف باسم « الباليه رويال » تستمع إلى الخطباء ، واندفع الخطباء إلى المنصات يثيرون الهمم ويوغرون الصدور . وكان الشاب كمى ديمولان فى طليعة المتحمسين يترصد الأخبار ويتنقل من مكان إلى مكان ثائر النفس قلق الخاطر شديد الطيرة ، ينشر القلق بين الناس ويبث الثورة فى النفوس ، فلما بلغ قصر « الباليه رويال » اعتلى إحدى المنصات وأهاب بالجماهير المحتشدة صائحاً :

« أيها المواطنون ، إنى عائد الآن من فرساى ، وقد أقيل وزيركم نيكر ، وإن إقالته لهى النذير بأن جميع الوطنيين فى هذا البلد سيلقون حتفهم عما قريب . فلقد علمت من أصدق مصادر العلم أن الطغاة سيجردون عليكم الليلة جميع الجنود السويسريين والألمانيين الذين ستقدموهم ليذبحوكم . وليس أمامكم متسع من الوقت تضيعونه فى الكلام فهلموا إلى سلاحكم ودافعوا عن أرواحكم ولنحمل شارات نجعلها شعاراً نتعارف به . إلى السلاح أيها المواطنون فقد دقت ساعة العمل . ولنجعل شارة التعارف بيننا خضراء ، فالخضرة لون الأمل ، وهأنذا أدعوكم إلى الجهاد فى سبيل الحرية وإنقاذ الوطن » ثم تناول غدارة وصاح : « إنهم لن يقبضوا علىَّ حياً وسأعرف كيف أموت ميتة مجيدة ، واعلموا أن ليس ثم غير مصيبة واحدة تستطيع أن تحل بى وهى أن أرى فرنسا مسترقة مستعبدة » وأخرج شريطا من قماش أخضر علقه فى قبعته ولوح بيده قائلا : « هلموا أيها الإخوان إلى تلبية نداء الوطن فقد جد الجد ودعا داعى الفداء » .

ودوى التصفيق فى أرجاء الفناء وأحاط الناس بالشاب وتلقوه بين أذرعهم معانقين مقبلين . ثم حذوا حذوه ووضع بعضهم على قبعاتهم أشرطة خضراء ، ومن لم يجد استعاض عنها بورق أخضر انتزعه من أغصان الأشجار . وتخاطفت الجماهير كشوفاً كان كل فرد يدون اسمه فيها متطوعاً باسم « جندى الوطن » فكان هذا التطوع الإجماعى بمثابة تعبئة عامة . ثم دقت نواقيس الكنائس والمعابد إيذاناً بالخطر ، ونشرت الأعلام فوق

الدور ، وأقيمت المتاريس فى الطرقات، وخرج الأهالى بالبنادق والسيوف والفؤوس والهراوات ووقفوا وراء المتاريس ينتظرون ظهور العدو . واستحالت باريس ما بين عشية وضحاها مجالا للشغب والفتنة والاضطراب . ولما لم تجد تلك الأقوام عدواً تنازله ، ولت وجهها شطر قلعة الباستيل . وهناك قبضوا على حاكم السجن المسيو ده لوناى وقطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به شوارع المدينة هاتفين متحمسين ، ثم عادوا فقطعوا رءوس زملاء الحاكم ومرءوسيه وعلقوها فوق أعمدة المصابيح بعد أن مثّلوا بأجسامهم شر تمثيل ، وحملوا على القلعة نفسها فأطلقوا سجناءها ودكوا أسوارها وأزالوا معالمها وجعلوها أثراً بعد عين .

ونبه ذكر كمى ديمولان وذاع صيته بين الثوار وآنسوا فيه من المواهب والصفات ما يهيئه لأن يكون زعيما . وآنس الشاب فى نفسه اقتداراً على قيادة الرأى واستعداداً للزعامة ، فأخذ يصدر نشرة دورية باسم « فرنسا الحرة » كان ينشر فيها أقذع المطاعن على الحكومة الملكية والنبلاء الذين يؤيدونها فى أسلوب حاد عنيف استهوى القراء . فراجت النشرة أيما رواج ، وأقبل الناس على مطالعتها أكبر إقبال ، وشجعه هذا النجاح على الاسترسال فأصدر نشرة أخرى باسم « المصباح » كان يدعو فيها إلى الثورة يحض الشعب على الانتقام لنفسه من الطغاة والمستبدين ، ويبشر بالحكم الجمهورى الذى يجعل من الفرنسيين أخوة متحابين ويجعل من فرنسا بلداً متحداً يرفل فى ظلال السلام وتخفق فوقه أعلام الحرية وتسوده مبادىء الحق والعدل والمساواة » .

وانضم كمى إلى نادى «الـكردليين»[١] Club des Cordeliers وكان هذا النادى وكراً من أوكار الفورة يضم جمعية شعبية من الثوار المتهورين شعارهم . « الحرية والإخاء والمساواة » ووسيلتهم إلى تحقيق هذه المعانى عنف الحملة على الملكية والنبلاء وحض الشعب على اللجوء إلى الوسائل الشديدة لاستخلاص حقوقه من براثن الطغاة ، جمعية قوامها أخلاط من الناس لا شيء يجمع بينهم سوى الإغراق فى التهور والإمعان فى التطرف يتصدرها الزعيم « ماراه » الذى كان يسمى نفسه صديق الشعب ، والزعيم الآخر دانتون أشهر الخطباء الثوريين فى ذلك العهد .

ولقد ألفى كمى ديعولان فى هذه البيئة تربة صالحة لبذر بذور آرائه فيما يجب أن تكون عليه الجمهورية المرجوة وأبواقا قوية تردد تلك الآراء بين الجماهير فى الطرقات والمشارب والمجتمعات فعكف على الخطابة يلهب بها العزائم حتى تمكنت النزعات الثورية من النفوس ، وسادت فكرة الجمهورية فى العقول وبات الملك والملكية عدوين للشعب بغيضين إليه وأضحت باريس فوق بركان يهدد بالويل العظيم .

* * *

(١) قضت الثورة على جميع مظاهر الدين فى فرنسا وأغلق الثوار الأديرة بعد أن أعدموا أكثر الرهبان وشتتوا الباقين منهم ، ثم عادوا فاحتلوا تلك الأديرة . وكان كل حزب يتسمى باسم الدير الذى اتخذه ناديا يجتمع فيه ،فالـكردليون نسبة إلى دير القسس الفرانسيسكان Cordeliers الذين كان كل منهم يربط في وسطه حبلا بهيئة حزام . واليعاقبه نسبة إلى دير الآباء اليعاقبة .

ولنطو مع القارىء ثلاث سنين ظل الملك لويس السادس عشر يتخبط خلالها فى معالجة الأمور بتراخيه المعروف وتردده المألوف، فكان تارة يجنح إلى الشدة فى غير موضعها ويجنح أخرى إلى التسامح والتفريط حيث يجب أن تؤخذ الأمور بالحزم والحلول الحاسمة . وكان آخر ما لجأ إليه أن استوزر بعض رجال من حزب الجيروند[1] آنس ميل الثوار إليهم وثقة الشعب بهم ظناً منه أن إشراكهم فى ولاية الأمر يهدئ الحالة ، أو يضع حداً لهياج النفوس ، ولكنه أخطأ الحساب وأساء التقدير إذ لم يكن فى وسع هؤلاء الوزراء أن ينزلوا عن مبادئهم من غير أن يفقدوا نفوذهم فى الشعب ، ولا أن يتخلوا عن الشعب وهو الذى آزرهم ورفعهم إلى مناصب الحكم . ففى جلسة من جلسات المجلس استشاط الملك غيظا من سلوك الوزراء الجيرونديين فأقال ثلاثة منهم بعد أن أهانهم أمام زملائهم ورماهم بالوقاحة والتحزب الدنىء .

ولقد كان لإقالة هؤلاء الوزراء من الوقع على نفس الشعب ما كان لإقالة الوزير نيكر قبل ثلاث سنين . ولكن بدلا من أن تسير الجماهير إلى قلعة الباستيل ، سارت هذه المرة قاصدة مقر الملك فى قصر التويلرى .

هجمت الجماهير وعددها يزيد على الستين ألفاً على القصر تحمل عريضة تلتمس بها من الملك إعادة الوزراء الجيرونديين ، فاقتحمت أسوار الحديقة

(١) الجيروندويون فى الأصل نواب إقليم الجيروند ، ثم صاروا هم الحزب الذى كان فى أول عهد الثورة أشد الأحزاب تطرفا ، ثم عادوا فمالوا إلى الاعتدال وحل اليعاقبة محلهم فى التطرف .

والأبواب ووصلت إلى غرف الملك والملكة صائحة صاخبة تحطم كل
ما تصادفه فى طريقها من الرياش والتحف والمرايا. وألفت مارى أنطوانيت
نفسها محاطة بالأوشاب والرعاع وحثالات القوم وقد وضعوا على رأسها
قلنسوة حمراء (والقلنسوة الحمراء عندهم رمز الثورة) ووضعوا مثلها على
رأس الملك ورأس ولى العهد الصغير . وكان لويس السادس عشر ينظر إلى
هذه الأعمال باهتاً مستسلماً . وقد استمرت الجماهير تخرب وتدمر وتسرق
ما تصل إليه أيديها وترفع قبضاتها فى وجه الملك والملكة مهددة شاتمة
حتى أقبل محافظ باريس وبعض الزعماء الجيرونديين واستطاعوا أن يصرفوا
الناس عن القصر . وأنا لنقرأ فى ذلك كتاباً من زوجة الزعيم دانتون إلى
إحدى صديقاتها تقول فيه : « أكتب إليك وأنا أسمع دوى الرصاص
وقصف المدافع ولا تمضى لحظة إلا ويفد علينا أفراد من الشعب يوزعون
ما غنموه من القصر حتى أدوات الزينة الخاصة بالملكة وأوانيها الفضية
وملابسها الداخلية ... إن الحالة جد خطيرة ولكن النصر مكتوب للشعب
وسينتهى كل شىء على مايرام »

وأصدر الملك فى اليوم التالى نطقاً سامياً قال فيه : « إن الملك لم يقابل
تهديد الثائرين وشتائمهم إلا بالحلم الذى يمليه عليه تعلقه بالشعب وحرصه
على سلامة الرعية . وإذا كان الملك يجهل إلى أى حد ستواصل الجماهير
جهودها فى الانتقاض على النظام فإنه يصارح الأمة بأن أعمال العنف بالغة
مابلغت لن تحمله على إبرام أمر يعتقد أنه مخالف لمصلحة البلاد. وإن الملك

فى هذا السبيل ليعرض ، غير آسف ، أمنه وسلامته لكل خطر بل إنه ليضحى حتى بحقوقه الشخصية التى يشترك فيها مع كل فرد عادى والتى كان ينبغى أن يحافظ عليها القانون كما نحافظ على حقوق سائر الأفراد ، ولكن ليكن معلوماً أن على الملك ، وهو المثل الأعلى للأمة الفرنسية ، واجبات قاسية يجب أن ينهض بها مهما كانت الظروف والأحوال ، وأنه إذا رضى أن يتسامح فيما يمس شخصه فهو لا يستطيع ولن يستطيع أن يتسامح فى تلك الواجبات » .

ولقد كان المأمول أن يحدث هذا النطق الهادىء الرزين أثره فى تهدئة الحال ،ولكن ما للعقل والاتزان وللثورات الشعبية ، وما الذى تستطيعه الحكمة والأناة حيال الجماعات إذا انفك عقالها !

لم تمض على تلك الحوادث ثلاثة أسابيع حتى هبت العاصفة الكبرى . وكان سبب هبوبها رفض الملك توقيع مرسوم بالقبض على الجنرال لافاييت الذى كان الثوريون يعتبرونه خصمالهم ، فما إن أذيع نبأ الرفض حتى دقت أجراس الكنائس مرة أخرى إيذانا بالخطر العام فهرعت الجماهير إلى حمل السلاح وتدفقت من البيوت إلى الشوارع والطرقات ، وانتشر الزعماء بين الناس يخطبون قائلين إن ساعة الجهاد قد دقت فإما النصر التام وإما الموت الزؤام . وأضيئت المنازل فى جميع الأحياء وارتفعت الأصوات بنشيد المارسليز وطافت المظاهرات أرجاء المدينة وتجمعت كلها عند قصر التويلرى تريد التنكيل بالملك وزوجته وأولاده .

وكان ما كان من فرار أفراد الأسرة المالكة خفية تحت جنح الظلام ، والقبض عليها فى بلدة فارين ، وإعادتها إلى العاصمة تحت حراسة الجماهير ، ومحاكمة الملك والحكم عليه بالإعدام .

وحدث بعد ذلك ما حدث من المذابح التى اشتهرت باسم مذابح شهر سبتمبر ، والتى أراقت فيها الجماهير دماء عشرات الألوف من المسجونين والنبلاء والقسس والنساء والأطفال مما يضيق المقام عن سرده فنضطر إلى تخطيه مكتفين بالتنويه إلى أنه كان لكمى ديمولان وزميله دانتون الباع الطويل فى كل تلك المآسى الدامية .

فلقد قادا الجموع إلى القصر وأشارا بالفتك برجال الحرس وأوحيا إلى الحكومة العرفية بوجوب محاكمة الملك وإعدامه ، ولكمى فى ذلك قولته المشهورة : « إن إعدام هذا الملك لا ينقص الأمة فرداً » . ولقد اشتركا فى حض الشعب على قتل الأبرياء بدعوى أنهم أعداء الثورة ، وساهما بنصيب وافر فى وضع أسس حكم الإرهاب ، وبث الرعب والهلع فى النفوس وإنشاء المحكمة الثورية بقوانينها الاستثنائية وقضائها الوحشى ، وفى افتتاح ذلك العهد الفظيع الذى أجمع المؤرخون على تسميته عهد الفزع والأرهاب Terreur والذى كان جنة أصابت فرنسا فأفقدتها صوابها وإحساسها وصيرت قادتها وزعماءها وحوشاً ضارية تلغ الدماء وتستحليها وتطرب لمناظر القتل وإزهاق الأرواح واستباحة الحرمات وزج الناس ألوفاً فى السجون وإعدامهم ألوفاً بين جدران الخنادق وفوق المقاصل وفى الطرقات.

ولقد ظن العقلاء أن إعدام لويس السادس عشر سيروى تعطش الزعماء إلى الدم أو يضع حداً لتلك الفواجع البشعة ، ولكن خابت الظنون وظهر أن هذه الضحية لم تكن إلا بداية ضحايا العهد الأسود وفاتحة الشناعات التى انقضى عليها اليوم قرن ونصف قرن وما تزال تبعث الهلع والتقزز إلى نفوس المؤرخين وقارئى التاريخ .

قبض الثوار على أزمة الدولة وقامت الحكومة العرفية بولاية الحكم ، فكان طبيعياً وقد هدم الثوار النظام القديم بالعنف والقوة ، أن يحاولوا إقامة نظام جديد وسط الاضطراب والفوضى . وإذا كان من السهل على المعارضة أن تستغل مصائب الشعب ومتاعبه لترجع أسبابها إلى الحكومة القائمة ، فقد تغيرت الحال بعد أن تولت المعارضة الحكم بنفسها ، وآن لها أن تباشر الإصلاح الذى كانت ترمى الحكومة السابقة بالقصور عنه . ولما كانت الحكومة العرفية أعجز من سابقتها عن القيام بحركة الإصلاح وتخفيف الضائقة العامة فقد رأت أن تصرف نظر الشعب عن عجزها وأن توجهه إلى أشياء أخرى تلهيه بها عن نقدها والتنديد برجالها .

ووجد روبسبيير الحل فقال : « إن مبدأ الحكومة الديمقراطية هو العدل ، ولكن لا بد لها من الاستقرار قبل كل شيء ، ولا سبيل إلى الاستقرار إلا بالقضاء على خصومها » .

إذن فقد وجب أن يصبح الإرهاب أداة للحكم فى يد الحكومة العرفية ،

وما دامت هذه الحكومة عاجزة عن تحسين أحوال الأمة ، فلا أقل من أن ترجع أسباب سوء تلك الأحوال إلى أناس وهيئات تختارهم فتقذف بهم إلى الشعب ليصب عليهم نقمته متوهماً أنه باستئصال هؤلاء الناس والهيئات إنما يستأصل أسباب ويلاته ومصائبه . لذلك رأينا الحكومة العرفية تضحى بالملك وبزوجته مارى أنطوانيت ثم تتبعهما ببعض الرءوس الكبيرة ، فإذا ما أعوزتها الضحايا اتهمت الجير ونديين بالاعتدال ، ومعنى الاعتدال العداء للثورة ، وقدمتهم للمحاكمة وقذفت بهم إلى ساحة الأعدام .

* * *

أوعز روبسبيير إلى كمى ديمولان أن يبدأ الحملة على الجيرونديين . فأخذ كمى يتهمهم فى رسائله ونشراته بأنهم رجعيون ويقرر أن الرجعية هى أصل الداء ومبعث البلاء وأنه لولا الرجعيون لسعد الشعب وعم الخير البلاد . وسرعان ما أضحى الجيروندبون — وهم متطرفو الأمس الذين ألهبوا فتنة سنة ١٧٩٢ — رجعيين أعداء للثورة يجب إعدامهم لتخليص الأمة من شرورهم . وانهال عليهم كمى ديمولان بلسانه الذرب وقلمه النارى فمزق وطنيتهم وجرح ماضيهم وحذر من حاضرهم وتوقع كل الشر من مستقبلهم وصيرهم هدفاً لسخط الناس وبغض الجماعات ، وما زال بهم حتى استصدر من الحكومة العرفية قراراً بالقبض عليهم تمهيداً لمحاكمتهم . وهكذا بدأت الثورة تلتهم أولادها وتصبح كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله .

وصدر حكم المحكمة الثورية بإعدام الاثنين والعشرين جيرونديا ومعهم،

ثلاثة وسبعون من أنصارهم بدون أن توجه إلى واحد منهم تهمة جدية أو ينهض على واحد منهم دليل صحيح . وفى ذلك يقول المؤرخ الوزير تيير : « كانت قضية الجيرونديين أولى القضايا المخزية التى تعمد فيها الأقوياء ألا يسمعوا صوت الضعفاء واستحال على الضعفاء أن يسمعوا الأقوياء صوتهم » .

وإذ صدر هذا الحكم المدهش أدرك كمى دموﻻن وصاحبه دانتون خطر تطرفهما وشعرا بثقل تلك المسئولية على ضميريهما فخرج كمى من قاعة الجلسة مشدوهاً يردد فى غير وعى : « رباه رباه أنا الذى قتلت هؤلاء المساكين ، فليس لى أن أبقى بعد اليوم فى هذا المكان » .

ومنذ تخلص روبسبيير من مزاحميه الجيرونديين ، خلا له الجو وأراد أن يطلق يده فى مرافق الأمة وأرواح الناس ، فأشار بتكوين هيئة تتركز فى يدها كل السلطات لتأخذ على عاتقها إنقاذ البلاد من المصاعب التى تعانيها . وتألفت هذه الهيئة باسم « لجنة الإنقاذ العام » وسنت لنفسها دستوراً حسبنا أن نذكر المادة الأولى منه ليعلم القارىء مدى سلطانها وسعة اختصاصها وهذا نصها : « للجنة أن تسن من التشريعات وأن تتخذ من الإجراءات ما تقتضيه الظروف الطارئة أو الاحتمالات المتوقعة وأن تعمل بالوسائل العرفية كل ما تراه مفيداً لصالح الدولة والبلاد » .

وتزعم روبسبيير لجنة الإنقاذ العام وجهزها بجيش من ستة آلاف من الرعاع والأوشاب وحثالة الأقوام تستعين به على تنفيذ قراراتها ، واختار قضاة المحكمة الثورية ومحلفيها من بين أناس يعهد فيهم الائتمار بأمره

والخضوع لإشارته ، ثم استصدر من اللجنة تشريعاً سماه « قانون المشبوهين » يسمح له بأن يسجن ويحاكم ويعدم كل من يريد التخلص منهم وإلى القارىء نص المادة الأولى من ذلك القانون :

يعتبر مشبوهاً ذا خطر على أمن الدولة وسلامتها :

أولا . كل من يثبط همم الشعب فى الاجتماعات العامة بخطب أو تصريحات مضادة للمبادىء التى قامت عليها الثورة .

ثانياً : كل من يعمد فى أحاديثه الخاصة إلى التلميح إلى مصائب الأمة وآلامها بغية تسوىء سمعة الثورة فى أذهان الناس ، أو يتعمد نشر الإشاعات المقلقة للخواطر عن سوء سير الأحوال ، أو يتصنع الأسف على ما وصلت إليه بعض الأمور العامة .

ثالثاً : كل من يغير سلوكه وآراءه طبقاً لتغير الأحوال .

رابعاً : كل من يبدى الإشفاق على تاجر أو زارع أو منتج حاكمته الثورة لتعمده رفع أثمان منتجاته أو عدم تخفيض هذه الأثمان إلى الحد الذى يقتضيه العسر العام .

خامساً : كل من تشدق بكلمات الحرية والجمهورية والمساواة والإخاء، ثم ظهر أنه يتردد فى السر أو فى العلن على الملكيين والخاصة والمعتدلين أو أن له بهم علاقة من أى نوع .

سادساً : كل من لم يستبشر خيراً بدستور الجمهورية الجديد أو أعلن توقعه عدم نجاحه أو عدم صلاحه للبقاء .

سابقاً : كل من لم يفعل شيئاً لتأييد مبادىء الثورة حتى ولو لم يكن، قد فعل شيئاً لمحاربتها وهكذا اثنتا عشرة مادة من هذا التشريع .

وانطلق عهد الإرهاب ينشر رداءه الأسود على فرنسا بأسرها . فلم يكن لجيش لجنة الإنقاذ من عمل سوى القبض على المشبوهين حتى غصت بهم السجون . فلما أترعت وفاضت صاروا يملأون بهم المدارس والأديرة والمصحات ودور الحكومة والقصور القديمة بعد أن يخلوها من ساكنيها . واشتد الكرب بالبلاد وفدح الخطب وعم العسر وتدهورت قيمة العملة واضطرت اللجنة إلى تحديد أسعار حاجات المعيشة وفرض حد أعلى لثمن كل شيء . وبارت التجارة إذ لم يعد فيها كسب للتجار فتكدست المنتجات عند المنتجين وفرضت عليهم السلطات ضرائب مبهظة جعلت كلا منهم يقتصر فى الإنتاج على ما يكفى شخصه وأسرته . وهكذا فشل كل علاج حاولته الحكومة لمداواة الحالة أو تدارك بعض مضاعفاتها حتى أحكام الإعدام التى انصبت على كثير من التجار والمنتجين . وكان الخبز يوزع على الأهالى تحت إشراف البوليس ، فكان الناس يتجمعون أمام المخابز وتدور بينهم المعارك والمشاجرات ليتقدم كل منهم سواه حتى اضطر البوليس إلى تنظيمهم صفوفاً طويلة بترتيب المبكرين فى الحضور ، فكان من نتائج ذلك أن صار كثير من الأهالى يقضون الليل أمام المخابز ليحظوا بالأولية فى الصباح فإذا وصل المتأخرون تجددت المعارك واختل النظام.فلما ضاقت الحيل بالحكومة

أصدر أولو الأمر قراراً مضحكا ليست له من نوعه سابقة ولا لاحقة ، وهذا القرار يقضى بأن تـكون الأولية لآخر من يصل ... ومع ذلك لم يفلح هذا النظام المقلوب فى منع المشاغبات والفوضى والاضطراب .

وأصدرت الحـكومة قراراً بالغاء جميع الأديان وحل كل الهيئات الدينية وإغلاق الأديرة والـكنائس والمعابد وإعدام القسس والراهبات ، وإحلال « دين العقل » رسمياً محل الأديان السائدة . وفى ذلك يقول أحد ظرفاء المؤرخين : «إن الحـكومة العرفية اختارت لفرنسا دين العقل بعد أن أبعدت العقل عن جميع أعمالها وتصرفاتها » .

وكانت السجون تمـــلأ بالمعتقلين ليلا لتخلو منهم صباحاً إذ يقادون بالعشرات وبالمئات إلى ساحة الإعدام بعد محا كمات صورية قصيرة لا يسمح فيها للمتهم بالدفاع عن نفسه دفاعا كاملا صريحاً ولا يتسع فيها الوقت أمام القضاء لقراءة الأوراق ، بل للتحقق من شخصية المتهمين . فـكثيراً ما كانت الأسماء تتشابه على الشرطة فيأخذون البرىء بدلا من المتهم فيحكم عليه بالإعدام ، حتى لقد حدث أن جىء بشابين يحملان اسمين متشابهين ولما لم تهتد المحـكمة بعد تحقيق سطحى سريع إلى أيهما المطلوب حكمت على الاثنين بالأعدام حتى لا يفلت المجرم من يد .. العدالة ..! ولعمرى ما أغرب كلمة العدالة فى هذا المقام ! بل لقد حدث ما هو أعجب وأغرب إذ قبضت المحكمة على محام وحكمت عليه بالإعدام بدعوى أنه ترافع عن أحد المتهمين فدافع عنـه دفاعا حاراً لا يصدر عن وطنى مخلص للثورة مؤمن بمبادئها

انقلبت الثورة اذن من جهاد فى سبيل الحرية إلى طغيان منظم ساد فيه الظلم وضاع الحق وانتشر الذعر وذهب الأمن وامحت معالم الحرية وارتفع لواء البطش وصارت الكلمة للأقوياء والقوة للمتطرفين والغلاة والمتجرين بعواطف الشعب وسذاجة الدهماء ، واستحالت فرنسا جحيماً وقوده الأرواح والأجساد وزبانيته قادة الرأى والزعماء .

ولقد ثقلت تلك الحال على نفس ديمولان وصاحبه دانتون حتى لم يعودا يطيقان الصبر عليها فآليا ليدعوان إلى التسامح ويحملان أولى الأمر على الرحمة أو يعتزلان الحياة العامة ويغسلان أيديهما من أوزارها مكفرين بالتوبة الصادقة عما أسلفا من الآثام .

بيد أن لجنة الإنقاذ والحكومة العرفية لم تكونا لتريا فى آراء ديمولان رأى الأمة فيها، فلقد هاجت هذه الآراء سخط المتطرفين وأيقظت غضب أنصار الإرهاب حتى قال له روبسبيير يوماً وهو يبتسم : « حذار يا كمى فإنك تداعب الموت عن قرب » ولم يلبث الزعيم هيبير أن اتهم كمى بالجنوح إلى الملكية تحت ستار من الاعتدال وبأنه ضالع مع أعداء الثورة من الأشراف والنبلاء . وهبت الريح على الشاب عاصفة من الحكومة العرفية ولجنة الإنقاذ فلم يعرف لفرط سذاجته أو لفرط حسن ظنه بالناس كيف يدفعها ، وتوهم أن المسألة مسألة عدل وقانون وحقائق فأخذ يدافع عن نفسه وعن نزعته وآرائه وهو لايدرى أنه بذلك إنما يغذى النار التى تريد أن تلتهمه . ووقف صديقه روبسبيير ليدافع عنه ولكنه ما كاد ينطق ببضع

كلمات حتى آنس الامتعاض من جميع الأعضاء نخشى أن تقتلعه الريح هو الآخر فأدار الدفة بسرعة فى لباقة ومهارة وأخذ يتحدث عن كمى فى لهجة المشفق الترفق ويقول : « إن كمى ديمولان فتى مدلل يشفع حسن باطنه فى سوء ظاهره ، ومن الواجب أن نضع حداً لطيشه وانزلاقه على أن نبقى على شخصه ، غير ناسين ما أداه للثورة من الخدمات . وأرى أن تأمر الحكومة بتعطيل صحيفته وبإعدام الأعداد التى صدرت منها » ولم يطق كمى هذه اللهجة من صاحبه أو لم يفهم غرضه منها فهب غاضباً وقال : « أيها الرفاق ، أحرقوا صحيفتى إذا شئتم ولكن اعلموا أن الإحراق ليس رداً على الحقائق التى تحتويها » . ورأى روبسبيير فى هذه الصيحة المتكبرة جرحاً لكرامته فتخلى عن زميله فجأة وقال : « ما دام هذا الفتى يرفض رحمتنا فلنأخذه بعد التنا ولتراجع الحكومة إعداد صحيفته ولتحاكمه على ما فيها » .

واستصدر روبسبيير من الحكومة العرفية قرار إتهام ضد كمى ديمولان ودانتون ومن لف لفهما من الزعماء المعتدلين أمثال فيليبو ولاكروا وفابر ديجلانتين وهيرو ووبسترمان . وفى اليوم الأخير من شهر مارس سنة ١٧٩٤ قبض على هؤلاء جميعاً وأودعوا السجن بتهمة الاعتدال . . . والاعتدال فى ذلك العهد هو الخيانة الكبرى للثورة ولقضية البلاد .

بدأت النار تأكل مضرميها ، وبدأ أولئك الرجال يدركون المدى الذى وصل إليه غلوهم وتطرفهم ، ويؤمنون بأن إطلاق غرائز الشعب الوحشية من عقال الأنظمة والتقاليد طيش لا يمكن أن ينتهى إلى غير هذه

النتيجة المحزنة ، وبأن عشرات الألوف الذين أعدموا إنما ذهبوا ضحية طغيان وضعوا أساسه بأيديهم فعاد اليوم ليجرفهم . فأخذ كى يكتب إلى زوجته : « . . كنت أحلم بجمهورية عادلة كريمة يحبها كل الناس ويتفيأون ظلالها الرطيبة الوارفة ولكنى إذ كنت أدعو إلى هذه الجمهورية لم أكن أعرف أن الناس قساة وغلاظ إلى هذا الحد ... »

وهكذا قدر على الذين أضرموا النار أن يكونوا لها حطباً ، وعلى الذين قطعوا الجسر أن يجرفهم الطوفان . ولقد ظل الطوفان يعلو ويندفع ويأخذ فى طريقة كل من يصادفه حتى ليبتلع الرجعيين والمتدلين ثم يعود فيبتلع المتطرفين واليماقبة وعلى رأسهم روبسبير وفوكييه تانفيل وسانجوست وكوتون ثم يعود فيبتلع قضاة المحكمة الثورية ومحكميها وجلاديها ومعهم الدكتور جيوتان مخترع المقصلة الذى سميت باسمه « الجيوتين » .

ولعل أعجب ما يدعو إلى التأمل والاعتبار فى تلك الثورة الفرنسية الكبرى أنها بدأت بفظائعها ومنكراتها لتتخلص فرنسا من حكم الفرد الذى كان اسمه الملك لويس السادس عشر ، وانتهت بعد كل هذه الفظائع والمنكرات إلى خضوع فرنسا لحكم الفرد الذى صار اسمه القنصل بونابرت ثم الإمبراطور نابليون .

مدام رُولان وَأُصحابُها

كانوا اثنى عشر ، وكانوا يمثلون أقليم « الجيروندة » فى الجمعية الوطنية إبان الثورة الفرنسية الـكبرى .

إثنا عشر ولـكنك لا تجد بينهم إلا الخطيب اللسن ، أو الشاعر الموهوب ، أو المحامى الفصيح ، أو الأديب المرهف الإحساس . ولقد اتخذوا مقاعدهم فى مقدمة صفوف المعارضين فلم تكد المناقشات تدور والمعارك الـكلامية تحتدم حتى تبين النواب والجمهور أهمية هـذه الفئة القليلة فاتجهت إليها الأنظار وانعقدت عليها الآمال .

وكانت آراؤهم فى الدين والسياسة والاجتماع كـكل الآراء السائدة فى تلك الفترة المحزنة من تاريخ فرنسا : كفرا بالله وإنـكاراً للأديان حتى ليأخذ أحدهم على الزعيم روبسبيير ذكره العناية الإلهية فى سياق كلامه فيرميه بالرجعة ويحذر الإخوان من ذلك الرجعى الذى لا يزال يؤمن بشىء اسمه الله ، وحبا للحرية وتعشقا للمساواة حتى لتـكاد جسومهم تنضح بمـا أشربته من مبادىء روسو ونظرياته ، وشغفا بالجمهورية لا يجاوز حدود الغزل والتشبيب إذ كانوا يعتقدون فيما بينهم وفى قرارات نفوسهم أن الملوكية نظام نافع ومفيد .

كانوا رجال كلام ، كل بضاعتهم جمل خلابة وعبارات منتقلة ، تسكرهم

البلاغة ويسكرون بها الناس ، فتصبح فيهم كالخمر تلعب بعقل محتسيها حتى تخرجه عن اعتداله وتفكيره ، وتملى عليه مالا يقره إذا زالت عنه النشوة وعاد إليه الصواب . كان الواحد منهم يرتقى المنبر هادئاً رزينا لا يضمر شراً للعرش ولا ينتوى إثارة الشعب ولا يعتزم حض الأمة على العنف ، ولكنه ما يكاد ينطق بالعبارات الأولى ويحس حسن وقعها فى النفوس ، ويسمع التصفيق، ويرى علامات الاستحسان حتى ينسى حدود الاعتدال التى رسمها لكلامه فيندفع مع التيار ، ويستهويه البيان فينهال على العرش سبا وقذفا وعلى الشعب إثارة وتهييجا ، كأنه يستطيب أن يرى الثورة سائرة إلى أغراضها فى بحر من الدماء أو فوق جسر من الأشلاء . فإذا ما انصرفوا من قاعة الاجتماع وحاسبوا أنفسهم على ما قالوا ، تولاهم الندم وعرفوا أنهم أسرفوا وأفرطوا من حيث كانوا يريدون القصد والاعتدال .

ولهم فى هذا المضمار جمل مأثورة وعبارات اقترنت بأسمائهم فى ذاكرة الأجيال ، إذ كان لها الأثر الأكبر فى توجيه الثورة نحو الوسائل العنيفة التى امتاز بها عهد الإرهاب ، كما كان لها الأثر الأكبر فى مصيرهم يوم تناولهم بها أعداؤهم وأرسلوهم ليذوقوا آثارها العملية فوق النطع فى ساحة الإعدام .

فأحدهم « ايسنار » هو الذى أهاب بنواب الأمة وقال : « إن الحرية شجرة لا تزهر إلا إذا رويت بالدماء ، فابتروا العضو الفاسد منكم لتنقذوا الجسم من الفساد » ولقد نبعت الثورة وأهوالها من هذه القولة المشئومة

حتى إذا آن أوان محاكمة الجيروندبين استخدمها أعداؤهم اليعاقبة ضدهم فاعتبروهم عضواً فاسداً فى جسم الأمة وذهبوا بهم إلى المقصلة ليرووا بدمائهم شجرة الحرية الغالية .

وأحد كبارهم « جانسونيه » هو القائل فى معرض إثبات مؤامرة لم ينهض على المتهمين بها دليل : « هل للقضاة الذين يأبون إصدار الحكم إلا بعد قيام الدليل أن يقولوا لى متى كانت المؤامرات تدون فى المحاضر وتسجل فى مكاتب الموثقين ؟» فذهبت قولته مبدأ ، وقبل أن تنقضى عليها سنتان كان المدعى العام فوكييه تانفيل يتخذ منها سلاحا يطعن به الجيروندبين أمام المحكمة الثورية ، فإذا سأله أحدهم : أين الدليل على مؤامراتنا ، أجاب : « ليس عندى دليل فالمؤامرات لا تدون فى المحاضر ولا تسجل فى مكاتب الموثقين » .

وزعيمهم « بريسوه » هو القائل : « إن الوطن فى خطر لا يتحمل بطء الإجراءات فلتمض العدالة فى طريقها مسرعة وكل خطأ تقع فيه مغفور » ولقد حفظها لهم عدوهم إيبير حتى إذا وقفوا موقف الاتهام وصاحوا : واجهونا بالشهود ، قال لهم وهو يبتسم : « إن الخطر المحيق بالوطن لا يتحمل بطء الإجراءات » .

وزعيمهم « فرنيوه » هو القائل فى سبيل التنكيل بخصمه ماراه : « لا جناح على الأمة إذا هى أقصت عن صدرها أبناء لا يطلبون ثديها إلا ليمزقوه » ولقد أسرها له الوحش حتى إذا قام يطلب رؤوس الجيروندبين

قال : « نعم أنتم أبناء الثورة ولـكنكم عققتموها ، فنحن نقصيكم عن صدرها لـكى لا تمزقوه ، وإنا نكيلـكم اليوم بما كلتم به خصومكم أمس فلا غبن ولا استذمام » .

وهكذا قضى على أولئك التعساء أن يشحذوا السكين التى سوف تحز رقابهم ، وأن يوقدوا النار التى سوف تلتهمهم فيذهبوا ضحية افتتانهم بالعبارات الملتهبة العنيفة والـكلام القوى الخلاب .

كان كبيرهم بريسوه يجمعهم فى بيته ليشاورهم فيما ستدور حوله مناقشات المجلس . ولـكنه لم يكن بالزعيم المطبوع الذى يستطيع أن يؤثر بشخصيته ونفوذه فى آراء إخوانه أو أن يوجههم التوجيه الصالح نحو غايات معينة وأغراض ذات بال . لذلك لبث الجيروندبون بضعة أشهر أشبه بشرذمة من الأصدقاء منهم بحزب سياسى ذى نظام ودستور . ولقد كانوا يظلون كذلك لولا أن الأقدار أتاحت لهم معرفة امرأة هى التى جمعت شملهم ونظمت أمرهم ورسمت خططهم وصيرتهم حزبا قوى الـكلمة مرعى الجناب ، فـكان لها فضل خلق أول حزب برلمانى بالمعنى المعروف فى هذه الأيام .

تلك المرأة كانت السيدة مانون فيلبون التى اشتهرت فى التاريخ باسم زوجها فعرفت باسم مدام رولان .

كانت مانون تقترب من الأربعين ، وهى ليست بالمرأة المستكملة شروط الجمال ولـكنها حسناء جذابة ، فى حديثها سجر وفى حوارها فتنة . وكانت من العلم والأدب والثقافة على درجة تسترعى النظر وتحمل على الاحترام .

قرأت فى حداثتها مؤلفات بلوتار خوس فأغرمت بسير أبطاله وودت لو أنها ولدت مثلهم رومانية أو اسبرطية وفى عصر من تلك العصر المجيدة التى كانت تتسع فيها للنساء وللرجال ميادين المجد والعظمة وتتفتح أبواب البطولة والاستشهاد . ثم قرأت روسو فأولعت بالمبادىء الشعبية السمحة وبالنظم الجمهورية الحرة حتى باتت تقول : « إنى أمقت الملوك لأن أقبح منظر تراه عينى هو منظر إنسان يحنى رأسه أمام إنسان » .

وتزوجت بالمسيو رولان لا حبا فيه ، فقد كان يكبرها بعشرين سنة ، ولم تكن خلقته القبيحة لتستهوى النساء ، وإنما تزوجت به لتنقذ نفسها من عيشة الخمول التى كانت تعيشها فى بيت أبيها ولتجد لمطامعها المستعرة ولخيالاتها الوثابة ميدانا أوسع تسرحها فيه .

وجاءت معه من ليون إلى باريس ، وانساقت فى تيار الثورة الكبرى عصبية المزاج مرهفة العواطف حديدة اللسان . فبينما كان أشد الثوريين تطرفا لا يفكر فى أكثر من إيجاد حكومة ملكية دستورية عادلة ، كانت هى تنادى بالجمهورية فى أوسع معانيها وأقصى مراميها وتطالب فى غير ما حذر ولا احتياط بإسقاط العرش وإعدام الجالس عليه ، ولا تتحرج فى أن تكتب إلى أصدقائها السياسيين : « إنكم تهتمون بالصغائر وتدعون الرأسين الكبيرين (الملك والملكة) يفلتان من أيديكم ليدبرا شقاء الشعب ومحنة الوطن . ألا حسبكم ما أضعتم من وقت حتى اليوم فها هى تلك العظائم تناديكم فاعملوا على محاكمة الطاغيتين . (الملك والملكة أيضاً) وإلا فأنتم صبيان كبار » .

وسرعان ما استحال بيتها نادياً سياسياً يجمع أقطاب حزب الجيروندة ويضم أنصارهم من أعلام الثوار ، وسرعان ما تأثر أولئك الأقطاب والأعلام بشخصية تلك المرأة العجيبة التى وجدوا كل آرائهم ومبادئهم وشهواتهم وخيالاتهم ممثلة فيها إلى جانب قوة فى الإرادة وحزم فى التدبير وإحكام فى القيادة والتوجيه لم يأنسوا مثله فى أنفسهم . ولمست مدام رولان بأصبعها مواضع الضعف فى نفوس أولئك الشعراء والأدباء الذين طوحت بهم عجائب الانتخابات الشعبية إلى ميدان السياسة فى تلك الظروف الشاذة ، فعرفت كيف تكتسب حبهم وتمتلك زمامهم وتتخذهم أبواقاً لها فى الأندية والمجتمعات وفى الجمعية العمومية والمجلس العرفى الوطنى بعد ذلك .

ويظهر أن السياسة لم تكن كل شىء فى هذا البيت العجيب . فلقد كانت مدام رولان كما أسلفنا امرأة حسناء ، ولكنها لم تكن تحس نحو زوجها أكثر من عاطفة احترام كسبها بصفاته الفاضلة ، فكان قلبها خلواً من حب يعمره ويغذى تلك الطبيعة الفوارة المتأججة . وكان من بين أولئك الشبان فتية لدان العود اكتملت فيهم إلى جانب الفضائل الوطنية مزايا الجمال والرجولة والذكاء ، فلا عجب إذا صادفوا فى ذلك القلب البكر تربة صالحة لعواطفهم ، وفى ذلك الصدر الحنون وسادة طرية لرؤوسهم الملتهبة بنار الحب ونار السياسة ونار المغامرات .

ومن ثم نشأت بينها وبين بعضهم علاقات هوى برىء لا تخدش عفاف المرأة ولا تؤذى شرف الرجل إلا بالقدر الذى يفهمه الناس من ظواهرها ،

والظواهر خداعة طالما غررت بالعقول . ولقد فطر الناس على إساءة الظن بكل علاقة تجمع بين امرأة ورجل مهما كان نوعها ، فذهب الخصوم والحاسدون يؤولون علاقة مدام رولان بأصحابها أسوأ تأويل ويفسرونها بما سولته لهم أنفسهم من التفسير . أما الزوج الحكيم الذى كان يريد أن يصل إلى الوزارة من فوق أكتاف أولئك الشبان المتحمسين فلم يكن ليرى فى كل ذلك أكثر من مخادنة بريئة وعبث لا عيب فيه .

وانقضت شهور على هذه الحال ثم تبدت فى الجو تباشير الأزمات الخطيرة ، وآن للأعاصير أن تهب وللزوابع أن تثور . فأولئك هم النبلاء المهاجرون يستثيرون أوروبا على فرنسا ، وتلك هى الملكة مارى أنطوانيت تتهم بالتآمر مع الدول الأجنبية بواسطة أخيها إمبراطور النمسا على غزو الوطن بغية قمع الثورة ودعم قوائم العرش المزعزعة ، وذلك هو الملك لويس السادس عشر يأبى الموافقة على إبرام التدابير الصارمة التى تقترحها الجمعية العمومية ضد الأشراف والمهاجرين ورجال الكنيسة ، ثم ها هى تلك أوروبا تتحالف وتجهز الجيوش للقضاء على الثورة التى باتت نارها تهدد العرش فى فرنسا وتكاد تجاوزه إلى غيره من العروش . فهل تقف فرنسا مكتوفة اليدين أمام هذا الخطر المحيق بها من كل صوب ، أو تنتظر أن يفاجئها العدو باجتياز حدودها لتقاومه ، أم تبدأه هى بالحرب حتى لا تصبح أرضها ميدان قتال ؟

اختلفت آراء الأحزاب والزعماء فى الموقف الذى ينبغى أن تقفه

الحكومة ، وطال الاختلاف بينهم حتى كاد يفضى إلى فتنة داخلية . أما مدام رولان التى لا تعرف الحيرة والتردد فكانت توحى إلى أصدقائها الجيرونديين أن الحرب لا محالة واقعة ، نخير لفرنسا أن تكون البادئة بالهجوم . وكانت فى فرط بغضها للعرش وصاحبه تتفنن فى تكوين الأدلة التى تعزز رأيها وتغرى أصحابها بالأخذ به فتقول : إن الحرب تستوجب إعلان الحكم العرفى فى البلاد ، والحكم العرفى وسيلة لتطهير الأمة من الخيانة والخائنين . ثم إن الحرب ستكره الملك على تحديد موقفه ، فإما أن يتضامن مع شعبه فى صراحة وجلاء فتحبط مؤامرته مع العدو الخارجى ، وإما أن يتضامن مع العدو وبذلك يخلع برقع الرياء ويتجلى وجهه على حقيقته فيسقط ويسقط معه العرش والملوكية ونفوز بالجمهورية المبتغاة .

وكان الجيرونديون يتلقون الوحى من مدام رولان ويبثون فى الجمعية الوطنية نظرياتها وآراءها ويجرفون فى تيارهم عدداً كبيراً من الأعضاء المستقلين حتى سادت الأغلبيــة فكرة الحرب وبات ماثلاً فى الأفق أمام الأنظار .

ولقد هال الملك ما وصلت إليه الحال ، وآنست مارى أنطوانيت من الوزير ناربون ميلا إلى الأخذ بسياسة الجيرونديين وجنوحاً إلى الاستعداد للحرب ، وتأثرت الملكة بنصائح بطانتها ومستشاريها فألحت على الملك فى عزله ، واستسلم الملك لمشيئتها وعزل الكونت ناربون .

ولقد كان لهذه الإقالة وقع شديد على الجمعية الوطنية أخرج أعضاءها

عن حدود التحفظ والاعتدال ، فوقف الزعيم الجيروندى فرنيوه يفضح الأيدى الخفية التى تسيّر الملك ، والمؤامرات التى تدبر بين جدران القصر ضد سلامة البلاد فقال : « إننى من فوق هذا المنبر أسمع وأرى تلك الدسائس الخبيثة التى تؤثر فى رأى الملك وتضلله . ألا فليعلم ساكنو القصر أن الملك وحده هو صاحب الذات المصونة التى لا تمس ، وأن يد القانون ستمتد إلى كل من عداه من الأئمة والمجرمين ، مهما سما مقامهم ، وعلت مراكزهم . وليعلموا أيضاً أن كل رأس تثبت عليه تهمة الخيانة أو العبث بالصالح العام سيقاد إلى النطع ليلقى من سيف العدالة جزاءه الوفاق » .

وأدرك الملك مدى هذا التهديد الموجه إلى شخص الملكة ، ورأى الخير فى أن يحنى رأسه أمام العاصفة ، فأعلن أنه يقبل أن تتولى الحكم وزارة تختارها الجمعية الوطنية .

واتجه التفكير أول ما اتجه إلى تشكيل حكومة تضم أساطين أحزاب اليسار فيدخلها دانتون وروبسبيير وغيرهما من كبار اليعاقبة . ولكن مدام رولان — وهى امرأة ككل النساء تفكر بعواطفها — كانت هنالك توعز إلى أصدقائها الجيرونديين باحتكار كراسى الحكم وتنصيب من تحب وتنحية من لا تحب ، وتخشى إذا اشترك اليعاقبة فى الوزارة أن لا يبقى فيها محل لزوجها . ولقد تم لها ما أرادت وتألفت الوزارة من الجيرونديين وحدهم وفاز زوجها بنصيب الأسد إذ أسندت إليه وزارة الداخلية وكانت أهم الوزارات .

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن رولان كان وزير الداخلية بالاسم ، وأن الوزير الحقيقى كان مدام رولان ، فإن الوزراء الجدد لم يكادوا يتقلدون مناصبهم حتى استوت الزوجة إلى جانب زوجها تدير دفة الشؤون . وفى ذلك يقول باراس وهو من كبراء ذلك العهد : « قصدت يوماً إلى وزير الداخلية رولان لأتحدث إليه فى شأن يعنينى فألفيت امرأته فى مكتبه ، فلبثت أنتظر انصرافها لأبدأ حديثى ، وقد أحس الوزير منى ذلك فقال : « تستطيع أن تتكلم أمام زوجتى ، فهى ليست غريبة عن أعمال هذا الديوان » .

ويعلق باراس على ذلك فيقول أيضا : « والحق أن رولان هو الذى كان غريباً فى ديوانه لأن امرأته هى التى كانت تعمل كل شىء وتسير جميع الأمور ، فتعزل الموظفين الذين تأنس فيهم الميل إلى سياسة غير سياستها وتعين فى أمكنتهم أشخاصاً ينتمون إلى حزبها ، وتقرر السياسة العامة للوزارة وترسم الخطط فى أهم الشؤون . ولم تقف سيطرتها عند هذا الحد فقد كانت تترأس الجلسات التمهيدية التى يعقدها الوزراء للتفاهم على المسائل قبل أن ينعقدوا بصفتهم مجلس الوزراء » .

وكان طبيعيا أن يحدث إقصاء دانتون وروبسبيير عن الحكم أثره السىء فى نفوس اليعاقبة الذين عرفوا من أين هبت عليهم الريح ، فأسروها فى قلوبهم عداوة لمدام رولان ، وانطلقوا فى الأندية والمحافل يندون بتلك المرأة « التى تسير عقول الجيرونديين وهى ساكنة فى قلوبهم » ،

ويسخرون من تلك الوزارة « التى ليس فيها إلا رجل واحد وهو مدام رولان ... » .

ولقد ظن الملك أن هذه الثغرة فى صفوف أعدائه كافية ليدخل منها إلى الصميم من كيانهم فيضربهم الضربة القاضية ، فلم يشأ أن يصبر ريثما تفعل الإحن والحزازات فعلها فى النفوس ، وتحدث الأغراض الشخصية أثرها فى سير المسائل العامة ، وتدور رحى الحرب بين فريقى أعدائه فيتناحرا ، ويكفيه الله القتال ، بل تعجل وتسرع فى التدخل وأقال الوزارة بعد أن أهان بعض أعضائها إهانة بالغة أوغرت صدور الجميع عليه .

وسرعان ما أدركت أحزاب اليسار مدى الخطر الذى يتهددها ، فأجمعت كلها ووحدت أمرها وصارحت الملك بالعداء ، فكانت الثورة المشهورة بثورة ١٠ أغسطس التى دكت العرش دكا وانتزعت لويس السادس عشر من فوقه وطوحت به وبأسرته إلى السجن ثم إلى المحاكمة والإعدام .

وظنت مدام رولان أن الأمر قد استتب لحزبها وأن نفوذها قد اكتمل بسقوط الملك والملكية والملوكية وباتت تمنى نفسها بحكم البلاد مستترة وراء أصدقائها الجيرونديين . بيد أن الجمعية الوطنية خيبت آمالها إذ أعادت الوزراء المعزولين ومن بينهم زوجها بعد أن ضمت إليهم الزعيم دانتون الذى كانت تبغضه حتى لتتقزز منه نفسها الحساسة وتتأذى من رؤيته عيناها الجميلتان .

وأحس دانتون منها هذا النفور ، وعز على كبريائه أن تقصيه تلك المرأة

عن حظيرتها ، وأن تعامله شيعتها فى السياسية معاملة الدخيل ، فقابل جفوتها بجفوة أشد منها، وبيّت لها فى نفسه حقداً لاهوادة فيه ولا رحمة ، وأقسم ليرسلنها إلى النطع أو لترسلنه إليه . وأثار عليها الأندية السياسية والصحافية واستعان فى الحملة عليها بالوحش « ماراه » الذى لم يكن لدمامة وجهه سبيل إلى قلب الزعيمة الحسناء ، وبروبسيير الذى كان يتشدد فى التمسك بالفضائل حتى لتأبى عليه نفسه إشراك النساء فى شأن من الشؤون . وهكذا هبت الزوبعة على الزوجين عاصفة عنيفة لا تبقى على سياسة ولا عرض ولا شرف . فتناولت الصحف ضعف الزوج وفناءه فى امرأته بأقذع المطاعن وتناولت الزوجة وعفافها بأفحش المثالب ، وهكذا ألفت مدام رولان نفسها هدفاً لسهام الأحزاب والأندية السياسية كلها ماعدا شرذمة الجيرونديين الذين لم تزدهم تلك الحملات إلا تعلقاً بها وولاء لشخصها .

وفى شهر سبتمبر من تلك السنة حدثت بباريس فتنة انطلقت فيها غرائز الدهماء من عقال النظام والقانون فهاجمت الجماهير النبلاء ورجال الدين فى سجونهم ، ونصّب الأوشاب أنفسهم قضاة وجلسوا ليحاكموهم ، فكانت فى كل سجن مذبحة أزهقت فيها آلاف من الأرواح وخربت القصور ودمرت المعابد ونهبت المتاجر ، وجل الخطب وعم البلاء ، وانتشر الذعر ، ولم تكتب السلامة إلا لمن تحصن فى بيته أو هجر العاصمة ملتمسا النجاة فى الريف أو وراء الحدود .

ولقد عظم وقع تلك المذابح على النفوس وروع أنصار النظام والاعتدال

من هذه الفوضى وأحسوا أن الثورة تنحرف عن الجادة المثلى وتتجه نحو الوسائل العنيفة والأساليب غير المشروعة ، فهب الجيرونديون ينوهون بفظائع اليعاقبة ، ونهضت مدام رولان تتهم دانتون وأنصاره بتدبير الذابح المنكرة وتصرح لمن يريد أن يسمع بأن الثورة التى طالما أحبتها وفاخرت بالضلع الذى كان لها فيها قد أصبحت سبة لفرنسا وعاراً على القائمين بها ، وجعلت تكتب لأصحابها : « ان اليعاقبة المشائيم قد أفسدوها وحولوها عن أغراضها السامية وجعلوها أداة فتنة ملطخة بالمناكر والأقذار » ثم انطلقت تشن الغارة على باريس وتصفها بأنها المدينة المجرمة الدامية وتحض أصدقاءها على إثارة الأقاليم عليها لإنقاذ الثورة من الطغاة المتحكمين فيها .

وفى تلك الأثناء كانت الدورة التشريعية للجمعية الوطنية قد انتهت وحان وقت الانتخاب للهيئة النيابية الجديدة التى سميت « المجلس العرفى الوطنى » فتذكر أهل باريس للجيرونديين تحاملهم عليهم ورميهم مدينتهم بأقبح النعوت ، فأعرضوا عن جميع مرشحيهم ولم ينتخبوا منهم أحدا . وإذا كانت الأقاليم قد عوضتهم أضعاف أضعاف ما خسروه فى العاصمة وأرسلت منهم ١٦٥ نائباً يمثلونها فإنهم ظلوا أقلية فى ذلك المجلس الذى كان عدد أعضائه ٧٥٠ عضوا .

ولقد دلت نتيجة الانتخابات على اتجاه الشعب نحو الثورة العنيفة المتطرفة إذ أسفرت عن نجاح أكثر من ثلاثمائة من اليعاقبة دعاة الطغيان والإرهاب ، فلم يكن أمام الجيرونديين وهم ممثلو الرأى المعتدل وأصحاب

سياسة التهدئة والتعقل إلا أن يتركوا مقاعد اليسار للحزب المتطرف الجديد ويحتلوا مقاعد اليمين . وليس معنى ذلك أن الجيرونديين نزلوا عن مذهبهم فى الثورة ولا عن آرائهم فى الجمهورية ، وإنما معناه أنهم أرادوا أن يحققوا آمال العقلاء والمتزنين فيهم فيوجهوا الثورة نحو أغراضها الحقيقية بوسائل بعيدة عن الظلم والبطش والإرهاب إلا بالقدر الذى تقتضيه الظروف على أن يكون هذا وذاك فى حدود القانون .

ووقف الحزبان : الجيرونديون واليعاقبة ، وجها لوجه . ولم يكن ثم مندوحة عن أن ينشب بينهما النضال ، فالأولون يرمون اليعاقبة بأنهم قتلة سفاحون يريدون الثورة على أن تكون فتنة عمياء تؤدى إلى الحرب الأهلية وما تجره الحرب الأهلية من الخراب . وهؤلاء يرمون الجيرونديين بالرجعة والتنكر للمبادئ والحنث بالعهود ويقولون إن مدينة باريس هى التى قامت بالثورة وتعهدتها ولا تزال تقودها ، فمن حارب باريس فقد حارب الثورة ومن نقم عليها فقد نقم على الثورة ، ومن استعدى الأقاليم على العاصمة فقد دعا إلى تفكك الوحدة الوطنية ونشوب الفتنة الداخلية فى البلاد .

وتوالت الأحداث سراعا وتألبت أوربا على فرنسا ومثل شبح الحرب فى الجو مرة أخرى وأيقنت الحكومة الفرنسية أن لا بد من مواجهة العدو فى ميادين القتال ، ورأى اليعاقبة أنه لايتسنى لبلد حكومته غير متجانسة وأحزابه غير متفقة والدسائس والمؤامرات تفعل فعلها فيه أن يواجه حربا

كالتى تهدده فاقترحوا إنشاء حكومة عرفيـة تستجمع فى يدها جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية وقيام محكمة عرفية إلى جانب هذه الحكومة تكفل سرعة الإجراءات وصرامة العقوبات وتقى الوطن غائلة أعداء الداخل لتنصرف كل القوى إلى مكافحة العدو فى الخارج . وتقدموا بمشروع يقضى بحل الهيئة التنفيذية القائمة (مجلس الوزراء) لتستبدل بها هيئة أخرى تسمى « لجنة الإنقاذ العام » وبإنشاء المحكمة الثورية على أن يعفى قضاتها من قيود قانونى المرافعات والعقوبات .

ورأى الجيرونديون فى النظام الذى يقترحه خصومهم دكتاتورية هائلة لا تتفق والمبادىء السمحة التى قامت عليها الثورة فعارضوه معارضة شديدة وقاوموا تحقيقه بكل ما وسعهم من الوسائل . ولكن كان مالم يكن منه بد ، وقام النظام الجديد وأنشئت لجنة الإنقاذ العام والمحكمة الثورية . وما دام الجيرونديون قد عارضوا فى إقامته فقد أقصاهم خصومهم عنه وانتخب جميع أعضاء اللجنة وقضاة المحكمة من غير الجيرونديين . وقد جرت سنة السياسة على أن نظاماً عرفياً يقام فى ظروف ثورية بالرغم من إرادة حزب معارض ، لا يمكن إلا أن يصبح أداة لاضطهاد هـذا الحزب يوما من الأيام .

ولا يتسع المجال أمامى هنا لأحدث القارىء عن النضال الذى ظل ناشباً بين اليعاقبة والجيرونديين طيلة ثمانية شهور . وحسبى أن أقول إن هؤلاء لبثوا متأثرين بعواطف صديقتهم مدام رولان ، يميلون حيث تميل

ويخاصمون من تخاصم ، وإن حملتهم على ماراه ودانتون قد استعر أوارها حتى لم تدع سبيلا إلى صلح أو مهادنة أو توفيق ، وإن هذين الزعيمين المسموعى الكلمة النافذى الرأى فى المجلس العرفى الوطنى وفى لجنة الإنقاذ ، شعرا أن لاطمأنينة لهما ولا سلام ما دام الجيرونديون على قيد الحياة ، فأخذا يدبران مع أعوانهما والذاهبين مذهبهما أمر إعدام أولئك الخصوم .

بيد أن ظرف خطر الحرب وخطر الفتنة الداخلية أوحى إلى دانتون يوما أن مصلحة البلاد تقتضى اتحاد الأحزاب وتآلفها لمواجهة المشاكل الداخلية والخارجية ، فسعى إلى الصلح مع الجيرونديين بوسائل شتى ، وعقد فى سبيل هذه الغاية بضعة اجتماعات ووسّط بعض ذوى الحيثيات ، فلما لم تفض مساعيه إلى نتيجة مرضية ، وقف على منبر المجلس الوطنى وناشد الجيرونديين نسيان الماضى والصفح عما فات وقال : « هذه يدى أمدها إلى خصومى وأعدائى لنتعاون جميعا على خدمة الوطن » ولكن الجيرونديين ، بدلا من أن يصافحوا تلك اليد الممتدة إليهم ، وبدلا من أن يتناسوا أحقاد الساعة أو يرجئوها إلى حين ، هب أحدهم واسمه « جواديه » وصاح : « لقد نقبل كل شىء ونرضى بكل شىء ، أما أن نضع أيدينا الطاهرة فى أيدى القتلة والمجرمين فمستحيل » .

ونزلت هذه الكلمات كاللطمات على وجه دانتون فاضطربت حدقتاه فى عينيه وامتقع وجهه وأشار بيده إلى مخاطبه وصاح : « يا جواديه ، إنكم لا تريدون أن تغفروا ولا أن تنسوا ، فالويل لكم ، إنكم ستهلكون » .

وفى اليوم التالى وقف دانتون الجبار فى المجلس العرفى يتهم الجيرونديين صراحة بالخيانة العظمى ويزعم أنهم ما أفتوا بإعدام الملك لويس السادس عشر إلا تحت تأثير الخوف من الرأى العام ، وأنهم حاولوا إنقاذ حياته بعد الحكم عليه بالتصويت لوقف التنفيذ . وتلاه الوحش ماراه فرماهم بتهمة التآمر على أمن الوطن وسلامة الجمهورية وإثارة الأقاليم على العاصمة بغية إيقاد نار الحرب الأهلية وإحباط الثورة . وأعقبهما روبسبيير فقال بوجوب تطهير البلاد من الخونة الذين يتظاهرون أمامها بالحب والوطنية وهم يضمرون لها السوء والبغضاء ، وطالب بإحالتهم جميعاً إلى المحكمة الثورية ليلقوا جزاء ما اجترموا فى حق الوطن من الآثام .

ولقد عز على المستقلين من أعضاء المجلس أن يجيبوا طلب اليعاقبة بإحالة المتهمين إلى المحاكمة وأن يحرموا البلاد زهرة نوابها وخيرة ممثليها . ولكن تعسر عليهم فى الوقت نفسه أن يصموا آذانهم عن رغبات أهل العاصمة ورجال السلطات البلدية الذين كانوا يأبون إلا هلاك الجيرونديين ، فأوعزوا إلى نواب الجيروندة بالاستقالة من عضوية المجلس لتهدأ ثائرة خصومهم ولا يبقى بعد ذلك مجال للاتهام والمحاكمات .

ولو أدرك الجيرونديون حقيقة الموقف لارتضوا هذا الحل الذى يصون حياتهم ويجعلهم بمنجاة من نقمة أعدائهم . ولكن أنى لأولئك الشعراء التائهين فى بيداء السياسة أن يتبينوا وراء الظواهر البريئة تلك الأغراض الخفية التى تستتر وراءها ، أو يستشفوا من خلال الغيم المربد

تلك الزوبعة التى سوف لا تبقى منهم ولا تذر ؟

ظن الجيروندبون أن لا خوف عليهم من المحاكمة لأن لهم من ماضيهم وحاضرهم ما يضمن براءتهم ويخرجهم من موقف الاتهام ظافرين منتصرين . وزينت لهم خيالاتهم أن هذه المحاكمة فرصة متاحة يظهرون فيها ما قدموه للجمهورية وللثورة من جليل الخدمات ويوازنون بين أشخاصهم وأشخاص خصومهم فى ميدان الوطنية والمبادىء وخدمة الصالح العام . لذلك أبوا أن يستقيلوا وأن يبرحوا مقاعدهم النيابية ، وقال قائل منهم : « لقد أقسمنا أن نؤدى واجبنا وسنؤديه حتى النهاية » وأكبر المستقلون فيهم تلك العزة وذلك الشمم ولكنهم أدركوا أنهم لامحالة واقعون فى أحد أمرين : إما أن يماشوا اليعاقبة ويرسلوا إلى المقصلة أولئك الفتية الغر ليردوا حياض الموت ، وإما أن يعارضوا اليعاقبة وهم أقوياء الساعة والمسيطرون على الموقف فيعرضوا أنفسهم لنقمتهم، وما نقمة اليعاقبة بالشىء القليل . لم يبق إذن إلا أن ينجوا بأنفسهم من هذا الموت العسير ، فأخذوا يتسللون من قاعة الاجتماع وينصرفون فرادى ليتسع الوقت أمامهم يدبرون فيه طريقة الخلاص لإخوانهم الجيرونديين . لكنهم ما كادوا يجتازون الأبواب الخارجية حتى وجدوا الجنرال هانريو قائد جيش الثورة وصنيعة اليعاقبة يسد أمامهم الطريق ، وقد حاصر دار المجلس وصوب مدافعه إليها ، فعادوا أدراجهم وأفضوا بما رأوا إلى بقية الأعضاء .

ولم يكن الجيروندبون والمستقلون على علم بهذه المؤامرة التى دبرها دانتون وماراه وروبسبيير . فلما فوجئوا بنبأ حصار الدار احتجوا أشد الاحتجاج وطالبوا بأن يخرج المجلس بكامل هيئته حتى يقف الجيش عند حدود الاحترام الواجب لأكبر هيئة تشريعية فى البلاد . وخشى اليعاقبة إذا هم رفضوا هذا الاقتراح أن تفتضح مؤامراتهم فلم يأبوا الخروج معهم ، وسارت هيئة المجلس كاملة وفى مقدمتها الرئيس هيرو دى سيشيل . ولكنهم لم يبلغوا ميدان الكاروزبل حتى اعترضهم القائد هنريو وجيشه ، فابتدره الرئيس قائلا : « ما هذا الذى تفعل يا هنريو ؟ » قال : « أنفذ إرادة الشعب » فقال الرئيس . « وما الذى يريده الشعب ؟ » فأجاب : «إن الشعب يا هريو لا يريد كلاما وإنما يريد رؤوس الأربعة والعشرين خائنا الذين يدبرون شقاءه ويتآمرون مع العدو عليه » ثم التفت إلى رجال مدفعيته وقال : « إلى مدافعكم أيها الفتيان »

يا حيرة القلم فى وصف تلك الثورة التى ما نطوى من تاريخها صفحة خزى إلا لنفتتح صفحة أخرى ، وياحيرة المؤرخ فى تكييف تلك المآسى والمهازل والشناعات ترتكب باسم الحرية والإخاء والمساواة !

عاد الأعضاء إلى مقاعدهم وقد أملت عليهم القوة الغاشمة ما يجب أن يفعلوه ، فارتقى النائب كوتون صديق روبسبيير المنبر وطلب إصدار مرسوم بالقبض على الخونة . وتلاه ماراه الوحش وقرأ الثبت الذى يحوى أسماءهم ، ونهض وروبسبيير الرهيب واقترح قفل باب المناقشة وأخذ الرأى . ولقد

صوّت اليعاقبة للقبض والمحاكمة وامتنع المستقلون عن التصويت وجلسوا معتمدين رؤوسهم بين أيديهم خجلا من موقفهم المهين . واستولى الجنود على الجيرونديين الموجودين بقاعة الجلسات وكان كثيرون منهم قد نجوا بأنفسهم قبل صـدور القرار وغادروا المجلس متفرقين ثم لاذوا بالفرار إلى الريف .

وعندئذ سمح هاريو لرجال المجلس الوطنى بالانصراف فانصرفوا أذلاء منكسى الرؤوس يحملون خزيهم فوق أكتافهم ويود كل منهم لو تنشق الأرض وتبتلعه فيتقى نظرات الجماهير الهازئة وبسماتها الساخرة .

وفى الرابع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٣ كان واحـد وعشرين نائبا من حزب الجيروندة يحتلون مقاعد المتهمين فى المحـكمة الثورية ، بينما كان أخوانهم قد لجأوا إلى الأقاليم يستثيرونها على العاصمة ويستعدونها على المجلس الوطنى فلم يفلحوا إلا فى إثارة فتنة محلية غير ذات بال لم تلبث السلطات حتى أخمدتها ، وإلا فى تسليح يد الفتاة شارلوت كورداى بالخنجر الذى طعنت به صدر ماراه فأردته قتيلا .

وافتتحت جلسة المحاكمة ووقف المدعى العام فوكييه تانفيل يتلو ورقة الاتهام فإذا هى لا تخرج عن حد كونها صدى للتهم التى صاغها دانتون وروبسبيير للجيرونديين ، وقد أضاف إليها تهمة من عنده تبرع لهم بها وهى أنهم صنائع البروسيين ومأجورو الإنجليز . ولم يفته أن يحملهم تبعة مصرع الزعيم ماراه .

وتقدم الجيرونديون إلى المحاكمة معتزين بوطنيتهم وبما أسلفوا فى خدمة الوطن وإذكاء شعلة الثورة ، ظانين أنهم أمام قضاء عادل نزيه يقدرهم أقدارهم ويعرف لهم ماضيهم وما كان لهم فيه من شأن عظيم ، ولكن تلك الغشاوة زالت عن أعينهم يوم تجلى لهم القضاء الثورى على حقيقته البشعة ورأوا هيرمان رئيس المحكمة يعرض عنهم بسمعه وبصره ولا يفسح صدره إلا لأقوال المدعى العام وشهود الإثبات .

عندئذ فقط أيقنوا أنهم هالكون ، وأن رؤوسهم ستسقط عن أكتافهم عما قريب . لقد عمدوا فى الدفاع عن أنفسهم إلى جهود هائلة وإلى أقصى ما أوتوا من قوة الحجة وفصاحة اللسان ، ولقد نجحوا أيما نجاح فى تفنيد التهم المعزوة إليهم ودحض مفتريات الشهود التى تراكمت عليهم . وأحس القضاة والمحلفون أن صرح الاتهام ينهار وأنهم إزاء أبرياء لا شك فى براءتهم . وأحس فوكييه تانفيل أن قضيته خاسرة ، وأدرك اليعقوبيون أن أعداءهم سيفلتون من براثنهم ، فجعل الزعيم اليعقوبى ايبير يكتب فى صحيفته : « ما للقضاة يتلكؤون ويتلومون كلما تعثروا بمسألة تتعلق بالشكل والاجراءات ؟ لقد حكمت الأمة على أولئك الأئمة فما على القضاء إلا أن يسجل حكمها وينصرف بسلام » وهرع روبسبيير إلى لجنة الإنقاذ العام فاستصدر منها قانونا ينص على أنه إذا طالت المرافعات فى قضية من القضايا أكثر من ثلاثة أيام فلرئيس المحكمة أن يسأل المحلفين

هل استنارت أذهانهم واستراحت ضمائرهم ، فإذا أجابوا بنعم وجب وقف المرافعات وجاز للمحكمة أن تحكم فى الموضوع .

ولقد كانت المحكمة فى أمس الحاجة إلى هذا القانون الذى ينقذها من موقفها الحرج . فما إن تسلمته من يد المدعى العام حتى أعلن المحلفون بلسان رئيسهم أن هيئتهم قد استنارت وضمائرهم قد استراحت فأمر الرئيس فى الحال بالاستغناء عن سماع شهود النفى وأقوال الدفاع . واختلى المحلفون للمداولة برهة ثم عادوا فأفتوا بأدانة المتهمين . وطلب فوكييه تانفيل تطبيق عقوبة الموت فصدر حكم المحكمة بإعدامهم جميعاً .

ولقد كان لهذا الحكم وقع مختلف المظاهر على أولئك الشبان . فلقد تقبله فرنيوه بجأش رابط ولم ينطق بكلمة . أما جانسونيه فلم ينس أنه محام ونهض يطلب الكلام للاعتراض على التطبيق القانونى ، ولكن ذهبت كلماته هباء فى وسط الضوضاء . ورفع بوالو قبعته فى الهواء وصاح : « نحن أبرياء وإنهم يخدعونك أيها الشعب » . وحانت من فرنيوه التفاتة إلى جاره دوفريش فوجده ممتقع اللون وقد مال رأسه على صدره ، فهمس فى أذنه : « أخائف أنت يا صاح ؟ » فرفع دوفريش جفنيه وقال : « ما بى حاجة إلى المواساة فقد انتهيت » ونظر فرينوه فإذا شىء يلمع فى صدر صاحبه ، وإذا هذا الشىء خنجر كان الرجل قد استله من جيبه وأغمده فى قلبه ، ثم لم يلبث لحظات حتى سقط ميتاً تحت الإقدام .

وكان الليل قد انتصف والمشاعل ترسل ضوءها الباهت على هذا المنظر

الرهيب ، وقد وقف جمهور النظارة مروعا مشدوها كأن على رأسه الطير . وخشى القضاة أن يعقب هذا الوجوم انفجار لا يعلم مداه ، فرفعوا الجلسة وأمروا الحراس باقتياد المتهمين ، وعندئذ تعثر أحدهم بجثة دوفريش فرفعها بين ذراعيه وعرضها على المحلفين . وكأنما عز على فوكييه تانثيل أن يفلت أحد زبائنه من يده ليموت ميتة مختارة ، فأصر على أن ينفذ الحكم فيه . وعندما قادوا المحكوم عليهم إلى ساحة الإعدام جعلوا بينهم جثة النائب المنتحر ، حتى إذا جاء دوره فى الترتيب حملوه فوق المقصلة ففصلت السكين رأسه عن الجسد . ولعمرى إذا كان إعدام الجيرونديين فى نظر التاريخ جريمة فإن قتل جثة دوفريش عار تمتاز به تلك الجريمة .

* * *

أحست مدام رولان منذ قبض على أصدقائها أن حياتها فى خطر وأن الأعداء يتعقبونها بحقدهم ، وازدادت يقيناً بهذا الخطر عندما صدر قرار المجلس الوطنى بالقبض على زوجها تمهيداً لمحاكمته هو أيضاً على تهم من النوع الذى لفقوه لزملائه . ولقد كان فى استطاعتها أن تحذو حذو زوجها فتفر وتنجو بنفسها ، ولكن يظهر أن النكبة التى نزلت بأصحابها وأحبائها ، والفشل الذى منيت به سياستها وآمالها ، والمصير المحفوف بالمخاطر الذى كان ينتظر البقية المشردة من أولئك الشبان الأمجاد ، يظهر أن كل ذلك زهدها فى الحياة ورغبها عنها وجعلها تمكث حيث هى فلا تحاول هربا ولا تلتمس فرارا .

وكان ما توقعت إذ أمرت السلطات بالقبض عليها وتقديمها إلى المحكمة الثورية بتهمة الاشتراك مع زوجها وغيره من الذين ثبتت خيانتهم ، وبتهم أخرى من تلك التى كان فوكييه تانقيل يحسن تكييفها وصياغتها ، كالتعريض برجال الدولة وتسوىء سمعة الثورة والتشهير بعاصمة الجمهورية وما إلى ذلك من العبارات المبهمة المطاطة التى لا تفيد شيئا معينا ولكنها كفيلة بإرسال المتهم بها إلى المقصلة .

ولقد حاولت أن تدافع عن نفسها أو تدفع الإهانات التى وجهت إلى شرفها وعرضها ، ولكن القضاة قطعوا عليها سبيل الكلام وحكموا عليها بالإعدام ، فقابلت الحكم بجنان ثابت وصاحت فى وجوههم : « أما وقد رأيتمونى جديرة بأن أشاطر أولئك الرجال العظام الذين قتلتموهم مجد منيتهم وعظمة نهايتهم وأن أسير بعدهم فى الطريق الذى شقوه لأنفسهم إلى الخلود فإنى سألقى الموت شجاعة كما لقوه » .

وكانت قد اغتنمت أوقات فراغها فى السجن فدونت مذكراتها فجاءت هذه المذكرات تحفة فى الأدب والتاريخ قمينة بالتأمل والتفكير فياضة بالعبر والعظات ، فلما صدر الحكم وعادت من المحكمة إلى السجن تناولت القلم وخطت السطر الأخير منها وهذا نصه : « افتحى لى صدرك أيتها الطبيعة واحتوينى ، ويا أيها الإله الرحيم خذنى فى جوارك » .

وفى اليوم التالى ذهبوا بها إلى ساحة الإعدام فسارت إليها هادئة باسمة تحيى الجماهير من فوق مركبتها وتومىء إلى الذين تعرفهم إيماءة الوداع .

فلما بلغت تمثـال الحرية المنصوب فى ميدان الثورة رفعت صوتها عاليا وصاحت صيحتها الشهيرة التى أثرت عنها : « أيتها الحرية ! ما أكثر ما يرتـكب باسمك من الآثام » .

وكان زوجها رولان قد اختفى فى مدينة روان ولبث مختبئا أشهرا طويلة ، فلما علم موت امرأته غادر مخبئه وهام على وجهه فى الفلاة . ويظهر أن خيبة آماله والـكوارث التى أثقلت كاهله ازهدته هو أيضا فى الدنيا . ففى صباح اليوم التالى لإعدام مانون وجده بعض الفلاحين ملقى على وجهه فى حقل ، فلما حركوه ألفوه جثة هامدة ووجدوا فى يده المقفلة ورقة مطوية كتب عليها : « لم أطق الصبر على حياة فى أمة لم يبق فيها أثر من المبادىء السامية التى عشت لتحقيقها ، فأنا أموت راجيا أن يقدر لبلادى أن تزيح عن صدرها ذلك الـكابوس الذى يخنقها وأن تثور يوما على المظالم التى ترتـكب فيها باسم الحرية والإخاء والمساواة فتحيا حياة حرة سعيدة » .

نبيٌّ في جمهوريّة الشّياطين

فى اليوم الثانى من شهر سبتمبر سنة ١٧٩٢ اجتمع ناخبو إقليم « باديكاليه » لينتخبوا خمسة نواب يمثلونهم فى المجلس الوطنى الذى عرف فى عهد الثورة الفرنسية الـكبرى باسم: La Convention Nationale .

وفى انتظار انعقاد لجنة الانتخاب وابتداء عملية التصويت ، لم يجد المجتمعون ما يقطعون به الوقت إلا الخطابة والاستماع إلى الخطباء . وإذ كانت الثورة وقتئذ على أشدها ، والرءوس تغلى حقداً على الاستبداد والمستبدين ، والقلوب تخفق طرباً لذكر الحرية وشهدائها ورسلها ، فقد ارتأى أحد المتكلمين أن يجعل موضوع خطبته سيرة رجل انجليزى اسمه « توماس باين » Thomas Paine .

ولا شك أن جمهرة المستمعين لم تـكن تعلم عن توماس باين شيئاً ، كما أن سيرة هذا التوماس باين لم تـكن لتهم أحداً منهم فى شىء ، لذلك أعرضوا عن الخطيب وحاولوا بشتى الوسائل أن يصرفوه عن هذا الحديث ، ولـكن صاحبهم كان ثرثاراً من الذين إذا فتحت ميازيب أفواههم لا تقلع حتى ينضب معين الـكلام ، فاسترسل فى حديثه غير آبه لمقاطعة القاطعين ولا لإعراض المعرضين .

ولو شاء القوم أن يستمعوا إلى خطيبهم لفهموا أن الرجل الذى يتحدث

عنه إنما هو فيلسوف إنجليزى كان معاصراً لهم ، وقد استولت عليه منذ الصغر أوهام وخيالات جعلته يرتجل من نفسه رسولا يدعو إلى الحرية والمساواة والإخاء ، وأن آراء مفكرى القرن الثامن عشر قد تمكنت من عقله حتى نصب نفسه نبياً من أنبياء الديمقراطية المتطرفة فصار يبشر بإلغاء الفواصل بين طبقات الشعب الواحد ، وبالتالى بين طبقات الإنسانية جمعاء حتى لا يبقى فى الدنيا غنى وفقير ولا سيد ومسود ، ولعلموا أيضاً أن هذا الفيلسوف الفج لم يكتف بإنجلترا ميداناً لرسالته ، فارتحل إلى أمريكا ليؤذن فيها بمذهبه ، وليدعو أهلها إلى اعتناق مبادئه ، وأنه لقى من الأمريكيين ترحيباً لا بأس به ، وإقبالا شجعه على التمادى والاسترسال ، فنشر فى عام واحد كتابين سمى أحدهما « حقوق الإنسان » وسمى الآخر «منطق البشر» واعتبرهما دستوراً للهيئة الاجتماعية لو قبلته وطبقت أحكامه لوفرت على نفسها كل الآلام والشرور التى أنتجتها التقاليد المتبعة والنظم القائمة .

ولقد أفاض الخطيب فى الإشادة بمناقب الفيلسوف فذكر أنه رسول من رسل الحرية لاقى فى سبيل دعوته مالاقاه السالفون من الرسل . فلقد اضطهدته حكومة الملك جورج الثالث أيما اضطهاد ، وصادف من حماقة الجماهير ما صادفه دعاة الإصلاح من قبل ، فسجن وعذب واستهدف مراراً للموت ومراراً لأحكام الإعدام . واستطرد الخطيب فى حماسة واندفاع فقال إن الشعب الإنجليزى المعروف بالبلادة والتمسك بالقديم لم يعرف

الرجل قيمته ولم يقدر قدره بل أنزل به شتى صنوف الإهانة والتحقير حتى لقد كانت الجماهير تضربه فى الميادين كلما لقيته ، وتجره من ساقيه فى الأوحال .

وخرج الخطيب المتدفق من كل ذلك إلى أن لا كرامة لنبى فى وطنه ، وأن ما أصاب توماس باين مقـدر من قديم الأزل على الهداة والرسل والمصلحين ، وأن العقلية البشرية الجامدة لا تقلع عن قديمها الذى ألفته إلا مضطرة بحكم الظروف أو مكرهة على تقبل الجديد ، وأن الوقت قد حان لإطراح المبادىء العتيقة والمذاهب البالية ، وللأخذ بالتعاليم السليمة التى ينشرها ويبشر بها توماس باين .

بيد أن جمهور الحاضرين كان فى شغل عن الخطيب الثرثار والنبى المجهول بما هو أهم وأجدى . فلقد كان عليهم أن يبحثوا مشكلة أثارتها الحكومة الثورية بلا مبرر ولا سبب ، وهى اعتزامها نقل مقر الإدارة من مدينة آراس إلى مدينة آير وجعل هذه عاصمة لإقليم باديكاليه . فلما تألفت لجنة الانتخاب وأخذت تباشر عملها ، كان النقاش دائراً حول هذا الموضوع الخطير ، بينما كان الخطيب مسترسلا فى بلاغته يصبها وابلا على تلك الآذان التى لا تريد أن تصغى إليه .

جرت عملية الانتخاب لاختيار النائب الأول من الخمسة الذين سيمثلون الإقليم ففاز روبسبيير بأربعمائة واثنى عشر صوتاً من سبعمائة وأربعة وثمانين ونجح . وكذلك نجح بعده كارنو ثم دوكينواه . فلما جاء دورجوفروا المرشح

للكرسي الرابع حمل عليه خصومه حملة عنيفة صرفت عنه أصوات الناخبين ففاز عليه مزاحمه المدعو لوباه . ولكن جوفروا لم يرض بالهزيمة بل تحدى خصومه مرة أخرى مرشحاً نفسه للكرسي الخامس الذى لم يزاحمه فيه سوى مرشح نكرة مشكوك فى نجاحه . وإذ خشى خصوم جوفروا أن يفوز على هذا المزاحم الضعيف ، أخذوا يبحثون عن مرشح قوى يضمونه أمامه فى الكفة الأخرى من الميزان . فلما أعياهم البحث ولم يهتدوا ، وقف أحدهم واقترح ترشيح مستر توماس باين الذى حدثهم عنه منذ لحظة ذلك الخطيب الثرثار

وهنا تعوزنى كل فلسفة الدكتور جوستاف لوبون فى تحليل طبائع الجماعات ، وآراؤه فى العدوى الفكرية وسرعة انتشارها بين الجماهير ، ونظرياته فى الفرق بين عقلية الفرد منفرداً وعقليته مجتمعا ، وشروحه المسهبة لتلك الطوارىء المفاجئة التى تطرأ على تفكير الجماعات فى الساعات الحرجة فتوجه تفكيرها وحركاتها فور اللحظة توجيهاً غير متوقع وغير معقول . نعم يعوزنى هنا كل ذلك لأفسر هذا الأثر المدهش الذى أحدثه ذلك الاقتراح العجيب فى عقول الحاضرين ، ولأعلل به تحزب أكثرية الناخبين ذلك التحزب المفاجىء لرجل كانوا منذ هنيهة يجهلون اسمه ووجوده وما زالون يجهلون منه كل شىء جملة وتفصيلا . فما إن عرض المقترح اقتراحه حتى هب لمعاضدته الكثيرون ، واندفع بعضهم يؤيد « رسول الحرية العامل

على إسعاد بنى الإنسان ، والـكفيل بإنارة الطريق أمام العاملين ، الزعيم بإرشاد الفرنسيين إلى الخلاص من ربقة الإستبداد والمستبدين » .

وكان أخذ ورد وجدال ونقاش ، وتأييد من هنا وتسفيه من هناك . وما دام دستور الثورة لم يحتط لمثل هذا الشذوذ فليس ثم ما يحول دون انتخاب أجنبي ليمثل فريقا من الفرنسيين . ثم دارت عملية التصويت مرتين فلم يفز أحد المرشحين بأغلبية ، ثم دارت مرة ثالثة فإذا مستر توماس پاين ينتخب بأغلبية تفوق بستة أصوات تلك التى انتخب بها الزعيم الأكبر روبسبيير . أى نعم ! انتخب توماس پاين الإنجليزى نائباً عن شعب فرنسا فى المجلس الوطنى . ولمن يشاء أن يقول فى هذا الانتخاب العجيب ما يشاء ، فليس ذلك بمانع أن هذا الانتخاب كان وليد إرادة الأمة التى هى مصدر جميع السلطات .

ولـكن إذا كان الانتخاب قد تم على خير أو على هذا النوع من الخير ، فقد بقيت أمام القوم صعوبة لم يعرفوا كيف يذللونها ، وهى الطريقة التى يبلغون بها النـائب الجديد نبأ فوزه ويدعونه إلى المجىء لمباشرة مهمته النيابية . فبأى عنوان يكتبون إليه وهم لا يعرفون له عنواناً ، وإلى أى مدينة يوجهون الرسالة وهم لا يعرفون له مقراً ؟

تشاوروا فأشار بعضهم بالـكتابة إلى الفيلسوف الفرنساوى كوندورسيه الذى كان مقيما بلوندرة إذ ذاك ، وبتكليفه حمل النبأ إلى النائب المختار . وقال البعض الآخر : بل نوجه الرسالة إلى لوندرة حاملة إسم الرجل على غلافها ، ولا بد من أن تنتهى إليه لأن اسمه هناك أشهر من أن يجهله سعاة البريد .

وقد كان . ووصلت الرسالة إلى توماس پاين فى الوقت المناسب ، فلم يدهشه خبر انتخابه نائباً عن قوم لا يعرفونه ولا يعرفهم ، وفى بلد لم تطأ قدماه أرضه ، بل لم ير فى ذلك إلا عملا معقولا من شعب عاقل أراد أن يكون له من هداية نبى الديمقراطية نصيب .

ولبى الرجل متململا دعوة ناخبيه الذين التمسوا نيابته عنهم كما يلبى الطبيب الكبير فى منتصف الليل دعوة مريض محتضر التجأ إلى علمه وخبرته . وفى اليوم التالى كان فى ميناء دوڤر ينتظر قيام السفينة التى تقله إلى فرنسا ، وتقل إليها معه كنوز فلسفته وحكمته وديمقراطيته . ولكن الشعب الإنجليزى الذى لا تساعده عقليته على فهم هذا النوع من الديمقراطية ، ولا على تقدير عظماء الرجال ورسل الحرية ، لم ير فى انتخاب الفرنساويين مستر پاين إلا سخفاً جديراً بالسخرية ، ولم ير فى مستر پاين نفسه إلا دجالا قمينا بالتأديب .

والإنجليز كما هو معلوم ، قوم يؤثرون العمل المنتج على الكلام الأجوف . لذلك لم يقصروا إعلان رأيهم فى الفيلسوف المسافر على المناداة بسقوطه ولا على الهتاف بموته ، بل احتشدت جموع منهم على إفريز الميناء وأوسعوه لكماً بالأيدى وصفعاً بالأكف وركلا بالأرجل ورجماً بالحجارة ، ثم حملوه فى غيبوبته وقذفوا به إلى السفينة مرضوض العظام مهلهل الثياب مشيعاً باللعنات .

أفاق الفيلسوف من غيبوبته والسفينة تدنو من شواطىء فرنسا ،

فحمد الله على خلاصه من أيدى مواطنيه بتلك الرضوض والجروح ، وأخذ يسرح الطرف فى الأفق فيشاهد حصون مدينة كاليه وأبراجها وميناءها ، وجعل يرتب فى ذهنه برنامج أعمال الإصلاح التى سوف يقوم بها فى هذا البلد المضياف الكريم . ولكن ما إن اقتربت السفينة من المرسى حتى رأى الفيلسوف إفريز الميناء يموج بطوائف كثيفة من الناس تلوح بقبعاتها ومناديلها وعصيها ، وسمع دوى مدافع يتصاعد من البر مصحوباً بهتافات صاخبة ونداءات عالية .

ماذا ؟ أهو شعب كاليه الساخط على مقدمه قد جاء ليستقبله بمثل ما ودعه به مواطنوه ؟ وإذا صح أن لا كرامة لنبى فى وطنه فهل يعدم الأنبياء الكرامة فى كل المواطن ؟ وبعد ففيم كان انتخابهم إياه وهم يعدون له هذا الاستقبال المهين ؟ إنها لخيبة ما بعدها خيبة ، والخير كل الخير فى أن يلزم السفينة لا يبرحها حتى تقلع به إلى أمريكا بلاد الحرية الحقة ، والديمقراطية الصحيحة ، حيث يعرف الناس أقدار الرجال وكرامة الأنبياء .

ولكن قلقه لم يلبث طويلا حتى زال . فلقد رست السفينة على الشاطىء وتبين الهتافات والنداءات ، فإذا فيها معانى الحفاوة به والإشادة بذكره ، وإذا القوم قد احتشدوا ليستقبلوه أحسن استقبال وليحيوه خير تحية . فلم يكد يضع قدمه على الإفريز حتى أحاط به القوم من كل صوب وجعلوا يعانقونه ويلثمون يديه ويمسحون بأيديهم على ثيابه الممزقة ،

وتحمست إحدى النساء فانقضت عليه وقبلته على خديه ثم رشقت فى قبعته الريشة المثلثة الألوان رمز الثورة والجمهورية ، وحمله الناس على أكتافهم وهم يتخطفونه وساروا به فى مظاهرة صاخبة ، بينما كان الجنود يؤدون له التحية العسكرية والمدافع تطلق بارودها تكريما لمقدمه السعيد إلى أن بلغوا به دار المحافظة ، حيث اجتمعت هيئة المجلس البلدى لاستقباله الاستقبال الرسمى الواجب . ثم انتقلوا به إلى مقر الجمعية الشعبية فأجلسوه تحت تمثال ميرابو ليستمع إلى خطب الترحيب التى ألقاها الزعماء المحليون والتى لم يفهم منها كلمة . فلما أمسى المساء ذهبوا به إلى النزل الذى يقضى فيه الليل وظلوا طوال السهرة محيطين بالنزل هاتفين صائحين . وبكر القوم فى الغد لتوديعه ساعة يستقل العربة إلى باريس ، فكانت مظاهر التوديع أفخم وأعظم من مظاهر الاستقبال وهكذا طاب توماس باين نفسا وأيقن أن الجحود شيمة خاصة بمواطنيه الإنجليز ، أما الدنيا فبخير ما دامت فيها شعوب تعشق الحق والحرية وترعى حرمة الرسل والأنبياء .

وفى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر ذهب النائب الجليل توماس باين إلى قصر التويلرى مقر المجلس الوطنى ليقتعد كرسيه فيه ، فاستقبله الأعضاء استقبالا كريما ، ونهض أحدهم فقدمه إلى الزملاء بخطبة رقيقة عدد فيها مآثره على الحرية وأياديه على المبادىء الديمقراطية وأشاد بآرائه ومؤلفاته أحسن إشادة وأكد لممثلى الشعب أن فرنسا سوف تجنى من نصائح النائب الجديد وإرشاداته الخير العميم . ولبث النواب ينتظرون

فى شوق ولهفة أن يقف الفيلسوف العظيم ليخطبهم فيهديهم بآرائه السديدة إلى وسائل حل المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى أنهكت قوى البلاد وكادت توردها موارد التلف ، وكانوا يتوقعون أن يسمعوا من آياته البينات ما ينير أمامهم السبيل ويوضح لهم الصراط المستقيم . ولكن الفيلسوف لم يحقق شيئاً من هذه الآمال ، بل التزم صمتاً وقوراً حير القوم وأدهشهم ، واكتفى بأن يوزع عليهم ابتسامات متكافئة وبأن يهز أيدى بعضهم مصافحاً ويربت على أكتاف الآخرين محيياً وشاكراً . وعندئذ فقط أدرك أعضاء المجلس الوطنى أن زميلهم الإنجليزى لا يتكلم الفرنسية ولا يفهمها . . .

* * *

لا شك أن مركز الرجل كان حرجا فى وسط هذا المجلس الذى لم تكن لأعضائه صناعة غير الكلام . ولا شك أيضاً أن ناخبى إقليم باديكاليه قد ندموا لاختيارهم نائبا لا يجيد غير الصمت ، أو أسفوا لحالة هذا النائب الفخم الذى لا عيب فيه إلا أنه لا يستطيع إبانة رأيه ولا الإفصاح عما فى نفسه .

ومهما يكن من الأمر فان توماس پاين — بغض النظر عن عقليته الخيالية — كان رجلا خيّراً بفطرته حسن الظن بالناس إلى حد الغرارة . ولقد كان ، لجهله اللغة الفرنسية ، ينظر إلى ما يجرى حوله فى المجلس ويرى الخطباء يتعاقبون على المنبر ويمضون فوقه الساعات الطوال وهم يهدرون

ويزمجرون حتى تجف حلوقهم وتجحظ عيونهم ، فيخيل إليه أن خطورة المسائل المعروضة هي التي تستوجب هذا العنف والنضال ولا يدور بخلده قط أنها جعجعة فارغة وثرثرة ليس تحتها طائل ، فكان يصفق مع المصفقين ويبتسم مع المبتسمين

وإذا كان الرجل قد راض نفسه على السكون فلم يلق الخطب ولم يشترك فى المناقشات ، وإذا كان قد تعلم بالفرنسية كلمة « لا » و « نعم » يصوت بإحداهما فى وقار عندما يؤخذ رأيه فى الأمور العادية مستنيراً فى ذلك بتصويت الأكثرين ، فقد أبت الأقدار إلا أن تخرجه من صمته المريح وإلا أن تدخله مع زملائه فى نضال عنيف حول موضوع خطير .

ذلك أن محاكمة الملك لويس السادس عشر كانت قد انتهت ، وحان وقت أخذ الرأى فى العقوبة التى توقع عليه . ولقد استشار توماس باين ضميره فأوحى إليه أن عقوبة الإعدام شىء لا مبرر له ، وأن الحكمة تقضى بالاعتدال فى كل شىء وفى كل زمان حتى فى أزمنة الفتنة التى لا مجال فيها للعقل والتعقل . فلما نودى ليبدى رأيه وقف وألقى بالفرنسية كلمات كان قد حفظها عن ظهر قلب قال فيها إنه يفتى بنفى الملك إلى أمريكا نفياً مؤبداً ، وبإكراه الملكة مارى أنطوانيت على احتراف الساجة ، وبالاستيلاء على الأمير الصغير ولى العهد لتربيته تربية مدنية تجعل منه فى المستقبل القريب رجلا جمهوريا صالحاً . ولما كان لكل عضو أن يشفع فتواه ببيان يشرحها فيه فقد عهد إلى أحد الزملاء فى إلقاء الترجمة الفرنسية

للبيان الذى وضعه ليفصل فيه للاعضاء كل الأسباب التى حدت به إلى سلوك طريق الاعتدال والأخذ بالظروف المخففة والأسباب الموجبة للتسامح والرحمة .

ووقف الزميل ليلقى ترجمة البيان ولكنه لم يكد يمضى فيها حتى قاطعته أكثرية المجلس بعاصفة من الصخب والضجيج والهياج ماذا : أتوماس باين ، رسول الحرية ، صديق الديمقراطية ، عدو الاستبداد وحكم الفرد ، هو صاحب هذا الكلام ؟ أيصمت توماس باين كل ذلك الصمت الطويل حتى إذا ما انفرجت شفتاه انفرجتا عن هذا الكفر المبين ؟ أيظل طول حياته يبشر بدولة العدل والمساواة وينتصر للشعوب على الحكومات ويحارب الطغيان والاستبداد ، حتى إذا حان وقت تطبيق هذه المبادىء السامية تطبيقاً عملياً تنكر لها وانحرف عنها وضن على الحرية والأحرار برأس لويس السادس عشر كبير الطغاة وإمام المستبدين ؟ لا . . لا . . إن فى الترجمة لتحريفاً بل إن المترجم ليفترى القول على توماس باين . وقفز النائب توريو إلى المنبر وضرب خشبته بقبضة يده وصاح : « أيها المواطنون لا تصدقوا أن هذا الكلام يصدر عن توماس باين » وأعقبه النائب ماراه الهائل فأكد فى عبارة قوية حازمة أن الترجمة مفتراة وطلب إجراء تحقيق فى الموضوع ومطابقة الترجمة على الأصل بواسطة خبير متمكن من اللغتين .

وبينما كان المترجم يقسم للأعضاء جهد أيمانه أنه لا يجيئهم بشىء من عنده وإنما ينقل إليهم بالفرنسية فى أمانة وصدق ما دوّنه زميله بالانجليزية

كان توماس باين يتفرس فى الوجوه ويراقب الحركات لعله يتبين علة النقاش وسبب كل هذا الضجيج . ولقد ظن أول الأمر أن القوم معجبون برأيه متحمسون له ، فبدت على محياه علامات الرضاء والارتياح ، ولكن تجهم الأسارير وحدّة الجدال لم يشجعاه على الاسترسال فى هذا الظن ، فأخذ القلق يساوره . ولعله لم يأسف فى حياته على شيء أسفه فى هذه اللحظة لجهله اللغة الفرنسية هذا الجهل الذى يحول دون تفهمه ما يقال ودون اشتراكه فى النقاش . عجب الرجل كل العجب من أن دعوة إلى التسامح والاعتدال تثير هذه الحدة فى الجدل وتحدث كل ذلك الاضطراب . ولكنه تريث حتى يستبين حقيقة الحال . فلما انتهى المترجم من إلقاء البيان هبت فى المجلس عاصفة ثانية لم تبق فى نفس الرجل شكا فى أنها عاصفة احتجاج ونفور واستنكار . ثم انقطع الشك باليقين عندما أبصر وجوه جيرانه تعبس فى وجهه وتتولى عنه فى إعراض مهين .

عندئذ أدرك الفيلسوف أن الجماعات فى أزمة الفتنة لا تتعقل ولا تتدبر وإنما تتبع عمياء أعلى الصائحين صوتاً وأكثر القادة صخباً وشعوذة ودجلا وأن الحكيم إذا أبى إلا أن ينغمس فى هذه الحمأة كان أوجب واجباته أن يعرف كيف يعوى مع الذئب إذا عوت وكيف يغنى مع المجانين إذا غنوا .

ومن ذلك اليوم اشتدت وطأة الخيبة على نفس الفيلسوف ، وانهار صرح أوهامه فى حكمة الشعوب ، فاستولى عليه حزن مرير لا يحس مثله إلا المتفائل

الذى تصدمه الحقائق على غرة منه فتخيب ظنونه فى الحياة وتعكس آماله فى الناس. ومنذ عركته هذه التجربة القاسية وامتحنته الأيام بتلك المحنة المضنية تبدى للناس مهموم النفس مقطب الجبين وقد فارقته ابتسامته التى كانت تغنيه عن الكلام فى كثير من الحالات ، ولازمت وجهه كآبة دائمة جعلت أساريره لا تنم إلا على انقباض دائم وهم مقيم .

تغير رأى الاخوان فى رسول الحرية وبدا لهم هذا الرسول شخصاً مريباً لايستحق الاجلال والتبجيل ، وتكشفت منه امامهم حقائق لم تلفت نظرهم من قبل ، أو لعلها لفتته ولكن ثقتهم بالرجل جعلتهم لايلقون إليها بالاً ولا يستنتجون منها شيئاً خطيراً . ذلك بأن الدجاجلة من زعماء الثورة الفرنسية الذين كانوا يعلقون على الظواهر أهمية لايعلقون مثلها على الحقائق ، قد جعلوا من العلامات المميزة للثوار المخلصين رثاثة الملبس وسوء الهندام وشعوثة الشعر ، فكانوا يتبارون فى ذلك تقرباً من الطبقات الفقيرة فى الشعب وإمعاناً فى الشعوذة واستغلال سذاجة الجماهير . ولقد كانوا يتوقعون أن يروا توماس باين كما ألفوا أن يروا الزعيم « ماراه » رجلا معصوب الرأس بعصابة قذرة حمراء وسراويل طويلة متهدلة وحذاء مثقوب النعل ممزق الجوانب ، فلشد ما كانت دهشتهم عندما أبصروه وهو ينزل من السفينة فى زى أنيق منتظم يعلو رأسه فراء من الشعر المصطنع الجميل ويكسو ساقيه جوربان من الحرير الناعم . ولكنهم كانوا متأثرين بشهرته كبطل من أبطال الحرية ونبى من أنبياء الجمهورية والمبادىء الجديدة فلم

يشاءوا أن يروا فى ذلك الهندام المنسق ما ينقص من قيمة الرجل ولا من قيمة رسالته ، فاغتفروا له هذا الضعف كما اغتفروه من قبل لصاحبهم روبيسبيير. أما الآن وقد بانت لأعينهم حقيقته وظهر لهم أنه من أهل الرجعة وأنصار الطغاة حتى ليشفق على الملك أن يقطع رأسه ، فلم يبق مجال لحسن الظن ولا للتسامح، بل لم يبق إلا أن زيه مظهر لخبيئه نفسه ودليل على خبث طويته وإن حاول أن يستر ذلك بطلاء من تعشق الحرية واعتناق المبادىء الجمهورية القويمة . نعم ان روبسبيير يلبس لباس الاشراف ولكن أعماله كلها تنبيء بأنه دعامة من دعائم الثورة وحصن من حصونها المنيعة . أما هذا الأفاق الذى لم يخلع زى الاشراف الملاعين ثم لا يزال يرى آراءهم ويحاول تخليص عنق الملك من سكين المقصلة ، فدجال خدعهم بدعواه التى وضح زيفها كما يتضح الصبح للمبصرين .

وثم مسألة أخرى غير مسألة الزى والهندام : فلقد لحظ القوم أن صاحبهم لم يتحمس ولا مرة واحدة لخطبة من تلك الخطب التى كان الزعماء الثوريون يلقونها من فوق المنبر فتلهب النفوس وتثير العقول وتحرك الحناجر بالهتاف والأكف بالتصفيق ، ولم يريدوا أن يرجعوا هذه الظاهرة المقلقة الى سببها الطبيعى وهو جهل الرجل لغة الخطباء وعدم فهمه مايثير حماستهم وما يقولون ، وانما تلمسوا لها الأسباب فى فتور وطنيته وفى تعلقه بالرجعة والرجعيين حتى لا تطاوعه يداه على التصفيق لكلام يستنكره وحتى لا تسعفه حنجرته بالهتاف لرأى لا يستسيغه .

إذن فالرجل منافق كذاب . وياويل من يعتقد الثوريون أنه منافق كذاب !

ولو وقفت الشبهات عند هذه القرائن لهان خطبها . ولكن هناك قرائن أخرى أمعن فى الدلالة على أن الرجل ضالع مع الرجعيين منغمس فى الرجعة إلى أم رأسه . ذلك بأنه توسط مرة لدى السلطات الثورية فى انقاذ رجل كان قد اعتدى عليه بالضرب فى الطريق العام ورأت الحكومة فى هذا الاعتداء إهانه لكرامة ممثلى الشعب فأرادت أن تحكم على المعتدى بالاعدام وكاد الحكم ينفذ فيه لولا وساطة توماس پاين . ولقد شفع مرة أخرى لجاسوس انجليزى كان يتجسس عليه ويوافى حكومة لوندرة بأعماله وأقواله فأنقذه أيضا بشفاعته من الإعدام . وإذا كان رجال المجلس الوطنى قد رأوا فى هذه الشفاعة وتلك الوساطه حين أقدم عليها توماس پاين شيئاً من نبل النفس وسماحة الخلق ، فقد أصبحوا الآن — وقد تفتحت عيونهم على حقيقة الرجل — يرون فيهما نزعة خبيثة تجنح بصاحبها إلى تضليل العدالة بغية حماية الخونة والمجرمين . فلما أضاف الوطنيون هذه القرئن البليغة إلى قلة تحمس الرجل لخطبهم فى المجلس والى الزى الذى يأبى أن يخلعه وإلى محاولته إنقاذ حياة الملك الطاغية ، تبدّى لهم توماس پاين على حقيقته وأدرك رجال المجلس كما أدرك ناخبو إقليم باديكاليه انهم ابتلوا بدخيل خطر يحسن الخلاص منه بأسرع وسيلة .

وإذا كان الفيلسوف قد بقيت له بعد كل ذلك بقية من احترام أو من ثقة فى نفوس زملائه ، فقد زالت هذه البقية حين نظر المجلس الوطنى قضية حزب الجيروندة وأبى المتطرفون تحت ضغط روبسبيير وماراه وسانجوست إلا أن يحكموا على الزعماء الجيروندين بالإعدام جزاء ارتكابهم جريمة الاعتدال . فلقد كان توماس باين يرى ويعتقد أن الاعتدال صفة ممدوحة يجب أن يتصف بها الحكام والسياسيون ، ولا يعقل كيف يصورها بعضهم جريمة يحكم على مرتكبها بالإعدام . فلما آنس من أكثرية المجلس اتجاهها إلى العنف وإصرارها على قتل شرذمة الجيروندين وهى زهرة المجلس وخلاصة النابهين من أعضائه ، استنكر سياسة الاكثرية وأخذ الشك يساوره فى نزاهتها ، وبدأ يسائل نفسه فى قلق وحيرة : علام هذه الثورة كلها ما دامت نتيجتها الخروج من طغيان الفرد للدخول فى طغيان الجماعة ؟

وجاءت بعد قضية الجيروندة قضية دانتون وكمى ديمولان وأصحابهما ، ورأى توماس باين أن الثورة وقد بدأت بأكل أولادها ، صارت الآن كالنار يأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله . فعافت نفسه هذه الحال وتقززت طبيعته من تلك الشرور والآثام ولم يستطع الصبر على رؤيتها وهى تقع بين سمعه وبصره كل يوم ، فكف عن كتابة البيانات التى كان يدفعها إلى من يترجمها ويتلوها على المنبر إذ لم يعد يجد بين الزملاء من يقدم على هذه المغامرة الخطرة . ثم أخذ يقاطع المجلس ولا يحضر من جلساته

إلا القليل مباعداً بين الجلسات التى يحضرها ما أمكنه المباعدة .

وكان قد استأجر لسكنه داراً خلوية فى حى سان دنيس أنشأ حولها حديقة متواضعة وجعل جزءاً منها مراحا للخنازير وحظيرة للدواجن . فلما رأى أنه لا يجنى من الذهاب إلى المجلس إلا الغصص المريرة وأن نفور القوم منه يتزايد بمرور الزمن ، لزم داره يفلح الحديقة ويعنى بتربية خنازيره وأرانبه وطيوره تاركا وحوش الثورة يلغون فى الدم ويطبقون تعاليم الحرية على ذلك النحو الشنيع . ولـكن أليست هذه جريمة أخرى ؟ ! رجل من الشعب يمثل الطبقة الدنيا ومفروض أن يكون قدوة للفقراء فى تحمل الفقر أو الإعراض عن نعيم الحياة وها هو ذا يسكن كالنبلاء داراً مستقلة ذات حديقة وحظائر ! فهل بعد ذلك ارستقراطية وهل قامت الثورة إلا للقضاء على الارستقراطية ؟ وما دام الرجل ارستقراطياً إلى هذا الحد الفاضح ففيم تمشدقه بكلمات الحرية والإخاء والمساواة وتغنيه بالمبادىء الحديثة والنظم الجديدة إلا أن يكون منافقا يبتغى أمراً أو خائنا يضمر للجمهورية شراً ؟ وفى أصبوحة يوم من الأيام صحا الفيلسوف من نومه فإذا بيته مطوق برجال الشرطة ، وإذا الجنود يأخذونه من سريره إلى سجن لوكسمبورج .

وكانت نفس الرجل قد تقززت من كل شىء فلم يرد أن يسأل عن سبب اعتقاله موقناً أن لا جريمة له إلا جريمة الاعتدال . وقبع فى السجن ينتظر أن يبت القوم فى مصيره بما يشاءون . وإذ كانت المحاكم الانجليزية فى تلك الأثناء قد حاكمته غيابيا وحكمت عليه بالسجن متهمة إياه بالتطرف

فى إثارة الخواطر على الحكومة وتحريض الجماهير على قلب الأنظمة المرعية ، فقد جلس الفيلسوف يتأمل فى حالته الغريبة ويعجب من جنون بنى الانسان الذين يسجنونه فى انجلترا لجريمة التطرف ويسجنونه فى فرنسا لجريمة الاعتدال !

* * *

ولبث فى السجن عشرة أشهر ثم أخلى سبيله بعد سقوط روبسبيير وانتهاء عهد الإرهاب . وما دام القوم لم يشاءوا أن يفضوا إليه بأسباب اعتقاله ، فهو لم يشأ أن يسألهم عن أسباب تسريحه . وخرج من السجن راضياً بهذه النتيجة الطيبة وهى أن رأسه ما تزال قائمة بين كتفيه وأنه يستطيع بهذه الرأس أن يواصل تفكيره فى وسائل إسعاد الإنسانيـة ، ولـكن من طريق غير طريق الثورة المحفوف بالمخاطر والأهوال .

وارتحل توماس پاين إلى أمريكا حاملا من فرنسا أسوأ الذكريات . وكان إذا سئل عما فعلته ثورة الديمقراطية بفرنسا يجيب فى حزن عميق : « لقد صيرتها الفتنة جمهورية شياطين لا مقام فيها لرجل شريف » .

مَصْرَع دانتون وأصحابه

فى سنة ١٧٩٤ كانت فرنسا تعانى أهوال الحرب التى أعلنتها عليها أوروبا ، وتعانى فى الوقت ذاته أهوال الفتن الداخلية التى تمزق أحشاءها .

ولقد سعى الوزير دانتون سعيه المحمود إلى إيلاف الأحزاب ومصالحة الخصوم وتوحيد الجهود لمواجهة الآزفة التى تهدد كيان البلاد ، ولكن التحزب الأعمى كان قد باعد ما بين القلوب ، ونمّى النفرة فى النفوس ، فطغت الأحقاد ، حتى كبتت عواطف التسامح ، وصيرت الوطنية نضالا وتناحراً بين الإخوان ، وكست العيون غشاوة جعلتها لا تبصر مواطن الخطر ولا مواضع الداء . فلما يئس دانتون من دعوة الأحزاب إلى كلمة سواء ، وألفى الشر يتفاقم والفتنة تستشرى ، لم ير بداً من إقامة حكم عرفى واسع النطاق ينظم الحالة ويقلم أظفار الفوضى ويضع حداً للعبث الناشب فى البلاد فأنشأ لجنة الإنقاذ العام وركزت فى يديها كل السلطات التشريعية ، وأقام إلى جانبها المحكمة الثورية معفاة من قيود القوانين ، ليتكافأ القضاء والتشريع فى السرعة وليسيرا جنباً إلى جنب فى طريق تطهير الوطن من شغب المشاغبين وعبث العابثين .

وإذا كان دانتون قد افتتح جهاده الثورى متطرفاً فى مبادئه ، قاسياً فى وسائله ، حتى ليذكر له التاريخ شأنه المعروف فى الثورة على العرش وفى

قضية الملك ، وفى مذابح شهر سبتمبر ، وفى قضية الجيروندبين ، فإن ممارسته لشؤون الحكم ولقيادة الرجال قد فعلت فعلها الطيب فى نفسه فكبحت جماح طبيعته المندفعة ، وحدّت من شرّته ، وصقلت روحه ، وهذبت طبعه وأبدعت من ذلك الثورى العنيف سياسياً متزن العقل معتدل المزاج ، حازماً فى غير عنف ، مسالماً فى غير ضعف .

ولقد تقدم إلى المجلس الوطنى العرفى ببرنامجه السياسى ، فقرر أن الوطن فى خطر يقتضى الحزم فى ولاية الأمر ، ولكن هذا الحزم لا يعنى البطش والتنكيل وإزهاق الأرواح وإراقة الدماء ، وإنما يعنى الشدة فيما يستلزم الشدة والتسامح فيما يحتمل التسامح ، على ألا تخرج الشدة ولا يخرج التسامح عن حدد القانون .

بيد أن هذه السياسة التى ترمى إلى الاعتدال والتهدئة لم تكن لتعجب المتطرفين ولا لترضى زعيمهم روبسبيير الذى كان يرى الخيانة والخونة فى كل مكان وفى كل إنسان ، ويأبى إلا أن يطهر الجمهورية الناشئة من جميع العناصر التى تشوب صفاءها وتعترض أغراضها وتعوق تقدمها . لذلك بدأت السعايات الخفية لدى أعضاء المجلس الوطنى تحدث أثرها فى سمعة دانتون ، وأخذت عبارات التبرم به وبسياسته تتصعد خافتة من بعض المقاعد ، كما صارت علامات التشكك فى وطنيته والارتياب فى نياته تتجلى حتى فى الهيئات التى كان دانتون يتمتع فيها بأوفر قسط من الهيبة والنفوذ كالمجلس البلدى ونادى اليعاقبة .

أما روبسبيير الذى ما كان ليسمح لرأس أن يرتفع إلى جانب رأسه ، فقد رأى الفرصة مهيأة ليضرب هـذا المزاحم الأخير ولينحيه عن طريقه إلى الدكتاتورية الفردية التى كان يسعى إليها . ولـكنه لم يشأ أن يتعجل الأمور ويهاجم خصما لا يزال عظيم الجاه قوى الشـكيمة عزيز الأنصار ، فترك دانتون يسترسل فى اعتداله مكتفياً بأن يثير حوله الريب ويبث الظنون ويؤلب عليه الأندية والأحزاب ويحذر المجلس الوطنى من عواقب تلك السياسة التى ليس من شأنها أقل من أن تنشط الفوضى فى الداخل وتطمع العدو فى فرنسا من الخارج .

وكان روبسبيير يرمى بالتريث والمصابرة هدفاً آخر وهو أن يستعين بدانتون على إهلاك خصمهما المشترك إيبير كما استعان بالاثنين من قبل على إهلاك الجيرونديين ، فإذا ما تخلص من إيبير القوى استطاع أن ينقض على هذا الخصم وينكل به كما يشاء .

وبدا لدانتون يوماً أن يحدث ثغرة فى صفوف الدول المتحالفة على بلاده فعرض على إمبراطور النمسا أن ينقذ شقيقته مارى انطوانيت من السجن ويعيدها إلى وطنها مقابل أن تخرج النمسا من الحلف الأوروبى وتصالح فرنسا وتسحب جيوشها من الميدان الشرقى ، ولـكن الحزازات الحزبية والمنافسات الشخصية لم ترض عن هذه الخطة الحـكيمة ، فحرك روبسبيير صديقيه سانجوست وكوثون ، فانطلقا يثيران عاصفة فى وجه دانتون ويرميانه بالخيانة والتفريط ، وبأنه صديق الملـكيين وأجيرهم ومدسوس العـدو

وصنيعته ، وكانت جيوش الجمهورية قد انهزمت فى معركة أمام الملكيين بمقاطعة الفانديه ، فعزا روبسبيير وأصحابه أسباب هزيمتها إلى ضعف لجنة الإنقاذ العام وسوء إدارتها للحرب ، وهاجوا سخط المجلس الوطنى عليها فحلها وأعاد تكوينها من العناصر المتطرفة الموالية لروبسبيير بعد أن أقصى عنها دانتون وأعوانه المعتدلين .

وكان دانتون ، لفرط كبريائه واعتزازه بمركزه ونفوذه لا يولى هذا الصراع كبير اهتمام ولا يأبه للحملة المدبرة عليه ولا يجهد نفسه فى مقاومتها وفى مقابلتها بحملة من مثلها ، ظاناً أن له من تاريخه ومن زعامته ما يجعله بمنجاة من تلك السهام المسمومة المصوبة إليه . لذلك رأينـــاه يبسم فى وجه العاصفة استهزاء ويهز كتفيه أمام النذر استخفافا ، وينصرف إلى شؤونه الخاصة فيتزوج بفتاة فى السادسة عشرة من عمرها ويسافر معها إلى الريف ، ويحاول أن ينسى بين ذراعيها متاعب الحكم وهموم السياسة وأهوال النضال ، فيكاد لا يظهر فى المجلس الوطنى إلا لماما ، ولا يرد على حملات أعدائه إلا بالصمت والاحتقار .

وعجيب من رجل كدانتون ألا يفهم عقلية الثورة التى أوقد نارها وأذكى ضرامها ، وألا يستذكر دروس الماضى القريب ليتعظ بما تحويه من عظات . فلقد كان الجيرونديون يوماً من الأيام أرفع منه شأناً فى الثورة وأنبه ذكراً وأعز نفراً ، ومع ذلك لم يقووا على الثبات فى وجه الحملة الطائشة التى حملها عليهم فاقتلعتهم من مراكز الزعامة والقيادة والحكم

وأرسلتهم إلى النطع ليكفروا فوقه عن جريمة التعقل والاعتدال . ولقد كان إيبير زعيما مثله مهيب الجانب مرعى المقام ، له خطره ونفوذه ورأيه الحاسم وقوله المسموع . ولكن ذلك كله لم يفده يوم قدمه وأعوانه إلى المحكمة الثورية فأرسلتهم إلى النطع هم أيضاً ليكفروا فوقه عن جريمة التطرف وإثارة غرائز الدهماء ، ولقد كان دانتون يعلم أن روبسبيير هو الرأس المدبر لتلك الاتهامات واليد المحركة لتلك المحاكمات والوحى الموعز بكل تلك الأحكام . فكيف يستصغر شأنه ويستهين بشره ويصارحه بالعداء بينما هو يسمم الهواء حوله ويلغم الأرض تحت قدميه ؟ ثم أى ضمان له من عدالة أو نزاهة أو قانون فى ذلك القضاء الثورى العجيب الذى يعدم قوماً لأنهم رجعيون ، ويعدم آخرين لأنهم معتدلون ، ويعدم غيرهم لأنهم متطرفون ؟ !

ولكن يظهر أن الرجل كان يتحدى كل تلك الاعتبارات ، ويثق بنفسه وبأهميته وبسمو مكانته ثقة بلهاء ، حتى لقد قال يوماً لرسول جاءه من قبل أصحابه ينذره بتحرج الموقف واشتداد الخطر ويستحثه على العودة إلى باريس لمواجهة الاعداء : « اذهب وقل لروبسبيير إن الوقت لم يفت ، وإنى سأسحقه هو وأصحابه عند ما أريده » .

وفى تلك الأثناء كانت لجنة الانقاذ الجديدة قد عممت الإرهاب فى البلاد وعمدت إلى وسائل الفتك والبطش الذريع ، فصارت السجون تغص بالمعتقلين ليلا والمقاصل تحصد رؤوسهم نهاراً ، حتى استحالت الثورة من جهاد فى سبيل الحرية إلى طغيان منظم وظلم وقح وتنكيل فظيع . فلما

عاد دانتون من الريف ، ألغى النظام العرفى الذى أقامه لأغراض وطنية نزيهة قد خرج عن حدوده وانقلب فى أيدى الطغاة أداة بغى صارخ لا بد أن يؤدى إلى فتنة عمياء ، فنفرت نفسه من هذه الحالة وتقززت إنسانيته من تلك المذابح المستمرة والمجازر المتواصلة ، وآلى ليضعن حداً لذلك العهد الدامى وليشهرن على روبسبيير وأعوانه حرباً تفك عقال المساجين وتنقذ الرقاب من أيدى الجلادين وتزيح عن صدر فرنسا ذلك الكابوس الذى خنقها وكاد يوردها موارد الموت .

وأوعز إلى صديقه كمى ديمولان أن يبدأ الحملة على الطغاة والطغيان ، فأخذ ذلك الشاب الجرىء الوثاب يندد فى صحفه بالمظالم والظالمين ، ويرسل الصيحة تلو الصيحة يحذر بها المتطرفين من مغبة السدور فى سياسة البطش والتنكيل ، ويشهر بأحكام المحكمة الثورية ويقول : « لقد أصبح من النادر، بل من الحوادث الشاذة التى تهتم الصحف بنشرها وينقل السلف خبرها إلى الخلف ، أن يموت فى هذا البلد نائب أو سياسى ميتة طبيعية إذ الكل يهلكون بسكين المقصلة » . ثم أخذ ينادى بوجوب تأليف لجنة قضائية تتولى النظر فى شكاوى المائتى ألف سجين الذين تضمهم جدران السجون لتتحقق براءتهم أو إدانتهم بالوسائل التى يرضاها العدل ويقرها القانون .

ولقد أحدثت هذه الصيحات أثرها الطيب فى نفوس الناس إذ كانت تعبر تعبيراً صادقاً عن رأى الشعب الذى أذهلته تلك الشناعات فكان

الجمهور الباريسى يتخطف أعداد صحيفة ديمولان ، وكانت الأقاليم تقبل على قرامتها كل الاقبال وتستورد منها كميات كبيرة ، حتى لقد طبع منها يوماً عشرة آلاف نسخة نفدت ولم تنفد طلبات الطالبين .

وبينما كان كمى ديمولان يشن الغارة على وسائل الإرهاب فى صحيفته ، كان دانتون يوالى حملاته فى المجلس الوطنى على روبسبيير وكوثون وسانجوست ويقول إن النظام العرفى الذى وضعه لمكافحة العدو الخارجى قد انقلب فى أيدى أولئك الطغاة وسيلة للتنكيل بالفرنسيين . ثم يشدد النكير على الثلاثة حتى إذا أسر إليه صديق أن يتئد فى الحملة عليهم ويخفف من غلوائه فيها ويصانع خصومه بعض المصانعة ليتقى شرهم ، صاح بأعلى صوته : « خير لى ألف مرة أن أموت من أن أكون جلاداً لوطنى » . فلما سمع روبسبيير هذه الصيحة المتكبرة تبسم وهمس فى أذن جاره : « ما دام يريد الموت فسوف يكون له ما يريد » .

وتوالت النذر على دانتون مرة أخرى تنصح له بالفرار من وجه أعدائه ، فكان يستخف بنصيحهم ويسخر من إشفاقهم ويقول : « مم أخاف وأنا صاحب الثورة وصانعها ؟ أما ترون أن رأسى ثابت فوق كتفى ، فمن ذا الذى يستطيع أن يحوله عن مكانه ؟ لماذا يعدموننى ، وأية مصلحة لهم أو للبلاد فى إعدامى ؟ وبعد فأنا هنا لخدمة وطنى ، فهل أحمل هذا الوطن معى عند الفرار ؟ » .

وهكذا ظل العملاق المنيد مستنيما فى طمأنينته غير آبه لما يدبر له فى

الجهر والخفاء ، بينما كان روبسبير يستدعى سانجوست من ميدان الحرب ويملى عليه تقرير الاتهام ، فيتلوه هذا على لجنة الانقاذ العام ويستصدر منها مرسوم القبض على دانتون وجميع أصحابه السياسيين ومن بينهم كى ديمولان وفابر ديجلانتين ، وهيرو دى سيشيل ، ولا كروا ، ووسترمان .

ولقد أذهل قرار اللجنة أعضاء المجلس الوطنى ، فحاول بعضهم أن يعترض ويحتج ، ولكن روبسبير ارتقى المنبر وأرسل عليهم من وراء نظارته الزرقاء ذلك البريق الوهاج المخيف الذى كان ينبعث من عينيه عند الغضب فيحبس الكلام فى الأفواه ويلجم الألسنة فى الأشداق وقال : « نريد اليوم أن نعرف : هل يستطيع المجلس أن يسمو بنفسه على عبادة الأصنام وأن يحطم صنما عفنا يسمم جو البلاد » . ثم وجه الخطاب إلى النائب ليجاندر صديق دانتون وصاح : « إن من يشفق على الخونة اليوم لهو شريكهم فى الخيانة » . وكان فى هذه الصيحة فصل الخطاب .

واقتيد دانتون فى طليعة أصحابه إلى السجن تمهيداً لمحاكمته بتهمة التآمر على الثورة وهى التهمة التى ما وجهت إلى أحد فى ذلك العهد إلا أوردته حياض الموت من أقرب سبيل . وفيما هو فى طريقه إلى سجنه كان يسأل الناس كالمشدوه : « ما هذا يا قوم ! هل عادت الملكية حتى يقاد رجال الثورة إلى السجون ؟ » .

* * *

وفى اليوم الثانى من شهر ابريل سنة ١٧٩٤ اكتظت قاعة الجلسات

فى المحكمة الثورية وغصت الشوارع والميادين المؤدية إليها بجموع الباريسيين الذين جاءوا من كل صوب ليشهدوا هذه المحاكمة الكبرى ، محاكمة أبطال الثورة وموقدى نارها ومسقطى العرش ومبيدى الملكية ومقيمى الجمهورية على أساس الحكم العرفى الرهيب .

ودخل دانتون قاعة الجلسة فى مقدمة أصحابه فاشرأبت إليه الأعناق واتجهت نحوه الأنظار معجبة بقامته المديدة وجسمه الهائل ورأسه الضخم ووجهه المستدير الذى تنبعث منه علامات القوة والفتوة وحب النضال . فلما توسط القاعة نظر يمنة ويسرة وهز رأسه وقال : « أنا الذى أنشأت هذه المحكمة الثورية ، ولكنى لم أردها لتكون أداة نقمة وفتنة ، بل لتكون وسيلة وقاية وحكمة ، فأسأل المغفرة من الله والناس» .

وسأله الرئيس ما اسمه وأين مقر سكنه ، فأجاب : « اسمى ١٤ يوليو و ١٠ أغسطس و ٣ سبتمبر (يشير إلى مواقفه المشهورة فى الثورة)، ومسكنى الآن فى السجن وغداً فى القبر وبعد ذلك فى التاريخ .

— إن المجلس الوطنى يتهمك بالتستر على خيانة الجنرال ديموريبه وباشتراكك فى مشروعاته الآثمة ضد الحرية والجمهورية .

— إن صوتى الذى طالما ارتفع فى قضية الشعب تأييداً لمطالبه ودفاعا عن قضيته لا يقصر اليوم عن دحض مثل هذه الفرية السافلة . فهل يقوى

الأنذال الذين يرمونني بها من وراء الحجب أن يبرزوا أمامى ويقفوا لى وجها لوجه فأغرقهم فى بحر الكذب الذى هم فيه يسبحون ؟

— يا دانتون ، إن الجرأة فى القول والرجم بالمعائب لمن خواص المجرمين ، أما الأبرياء فيتقدمون إلينا هادئين متأدبين . نعم إن الدفاع عن النفس حق لا مرية فيه ، ولكن هذا الحق يقتضى ضبط النفس والتزام حدود اللياقة والاعتدال .

— إن الجرأة على الأفراد أمر مذموم ، ولكن جرأتى اليوم منصبة على رجال عموميين فلست أنزل عنها فى هذا المقام . وهل تنتظرون من ثورى عنيف مثلى أن يدافع عن نفسه ، كما لو كان متهما بسرقة بعض الدجاج ؟

وكان دانتون مهتاج النفس ثائر الأعصاب لا يستطيع كبح عواطفه ولا ضبط اندفاعه . وكان كأنه يرى التهم المعزوة إليه لا تستحق منه دفعاً ولا تقتضيه دحضاً ، فكان يتعالى عن الرد عليها ويكتفى بأن ينهال على متهميه سباً وتجريحا ويقول : « ما هذا الذى يدعيه خصومى ؟ ومن ذا الذى يصدق أنى صنيمة الملكيين ؟ أمثلى أنا ، وأنتم تعرفون من ماضىّ وحاضرى ما تعرفون ، يباع لدوق أورليان وميرابو وديموريه ؟ ! حقاً لتلك كبرى الكبر . لا لست أتجنى على أعدائى ولكنى أريدهم على أن يقفوا أمامى لأنزع عن وجوههم برقع المكر والرياء ولأعيدهم إلى العدم الذى ما كان ينبغى لهم أن يخرجوا منه إلى الوجود .

ثم يحوّل وجهه ناحية روبسبيير وسانجوست وكوثون ويصيح : « أيها الأفاكون الأدنياء ! تعالوا هنا وجادلونى إن استطعتم لأظهركم للبلاد على حقيقتكم ولأجعلكم عبرة للمعتبرين » .

الرئيس — يا دانتون لقد وقف ماراه قبلك موقف الاتهام فعرف كيف يثبت براءته فى أدب ورزانة ووقار . وإنى أدعوك أن تحذو حذوه ، وأرجو ألا يغيب عن فطنتك أن هجر القول وفحش الكلام لا يقنعان المحلفين ببراءتك ، فحبذا لو عمدت فى النقاش إلى عبارات لا تتأذى منها الاسماع .

— إن رجلا مثلى يجب أن يخاطب الشعب لا أن يتحدث إلى محلفين . لست أسب أحداً وإنما أدافع عن نفسى ، فاتركونى لأدلى بما عندى فى صراحة وجلاء لأن سلامة الوطن مرتبطة بما سوف أقول

وكان الرئيس هيرمان ، وهو رجل روبسبيير وصنيعته ، لا يريد أن يدع للمتهم فرصة للكلام خشية أن يفضى بما يمس سادته وأولياءه ، فكان لا يصبر عليه حتى يتم عبارة من عباراته بل يقاطعه فى كل كلمة آملا أن يخرجه عن صوابه فيطيش ويفقد الاتزان وينسى ما قد أعده من دفاع . وكان لدانتون صوت عال إذا أطلقه تجاوز حدود المحكمة وبلغ مسامع الجماهير المحتشدة خارج الأسوار . فكان يهدد ويزمجر فى الجلسة كأسد حبس فى قفص ، وإذا غضب أرسل الصيحة تدوى كالرعد فينفعل الرئيس ويدق الجرس ليسكته فلا يسكت ، فينتهره قائلا : « ألا تسمع صوت

الجرس ؟ » فيشمخ دانتون بأنفه ويجيب : « إن رجلا يدافع عن حياته ليهزأ بجرسك يا سيدى » .

ولقد كان لهذه العزة والشجاعة أوقع الأثر فى نفوس القضاة والمحلفين ، حتى لقد بكى أحد هؤلاء المحلفين ، فلما سئل فى ذلك قال : « وكيف لا أبكى وأنا أرانى مكرها على الحكم بإعدام رجل مثل هذا ؟ »

وتحرج موقف المدعى العام فوكييه تانفيل عندما أحس تردد القضاة وعطف المحلفين والجمهور على المتهمين فطلب رفع الجلسة للاستراحة قائلا : « إن هذا الحوار لا يليق بكرامة المحكمة ، وسأكتب إلى المجلس الوطنى ليوافينى بأوامره فيما يجب لصيانة هيبة القضاء » .

وهرع فوكييه تانفيل إلى لجنة الإنقاذ العام وإلى المجلس الوطنى العرفى ليشاورهم فى الأمر فأشاروا عليه بأن يتحاشى جهد الإمكان مناقشة المتهمين وبأن يختصر الإجراءات ما أمكن اختصارها . فإذا لم تنجح هذه الوسيلة فعليه أن يطلب تطبيق قانون المرافعات الذى صدر فى قضية الجيرونديين ، وينتزع من المحلفين إقراراً بأن هيئتهم (قد استنارت) ، وبذلك تقف الإجراءات ، وتنتهى المحاكمة ، ويصدر الحكم بلا دفاع ولا شهود .

وأعيدت الجلسة وتجدد الصراع بين الاتهام والمتهمين وطلب دانتون مواجهته بشهود الإثبات أو سماع شهود النفى ، ولكن النائب العام اعترض قائلا : « إن فى هذا إطالة لا فائدة منها . وإذا كان لدى المتهمين

شهود نفى فإن لدىّ عدداً كبيراً من شهود الإثبات الذين لا تدع شهادتهم شكا فى الإدانة ، ولـكنى أتنازل عن سماعهم اقتصاداً فى الوقت ، ولأن التهمة على ما أرى ثابتة لا تحتاج إلى أدلة جديدة ولا إلى شهود » .

وأخذت المحـكمة باعتراض فوكييه تانفيل ورفضت استدعاء الشهود مهددة المتهمين بتطبيق قانون المرافعات الجديد . فقال دانتون : « ليـكن ما تريدون وسأ كتفى بدفاعى عن نفسى مسجلا عليـكم أمام الشعب هذا الظلم الصارخ والعدوان على أبسط مظاهر العدل» . وأخذ يفند التهم المعزوة إليه تفنيداً لا يدع مجالا للشك فى بطلانها وبراءته منها .

وعاد المدعى العام فتحرج مركزه مرة أخرى إذ رأى صروح الاتهام تنهار والقضية تتسرب من بين أصابعه ، فطلب رفع الجلسة والتجأ ثانية إلى لجنة الإنقـاذ يستمين بإرشاداتها ويستمد منها أدلة جديدة يدعم بها دعواه . ولقد حارت اللجنة فيما يجب أن تفعل ، ولبثت تتداول الرأى وتتشاور إلى أن اهتدى سانجوست إلى الدليل المقنع والبرهان الحاسم فقال : « إن استماتة المتهمين فى الدفاع عن أنفسهم لهى ثورة منهم على العدالة ودليل على أنهم مجرمون ، إذ لو كانوا أبرياء حقاً لفوضوا أمرهم إلى القضاء وانتظروا حكمه العادل مطمئنين » . واقتنعت اللجنة بهذا الدليل العجيب وأخذت بذلك المنطق المذهل وأصدرت فور الساعة قانوناً يخول المحـكمة حق إقصاء المتهمين عن قاعة الجلسة « إذا صدر عنهم ما يفيد

قلة اكتراثهم بهيبة القضاء ، أو إذا أحدثوا شغباً لا يتفق والاحترام الواجب لهيئة المحكمة والمحلفين » .

وأرسلت اللجنة مندوبين من قبلها يحملان هذا القانون فسلماه إلى فوكييه تانفيل قائلين : «خذ هذا فإن فيه ما يريحك ويريح الجميع» . فتناوله النائب العام وقال : « هذا هو الغوث وإنا لفي أقصى الحاجة إليه » . وتقدم به إلى المحكمة وتلاه عليها وطلب تطبيقه فى الحال فكان له ما أراد .

ولقد استمع الجمهور أول الأمر إلى هذا القرار فى صمت يشبه الوجوم ثم غلبه الاستنكار والاشمئزاز فتصعدت الصيحات من كل ناحية هاتفة : « هذا ظلم ... هذه خيانة ... ما هكذا يكون القانون » . ووقف دانتون وصاح : « لقد شبعنا من الحياة فلا يخيفنا أن نموت لنبيت الليلة فى أحضان المجد . ولكننا نشهد الشعب الماثل هنا على أننا لم نوجه إلى المحكمة أى إهانة ولم نفعل ما يستوجب حرماننا حق الدفاع عن رقابنا » . فقال الرئيس : « إن المحكمة هى التى تقدر أقوالكم وتتبين ما فيها من خروج على النظام » فاعترض دانتون وكان كالبعير الهائج : « إنكم لم تسمعوا شاهداً من شهود النفى ولم تواجهونا بشاهد من شهود الإثبات ، ولم تطلعونا على محاضر التحقيق حتى نعرف منها ما شهدوا به لنا أو علينا ، فأى نوع من أنواع العدالة هذا الذى تطبقونه الآن ؟ » . وصاح زميله لاكروا : « ليست هذه محاكمة وإنما هى مهزلة سافلة فخير لكم أن توفروا علينا وعلى أنفسكم عناء هذا التمثيل وتصدروا حكمكم بما تشاءون » .

وكان كى ديمولان قد أعد دفاعاً مكتوباً فى أوراق كثيرة ، فمزق هذه الأوراق وكوّرها فى يده وضرب بها رأس النائب العام وصاح : « كفى مجوناً أيها المجرمون » . وجذب دانتون بعض أصحابه من أيديهم وهمّ بالخروج فسأله الرئيس : «إلى أين ؟» فأجاب : « إلى المقصلة يا وغد ! » .

واقتاد الحراس جميع المتهمين إلى السجن ، واختلت المحكمة للمداولة ووضعت للمحلفين سؤالا عجيباً بدأته بتقرير مسألة كأنها حقيقة مسلم بها فقالت :

« لقد اكتشفت مؤامرة ترمى إلى إعادة الحكم الملكى وإلى هدم النيابة الشعبية ونظام الحكم الجمهورى وتسوىء سمعة المجلس الوطنى فى أذهان الناس » ثم سألت : « هل اشترك كل من فلان وفلان (وهنا سردت أسماء المتهمين) فى تلك المؤامرة وثبت لديكم هذا الاشتراك ؟ »

وأجاب المحلفون بالإيجاب فصدر الحكم بإعدام جميع المتهمين .

* * *

ومذ نطقت المحكمة بالحكم تحولت أنظار الناس نحو المتهمين لترى وقعه على أولئك الأعلام الذين كان لهم فى الثورة شأن عظيم .

أما هيرودى سيشيل فتبسم وقال : « ما كنت أتوقع غير ذلك » . ثم التفت إلى جاره كى ديمولان الذى كان يبكى ويلعن أعداءه وقال : « تشجع يا صديق ولنظهر لهؤلاء الناس أننا نعرف كيف نموت بشجاعة » .

وأما دانتون فقد استولت عليه ثورة غضب هائلة جعلته يرغى ويزبد ويهدر ويزمجر ويرسل الكلام فى صيحات مخيفة . ثم كأنه كبر عليه أن يشمت به خصومه فهدأت ثورته وعاد إليه هدوؤه وجلس وهو يقول : « كان بعض الناس يرموننى بالقسوة والطغيان ، وهأنذا أموت زعيما لفئة المعتدلين والمتسامحين، فلعل فى ميتتى ما يدرّ علىّ غفران الأجيال القادمة » ثم هز كتفيه واستطرد قائلا : « وبعد، فما الذى أخشاه من الموت ؟ لقد نعمت بالثورة وتمتعت بالحياة وأسرفت كثيراً وأحببت كثيراً ، فلم يبق إلا أن نهجع الهجعة الأخيرة لنستريح » .

وفى أصبوحة اليوم التالى اصطفت العربات أمام باب السجن لتقلّ المحكوم عليهم إلى ساحة الإعدام ، فلما احتوتهم سارت بهم بين صفوف الجند والجماهير المحتشدة على طول الطريق . وكان دانتون هادئاً يمتزج بهدوئه نوع غريب من المرح ، فكان يمازح أصحابه ويسخر من حزن صديقه فيليبو ويحاول أن يسرى هموم صديقه الآخر كمى ديمولان ويسكته كلما حاول أن يخاطب الجماهير ويقول له : « هوّن عليك ولا تعبأ بهذه الغوغاء » . ثم يسأل الجلاد الذى يرافقهم فى العربة : « هل تسمحون لنا بالغناء ؟ » فيجيبه : « غنّ ما شئت فلست أعلم أن الغناء محظور » ، فيغنى مقطوعة شعرية نظمها فى الطريق ومعناها : « إذا ساءنا أن نموت بأيدى الأئمة والمجرمين فيعزينا أنهم لن يعمروا بعدنا طويلا » .

ولما مر الموكب الرهيب أمام بيت روبسبيير نهض دانتون من مقعده

وصاح صيحة هائلة دوّت فى الفضاء وقال : « أيها الطاغية اللامين ! لا تفرح فسوف تلحق بنا بعد حين » .

ووقفت العربات عند المقصلة ، ونزل هيرودى سيشيل وأراد أن يعانق دانتون فحال الحراس بينهما ، فصاح دانتون : « وهل تحولون دون أن تتعانق رؤوسنا فى السلة بعد المهات ؟ » . وكان كلما صعد أحد رفاقه إلى النطع يودّعه قائلا : « إلى اللقاء القريب أيها الصديق العزيز » فإذا جاء دوره وتأهب للصعود تولاه شيء من الوهن والخور وقال : « آه يا زوجتى المحبوبة ، لن أراك بعد اليوم ! » ولكنه تمالك نفسه شيئاً فشيئاً وخاطب نفسه بصوت مسموع وقال : « لا ضعف اليوم يا دانتون وإلا فأنت جبان رعديد ». ثم وجّه الخطاب إلى الجلاد وقال : «أدر رأسى على الناس ليروه فليس لديهم من مثله كثير » .

* * *

تلك كانت خاتمة دانتون وإنها لخاتمة ملأى بالعظات والعبر . ولعمرى إذا كان من بين أولئك الوحوش الذين قاموا بالثورة الفرنسية وهلكوا فيها رجال هم أقرب إلى القلوب من غيرهم ففى طليعة هؤلاء الرجال دانتون .

ولئن أخذ التاريخ على هذا الرجل أنه كان أول الدعاة إلى حكم الإرهاب وإراقة الدماء ، وإلى تثبيت قوائم الجمهورية فوق جبال من الجثث والأشلاء ، فقد وجب أن يعرف له المؤرخون أنه كان أيضاً أول من هالته فظائع عهد الإرهاب وأول من راجع نفسه وعرف خطأه ، فأرسل الصيحة

مدوِّية — ولو بعد فوات الوقت — تدعو إخوانه إلى الرحمة وأخذ الناس بالرفق وفى حدود القانون .

ولئن تقدم دانتون إلى التاريخ كما يتقدم زملاؤه ، ويداه تقطران من دم عشرات الألوف من الأبرياء الذين راحوا ضحية تطرفه وغلوائه فإنه يتقدم أيضاً حاملاً رأسه المقطوع مكفراً به عما جنت يداه ، وحاملاً حسن القصد وصدق التوبة شفيعين له فيما اجترح من الأوزار .

مَعْرَكَةُ سَقَارْيَا

وأثرها في كيان تركيا الحديثة

لا تـكتسب المعارك الحربية أهميتها فى نظر التاريخ بضخامة الجيوش التى اقتتلت فيها ، ولا بعدد القتلى والجرحى الذين سقطوا فى ميدانها ، ولا بأسماء القواد الذين أداروا رحاها ، وإنما تـكتسب هذه الأهمية بالنتائج التى تترتب عليها .

وإذا نظرنا إلى معركة سقاريا من ناحية النتائج السيـاسية والقومية والجغرافية التى ترتبت عليها ألفيناها ، كمعركة المارن الـكبرى ، تستوقف نظر المؤرخ وتسترعى اهتمامه باعتبار أنها معجزة من معجزات البشر حوّلت المجرى الطبيعى لسير الحوادث فى فترة معينة من الزمان ، ووجهت التاريخ وجهة غير التى أرادتها طبيعة الأشياء وأرادها الأقوياء المسيطرون على مصائر الشعوب . فلولا انتصـار الترك على اليونانيين فى سقاريا لصارت خريطة أوربا على غير ما هى عليه اليوم ، ولـكانت استانبول وبوغازا البوسفور والدردنيل منطقة نفوذ بريطانية ، ولـكان غرب الأناضول أرضاً يونانية ، وشرقه مملـكتين مستقلتين واقعتين تحت السيطرة الإنجليزية : أرمينية وكردستان . وجملة القول لـكانت تركيا اليوم اسماً تاريخياً لا وجود له فى أطلس العالم الحديث .

عظمة مصطفى كمال

وإذا نظرنا إلى حرب الأناضول ، مراعين الأحوال الخارجية التى أحاطت بها والظروف الداخلية التى لابستها ، لم نتردد فى الحكم بأن التاريخ لم يعرف شعباً استبسل فى الدفاع عن قضيته كما استبسل الشعب التركى ، ولا قائداً صارع الموت وانتزع وطنه من أنيابه كما صارعه مصطفى كمال .

وان لمن الغبن البيِّن لمصطفى كمال أن نريد الموازنة بين عظمته وعظمة أىّ من بناة الدول وقادة الأمم فى هذا الزمان ، لأننا إذا عرفنا ظروفه الشخصية التى ثار فيها على السلطنة العثمانية ومعاهدة سيفر وهو قائد معزول من منصبه ، محكوم بالإعدام عليه وعلى أصحابه ، مطارد من حكومته فى كل مكان ، وإذا عرفنا الحال المحزنة الموئسة التى وجد بلاده فيها يوم كانت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تحتلان العاصمة وتراقبة البواغيز ، واليونان تحتل إزمير وغرب الأناضول وتتلقى علم الحرب الصليبية من يد لويد جورج لتجهز على البقية المحتضرة من دولة آل عثمان ، وأرمينية وكردستان تثوران مطالبتين باستقلالهما عملا بمشورة لورد كيرزن ، وإذا عرفنا الضعف الذى كانت عليه تركيا وهى خارجة من سلسلة حروب مع إيطاليا والبلقان والحلفاء لم تنقطع طيلة عشرة أعوام ، إذا عرفنا كل ذلك ثم تأملنا فى النتائج المذهلة التى وصل إليها مصطفى كمال ، ألفينا هذا الرجل أعظم فى ميادين الحرب والسياسة والإدارة من جميع الذين عاصروه ، وسلمنا بأن من حقه أن يقف فى صف عظماء التاريخ إلى جانب بسمارك وواشنطن ونابليون .

اليونان فى الأناضول

كان المتفق عليه بين الحلفاء منذ سنة ١٩١٥ أن تستولى إيطاليا — ثمناً لانضمامها إليهم فى الحرب — على ميناء أضالية وما حولها من أراضى آسية الصغرى الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، ولكن السياسة البريطانية لم تر من مصلحتها أن تسيطر دولة قوية كإيطاليا على هذه المنطقة الهامة من ذلك البحر ، وذكرت أن عليها لليونان ديناً يجب الوفاء به جزاء ما أسلفت لها من الخدمات فى أثناء الحرب ، فأوعزت إلى أثينا باحتلال إزمير وولاية آيدين وما يتيسر لها احتلاله بعد ذلك من غرب الأناضول .

ولقد هاج هذا الاحتلال خواطر الترك ، ورأوا فيه بعد معاهدة سيفر محاولة جديدة تحاولها أوربا المسيحية لتقضى على تركيا المسلمة وتتقاسم تركة آل عثمان ، فثاروا على اليونانيين ووقعت بين الفريقين مصادمات عنيفة أقلقت بال الحلفاء على مصير السلم فى الشرق الأدنى وأقنعتهم بأن الاحتلال اليونانى لن يستقر له حال ، وحملتهم على التفكير فى إيجاد حل نهائى للمسألة الشرقية كلها قبل أن يتطاير شرارها فتتلقفه روسيا البولشفية وتوقد به النار فى الشرق كله . ولقد انتهى ذلك التفكير إلى عقد مؤتمر دولى يسوى فيه الخلاف القائم بين تركيا واليونان ، فوجّه مجلس الحلفاء الأعلى دعوة إلى حكومتى الآستانة وأثينا لحضور هـذا المؤتمر الذى أزمع عقده فى أبريل

سنة ١٩٢١ . ولـكن يظهر أن حكومة اليونان خافت أن تجىء التسوية المطلوبة على حسابها وحساب الحقوق التى اكتسبتها فى آسية الصغرى ، فرفضت قبول الدعوة التى وجهت إليها ، وأبت إلا أن تجعل الحرب حكما بينها وبين تركيا وتعهدت للوندرة سراً بأن تأخذ على عاتقها مهمة قمع الحركة القومية التركية التى كانت بوادرها قد بدرت فى الأناضول .

وفى مستهل فصل الربيع سنة ١٩٢١ زحفت الجيوش اليونانية من إزمير قاصدة أنقرة عن طريق إسكى شهر وأفيون قـــره حصار جاعلة هدفها الأول الاستيلاء على سكة حديد الأناضول التى تعتبر بمثابة العمود الفقرى فى جسم تلك البلاد . وكان الجنرال بابولاس قد قسم قواه قسمين سار أحدهما صوب الجنوب واحتل مرتفعات دوملو بونار ، وباغت اللواء رأفت باشا مباغتة لم يستطع الثبات لها فسقطت أفيون قره حصار وسقط معها الجزء من السكة الحديدية الواقع فى تلك المنطقة . أما القسم الثانى فاتجه صوب الشمال وألقى نفسه أمام محمد عصمت باشا الذى تلقاه فى إينونو « In-Eunu » بضربة أجلته عن جميع مواقعه وردّته إلى النقطة التى ابتدأ منها هجومه واستردّ الترك أفيون قره حصار .

انتهت بذلك الدورة الأولى من دورات الهجوم اليونانى ، وهى كما رأيت لم تسفر عن نتيجة لصالح أحد من الفريقين ، ثم أعقبتها فترة استراحة واستجمام طالت أربعة أشهر تولى فى خلالها عصمت باشا قيادة الجبهة الغربية كلها وانصرف إلى استكمال ما كان ينقصه من ذخيرة وسلاح ورجال .

وجمعت حكومة أثينا جموع اليونانيين استعداداً للدورة الثانية فجندت كل يونانى قادر على حمل السلاح من سن السادسة عشرة إلى الخامسة والخمسين ، ورصدت على الحرب آخر درهم فى خزانتها ، واستمدت من لويد جورج الذخيرة والسلاح وملايين المثرى زوهاروف ، وأهابت بالشعب أن تلك خاتمة الحروب الصليبية وأن لا بدّ من ضرب الإسلام فى صميم قلبه أى فى أنقرة عاصمة الأناضول .

وفى التاسع عشر من شهر يوليو ١٩٢١ أى فى عزّ فصل القيظ والجفاف تحرك الجيش اليونانى الفخم تحت أنظار الملك قسطنطين ، وولى وجهه شطر كوتاهية ليتحاشى مواقع الترك فى إسكى شهر ، وهناك التقى مرة أخرى بعصمت باشا القائد التركى الموفق العنيد .

لم يهل عصمت باشا أن جيش العدو يبلغ فى العدد أضعاف جيشه ، ولا أن سلاح هذا العدو من أحدث طراز أخرجته المصانع الإنجليزية فى حين أن سلاح جيشه ملفق من كل طراز قديم ، ولا أن اليونانيين يهاجمونه بأربعمائة وخمسين مدفعاً ، وهو لا يملك نصف هذا العدد . لم يهله شىء من ذلك واستقبل العدوّ بابتسامته المستخفة التى لا تفارقه حتى فى أشد مواقف الهول ، ودار القتال عشرة أيام التحم فيها الجيشان ، وأطبق كل منهما على الآخر وأنشب أظافره محاولاً أن يلصق كتفيه بالرغام . وفى اليوم العاشر كانت المعركة على أشدها بين خصمين غير متكافئين فى القوة ، أحدهما يهاجم بكثرته ويرى النصر منه قيد خطوة ، والثانى يدافع مستميتاً وهو

يعلم أن فى خسران هذه الموقعة خسران الحرب كلها ، ولكن كل ساعة كانت تزيد فى حالة الجيش التركى سوءاً ، إلا أن عصمت باشا كان قد قرر أن ينتصر حيث هو أو يموت .

انسحاب الجيش التركى ومواجهة الصعوبات

وانتهت أخبار المعركة إلى مصطفى كمال فى أنقرة ، وكان يومئذ رئيساً للحكومة ولا صفة له فى الجيش ولا رتبة ، فرأى أن يزور ميدان القتال لتفقد الحالة بنفسه فسار إلى إينونو وألقى نظرة شاملة على الميدان واطلع على تقارير المخابرات عن حالة العدو وأدرك أن استمرار المعركة فى ذلك الميدان معناه فناء الجيش التركى وانهيار صرح الدفاع ، فآثر أن يختار لمنازلة العدو ميداناً آخر يستدرجه إليه فيبعده عن مراكزه ، وأن يكسب وقتاً هو فى أشد الحاجه إليه ليقوّى جيشه ويمدّه بما ينقصه ، فأصدر أمراً بوقف رحى القتال وبالانسحاب إلى ناحية الشرق وإخلاء إسكى شهر وأفيون قره حصار والتخلى عنهما لليونان .

قرار خطير فى موقف خطير يحمل صاحبه تبعات لا يقدم على حملها رئيس حكومة . ولكن مصطفى كمال كان قائداً موهوباً صحيح التقدير سريع الحكم لا يطيل التسديد ، ولكنه أيضاً لا يخطئ الهدف . ولقد أدرك أن العدوّ خائر العزيمة منهوك القوى يلتمس فترة للراحة فهو لا يستطيع أن يتعقبه فى انسحابه ولا أن يلاحقه ، فأشرف بنفسه على حركة التقهقر

وأدارها بمهارة أعادت إلى أذهان رجال الحرب ذكرى تراجع الروس أمام نابليون وتركهم إياه يتوغل فى بلادهم لينال طقسها القاتل من جيشه ما لم ينله الحديد والنار .

وفى أحد القطارات الأخيرة التى غادرت إسكى شهر قاصدة أنقرة ، كان مصطفى كمال جالساً مع بعض رجال أركان الحرب فى مقصورة حقيرة محطمة النوافذ يضيئها مصباح ينار بغاز البترول ، والهواء يداعب ذبالته كلما نفذ إليها من الغطاء الزجاجى غير المحكم . وكان الضباط ينظرون من النافذة فيرون أفواج الجيش المنسحب والرجال يجرّون سيقانهم جرّاً وقد تقوست كواهلهم من التعب ، وتسير وراءهم مواكب من عجلات ومركبات نقل تحمل ما بقى من مهمات الجيش وذخيرته ، وتأتى من بعدهم زمر من النساء والأطفال والشيوخ نزحت عن قراها فراراً من اليونان الذين ما دخلوا قرية إلا خربوها وذبحوا من فيها . فلما امتلأت أعينهم برؤية ذلك الشعب المهاجر وهو يحتمى بذلك الجيش المغلوب عادوا إلى أماكنهم وأخذوا يتحدثون .

لم تكن الهزيمة التى منوا بها أشدّ ما يحزّ فى قلوبهم ، بل كان أشده هو يقينهم بأن كل مقاومة باتت عبثاً خطراً إن لم تكن هى الانتحار بعينه ! فالأناضول بلد مساحته كمساحة فرنسا وألمانيا مجتمعتين، ومع ذلك ليس فيه إلا خط حديدى واحد يمتد من الشرق إلى الغرب وعليه يتوقف مصير الحرب ، وهو قد وقع فى قبضة العدو ووقعت معه جبهة القتال الغربية كلها

بما فى ذلك إسكى شهر وأفيون قره‌حصار ، وقد كانت هذه المنطقة أهم مورد لتموين الشعب والجيش ، فماذا بقى بعد ذلك ، وأى مقاومة تظل فى الإمكان ؟

ثم إن الجزء الداخلى من الأناضول هضبة مترامية الأطراف لا مسالك فيها للجيش ولا طرق للمواصلات ، والمساحات الزراعية فى تلك الهضبة مساحات ضيقة لا تفى بحاجة الجنود ، فما بالك بحاجة أهل البلاد ؟ فلماذا أراد الزعيم أن يتخلى عن المواقع الأمامية الصالحة للقتال وينسحب إلى ذلك القفر الحرب الكفيل بالقضاء على الجيش قبل أن يقضى عليه الأعداء ؟ وإذا كانت المسألة مسألة تجارب فلم لم يدع عصمت باشا يمضى فى تجربته إلى النهاية عسى أن تسفر عن نجاح ؟ .

وبعد ، فلو كان الجيش التركى كله محشوداً فى ميدان واحد لأمكن الاعتماد عليه إلى حد ما ، ولكن هذا الجيش موزع على ثلاثة ميادين متباعدة ، فجزء منه فى الجنوب يقاوم زحف الفرنسيين على آسية الصغرى ، وجزء ثان مشتبك فى قتال الإنجليز عند أزميد ، وليس فى استطاعة القيادة العليا أن تهمل هذين الميدانين لتعزز قواها فى الميدان الثالث الذى تصد فيه إغارة اليونانيين .

رجل الساعة

كان ضباط أركان الحرب يتحدثون فى ذلك بينما كان مصطفى كمال مكباً على خريطة عسكرية نشرها فوق ركبته وقد جعل يغرس فى مواضع

منها دبابيس ملوّنة الرؤوس ، وأخرى يحمل بعضها أعلاماً تركية ويحمل بعضها الآخر أعلاماً يونانية . فلما انتهى من درس الخريطة طواها وألقى من يده السبحة التى كانت أصابع يسراه تداعب حباتها الكهرمانية ، وأسند رأسه إلى المسند الجلدى وشخص إلى المصباح بعينيه ثم تساقطت من فمه هذه الكلمات : « أيها السادة ، بعد أربعة أسابيع سنضرب العدو ضربة قاضية » . فتبادل الضباط نظرات الدهشة أو الاستهان وأشفقوا على هذا المتفائل المجنون فلم يردّوا عليه .

أما فى العاصمة — أنقرة — فقد امتزج السخط على القيادة العليا باليأس من كل شىء ، فعبست الوجوه وتجهمت الأسارير ، وبلغت درجة الغيظ فى المجلس الوطنى حدّ الغليان ووقف المعارضون لمصطفى كمال يشهرون بخطته فى الانسحاب ويتوقعون من ورائها الطامة التى لا طامة بعدها ، ويؤكدون أن قضية الوطن صائرة إلى الدمار ما فى ذلك شك ولا ريب . ولقد اعتصم الزعيم بالصبر على هذه الحملات كأنما كان يدخر تدخله لموقف آخر أو لساعة يعلم أنها آتية عما قريب .

وظنّ خصوم الزعيم أن هذا الصمت اعتراف منه بضعف مركزه وإقرار بأن الحالة العامة مستعصية على العلاج ، فأرادوا — ليقضوا على هيبته القضاء الأخير — أن يلقوا على كتفيه العبء كله رجاء أن ينوء به أو يأبى حمله فيسقط من عليائه ويخمل ذكره ويعلم الشعب أنه ليس البطل الذى ارتسمت صورته فى أذهان الجماهير ، فاستصدروا من المجلس قراراً

بأن الأمة كلها تعلق الأمل الباق لديها فى النصر على شخص رئيس الحكومة وتكل إليه القيادة العامة للجيش .

وكانت هذه هى الساعة التى طالما ارتقبها الزعيم . فلم يكد المجلس يصدر قراره حتى ارتقى مصطفى كمال المنبر وأعلن أنه يشكر للمجلس ثقته به وحسن ظنه فيه ، وأنه يقبل أن يتولى قيادة الجيش ويحمل مسئولية إنقاذ الوطن ، ولكنه علق هذا القبول على شرط لا بدّ منه ، وهو أن يخوّله المجلس الوطنى كل سلطاته التشريعية والتنفيذية لمدة قدرها ثلاثة أشهر .

تردد المجلس أول الأمر أمام هذا الشرط وخاف مغبة تركيز السلطات كلها فى يد رجل لعله طماع مداور يسعى إلى الدكتاتورية ليصل من ورائها بوسائله الغامضة إلى عرش الخلافة والسلطنة ، ولكن إصرار الزعيم على شرطه قضى على تردد النواب ، فنزل له المجلس عن سلطاته المدة التى أرادها محتفظاً لنفسه بحق سحب هذه السلطات متى تراءى له وجوب ذلك .

شهد الله أن مصطفى كمال لم يكن الرجل الذى يتهيب المسئوليات أو يفر منها باشتراط شروط لا تقبل ، ولا الرجل الذى يستغل مصائب الشعب لحسابه الخاص فيتصيد لنفسه المنافع فى الاضطراب العام . ولكن الحالة الاستثنائية التى كانت البلاد فيها تتطلب إجراءات وتدابير واحتياطات استثنائية لا تتحمل بطء الدولاب الحكومى ولا الثرثرة التى لا حد لها فى المجالس النيابية . لذلك لم يكد الزعيم يتلقى من يد المجلس الوطنى تلك

السلطة حتى اعتلى المنبر مرة ثانية وقال : « إن ثقتى بأننا قادرون على قهر العدو لم تتزعزع يوماً من الأيام ، وإنى أجهر بكل ما فى نفسى من قوة أمام هذا المجلس وأمام الشعب والعالم بأننا سننتصر وبأنه لم يبق بيننا وبين النصر إلا أيام » .

ترى أكان الرجل مصدقا نفسه عندما ألقى هذا التصريح ، أم هى العزة أخذته فألقاه متأثراً بالموقف أو متمشياً مع ضرورات الساعة ؟ من يدرى ؟ ولكن مصطفى كمال لم يكن الرجل الذى يلقى الكلام على عواهنه ولا الذى يقامر بمصير أمته معتمداً على الحظ والمفاجآت . لقد كان حديد البصر ثاقب الرأى يحسن وزن المسائل وتقدير الأشياء ، لا يبهره النجاح فيغفل عما قد يقع من الطوارىء ، ولا يسكره التوفيق فيغريه بالمحال ، ولا يغالط نفسه ، فيلهيها بظفر الساعة عما هو متوقع أو محتمل الوقوع . لذلك كان قليل الكلام شديد الحذر ، لا ينطق إلا بقدر فلا تتجاوز عبارته حدود فكرته ولا تتجاوز فكرته حدود الممكن والمعقول . ولقد ضحى حتى يومئذ بآلاف وآلاف من شباب الجيل فى سبيل إنقاذ الوطن ، فهل يظل ، حتى لو انقطع الأمل ، يضحى بآلاف وآلاف فى سبيل تجربة طائشة أو تحقيق حلم مستحيل ؟

يقول الذين اتصلوا به فى تلك الفترة من حياته أن الهموم التى كانت تساوره كانت هموماً مضنية أثرت فى صحته أثراً ظاهراً ، فلقد تلونت سحنته بلون رمادى ضارب إلى الصفرة ، وانقبضت أسارير وجهه وغاضت الغضون

فى جبينه وحول عينيه ، وتبدّى العنف فى كلامه وحركاته ، وبات سريع الغضب سريع التهيج يتعذر فهمه على مخاطبيه ، كما يتعذر إرضاؤه على معاونيه .

المعجـــزة

أخذ مصطفى كمال على عاتقه إذن مهمة إنقاذ الوطن وتطهيره من الأعداء فى ظروف جعلت أشد أنصاره تفاؤلا يشكّون فى نجاحه بل يوقنون بفشله . ولكن المسئوليات الخطيرة تشحذ النفوس الكبيرة ، فلم يلبث الزعيم حتى تبدّى كفؤاً لتلك المهمة واستطاع أن يبثّ من همته هما فى نفوس أعوانه ، فبات كل منهم يرى نفسه قائداً مسئولا ويحسّ أن المصير رهين الجهد الذى يبذله والنصيب الذى يساهم به فى قضية البلاد .

لم تكن فى الأناضول مصانع للأسلحة والذخائر والمهمات يمكن الاعتماد عليها ، ولم تكن لدى الجيش طائرات حربية إلا ما وقع منها بين يديه من طائرات العدو المحطمة أو المحترقة ، ولم تكن لدى القيادة مؤن تفى بحاجة الجنود . عندئذ تجلت مواهب مصطفى كمال الإدارية فاستحالت البلاد فى أيام قلائل ميدان نشاط عسكرى واسع النطاق ، فبعض ما كان ينقص الجيش صار يصنع بالأيدى فى مصانع الحدادين والسباكين وفى معامل السروجية وورش النجارين وأفران الخبازين ، حتى الطائرات الحربية كانت ترمم وتصلح هناك جهد ما يصل إليه الإمكان . وصدرت القوانين

تفرض على كل بيت فى الأناضول أن يساهم بنصيب فى توفير المهمات للجيش بأن يقدم فى بحر أسبوع من يوم صدور القانون ملابس جندى كاملة .

ولم تكن فى الأناضول وسائل للنقل السريع ولا للنقل البطىء فصدرت قوانين تفرض على الفلاح أن يقرض الجيش ثيرانه وخيوله وبغاله ومركباته لمدة معينة تعاد إليه بعدها. ولما كان كل رجال البلد مجندين تحت السلاح فقد تولت النسوة والبنات تحميل تلك المركبات بالذخائر وقيادتها إلى المعسكرات وخطوط النار . وهكذا استطاعت عبقرية الزعيم أن تخلق الكثير من لا شىء ، وأن تعصر البلاد فتخرج منها خيرات تنفع الجيش .

بقيت مشكلة المال والمدافع ، والأناضول فقير لا يستطيع حكامه فرض ضرائب جديدة عليه . والتفكير فى عقد قرض من الخارج ضرب من الجنون إذ من الذى يقرض ماله حكومة ثورية مبتكرة غير معترف بها من الدول ولا من الحكومة الشرعية فى البلاد ؟ ولكن لابدّ من المال وإلا فلا حرب .

وهنا يتجلى نبوغ مصطفى كمال فى السياسة كما تجلى فى الحرب والادارة.

فكر الرجل فى روسيا البولشفية ورأى أنها دولة منبوذة من أوربا ، تحاول نشر دعايتها فى الدنيا فتجد نفسها محصورة داخل حدودها ، وفكر فى أن احتلال الإنجليز للبوسفور والدردنيل يجعل إنجلترا عدوة طبيعية لروسيا لأن بقاء هذين البوغازين فى قبضة الأسد البريطانى يغلق باب البحر الأسود ويقضى على الجمهورية السوفيتية بالحبس الدائم بخلاف

مالو بقيا فى يد دولة صديقة أو ضعيفة كتركيا . فكر مصطفى كمال فى ذلك ورأى أن يتودد إلى روسيا ويكسب عطفها على قضيته التى هى قضيتها . فأرسل رسله إلى موسكو يفهمون حكومتها ما لها من المصلحة فى معاونة الحركة الكمالية ويعرضون عليها أن تمدّ تركيا بالمال والسلاح لتستطيع إقصاء الإنجليز عن الدردنيل والبوسفور ولتسمح للدعاية البولشفية بأن تتسرب إلى الشرق الأدنى من طريق الأناضول .

واقتنعت الروسيا بنظرية مصطفى كمال فتدفقت ملايين الروبلات من خزائن موسكو إلى خزائن أنقرة وأخذت قطارات السكك الحديدية تنقل صاديق السلاح والذخائر والمدافع من كل صنف إلى الأناضول عن طريق القوقاز، وهكذا انحلت العقدة واستكملت تركيا أهبتها للحرب فى حين أن الشيوعية لم تكسب شيئاً لأن مصطفى كمال كان يقضى عليها فى الخفاء بوسائل لم يدركها البلاشفة إلا بعد فوات الأوان .

* * *

هنالك وراء مجرى نهير سقاريا والمستنقعات التى تغطى وجة الأرض فى تلك البقعة المحفوفة بالهضاب أمر مصطفى كمال بوقف الانسحاب وجمع أشتات الجيش وحفر الخنادق للقاء العدوّ . وقد حدث قبل وصول الجيش اليونانى بيومين أن خرج الزعيم على جواده يتفقد الميدان وقد أراد أن يرتقى مرتفعاً هنالك يدعى قره داغ (الجبل الأسود) فانزلقت مقدمتا الدابة فوقعت وسقط القائد تحت ثقلها فانكسرت ثلاثة من أضلاعه واضطر

رجاله إلى أن يحملوه وهو يكاد لا يعى من فرط الألم . ولقد رأى المتشاءمون فى هذا الحادث فألا سيئاً وتهامسوا قائلين : ما هذه المعركة التى تفتتح بكسر أضلاع القائد العام ؟ . ولـكن شد ما كانت دهشتهم عندما رأوه فى اليوم التالى يغالب الألم ويسير بجواده بين الصفوف ويقول : « هذا نذر من الله بأن هذه البقعة التى تـكسرت فيها ضلوعى سأكسر فيها العدو »

وفى اليوم الربع عشر من أغسطس سنة ١٩٢١ خفق العلم اليونانى فوق إحدى الهضاب غربى سقاريا ودوّى المدفع إيذاناً ببدء القتال ، ولم يمض النهار حتى كان الجنرال بابولاس قد عبر النهر بجيشه ووجّه هجومه شطر الجناح الأيسر للجيش التركى ليخترق الطريق إلى أنقره كما وجّه قوة أخرى صوب قره داغ الذى يمر من فتحة فى وسطه الخط الحديدى الموصل إلى تلك العاصمة .

كان الأتراك يعرفون قلّتهم ونقص عدّتهم ولـكنهم كانوا يعرفون أيضاً أن هذا آخر خط دفاع يحمى العاصمة فإذا سقط سقطت وانتهت الحرب واستولى العدو على البـلاد . لذلك كانوا يقاتلون قتال الراغبين فى الموت لا قتال المدافعين والمقاومين . ولقد كانت الصفوف تتحطم وتهوى ويبدو الفراغ فى مكانها هائلا مخيفاً فيهرع القائد فوزى باشا إلى التليفون طالبـاً النجدة فلا يتلقى من الزعيم إلا هذا الجواب : « استمروا »

ولقد استمروا اثنين وعشرين يوماً واثنتين وعشرين ليـــلة والمعركة مستعرة كالجحيم لا تخبو ولا تهدأ ، والترك لا يتراجعون عن موقع إلا ليعودوا

فيسترجعوه ، ولا ينزلون عن شبر من الأرض إلا بعد أن يتقاضوا ثمنه غالياً من المهج والأرواح . واشتدّ الحرّ وقلّ الزاد والماء وارتفعت حمّى النضال ، وأخذ كل من الجيشين بخناق الآخر واشتبكا فى صراع مرعب عنيف .

وكان مصطفى كمال قد جعل مقرّ القيادة العليا فى دار عتيقة بقرية ألاجوش القريبة من ميدان القتال ، وقد جلس فى إحدى حجراتها الضيقة أمام منضدة نشر فوقها خريطة الميدان وانكفأ عليها ليدرسها ويدبر المعركة وفقاً للأنباء التى تصل إليه ، فإذا أحس ضغط ضلعه المكسور على إحدى رئتيه نهض من كرسيه وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة وهو لا ينفكّ يصدر الأوامر والتعليمات . فإذا كان الصباح امتطى جواده وزار الجبهة وخطوط النار واطلع على التقارير وأبدى ملاحظاته للقواد ورتّب الجيش طبقاً لما تقتضيه الحالات الجديدة ثم قفل راجعاً إلى مقرّه مطمئن النفس هادىء البال .

لقد لازمه النصر فى كل المعارك التى قادها ، واقترن اسمه بجميع الانتصارات التى أحرزها الترك فى أنافارطة وأريبورنة وغيرهما من معارك الدردنيل فلا عجب أن كان لمجرد ظهوره بين الصفوف قوة سحرية تبعث النشاط والحميّة فى الجنود فتقوّى عزائمهم وتحيي ميت الأمل فى نفوسهم ، وتجعلهم إذا رأوه عابساً يدركون أنه غير راض ، فيضاعفون جهودهم ويستميتون فى القتال ، وإذا رأوه باسماً يطمئنون ويعلمون أن النصر قريب .

ولـكن حدث فى صباح السادس من شهر سبتمبر أن سقط قره داغ وقد كان أمنع مواقع الجيش التركى فأبلغ فوزى باشا هذا النبأ المزعج إلى مصطفى كمال ، فلم ينزعج بل قال : « قره داغ غير مهم فحافظوا على جل داغ » . وقبيل غروب شمس اليوم سقط جل داغ وانفتح طريق أنقرة أمام العدو فغمر اليأس النفوس وعمَّ الأسى القلوب . ولـكن الزعيم لم ييأس بل استدعى عصمت باشا إليه وقال له : « إن بابولاس فى الرمق الأخير وما النشاط البادى منه إلا الصحوة التى تسبق الموت ، وهو سيجمع الليلة معظم قواه ليخترق ميسرتنا وليقتحم طريق أنقرة ، فخذ أنت ما تستطيع أخذه من هذه الميسرة وقوِّ بها وسطنا وجناحنا الأيمن وهاجم بهما قلبه وميسرته وبذلك يقضى عليهما قبل أن يتيسر له استرجاع القوى التى عزَّز بها الهجوم على جناحنا الأيسر » .

ونفَّـذ عصمت وفوزى وكاظم قره بكير خطة الزعيم تحت ستار الليل فلم يتنبه لها العدو . وبينما كان بابولاس قد حشد معظم جيشه فى جل داغ إذ بعصمت يفاجىء قلب اليونانيين وميسرتهم بهجوم سريع عنيف لم يحسبوا له حساباً لأنهم لم يتوقعوه . فلما أفاق بابولاس من دهشته وحاول العودة بفرقه إلى أماكنها الأولى كان الأتراك قد أنزلوا ببقية جيشه هزيمة منكرة فلم يسعه إلا التقهقر فى غير نظام .

انتصار الأتراك

وعند منتصف الليل دقّ جرس التليفون فى مقرّ القيادة العليا وكان المتكلم فوزى باشا رئيس أركان الحرب وقد طلب التحدث إلى القائد العام . وتناول مصطفى كمال السماعة والضباط من حوله ينصتون وقلوبهم تكاد تقف فى صدورهم ، فسمعوه يقول : « هذا أنت ياباشا ؟ . استعدتم جل داغ ؟ .. حسن جداً . . ماذا ؟ . . أواثق أنت مما تقول ؟ . . اليونان يتقهقرون .. وبسرعة ؟ شددوا الضرب وابذلوا كل شىء . . العدو فى يدكم فلا تدعوه »

ولما طلعت الشمس كانت نيران العدو قد سكتت وكان اليونانيون ينجلون عن قره داغ ويعبرون النهر قافلين إلى مواقعهم الأولى وراء الضفة الأخرى . وبذلك تمت معجزة مصطفى كمال على شاطىء سقاريا كما تمت معجزة جوفر على شاطىء المارن . ومن عجائب المصادفات أو مدهشات القدر أن يتم انتصار الترك فى سقاريا فى السابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٢١ الموافق للذكرى السابعة لانتصار الفرنسيين فى المارن .

تبدّل الموقف وسيطر الترك على الميدان ، واستحال بابولاس مدافعاً بعد أن كان مهاجماً ، ووقف مصطفى كمال يدير المعركة بنفسه من فوق الصخرة التى تحطمت عليها ضلوعه ، ويرى اليونانيين وهم يتلمسون طريق النجاة خوفا من أن يلحق بهم الترك فيقطعوا عليهم سبيل الفرار .

عادوا إلى أماكنهم الأولى وراء النهر واستطاعوا أن يثبتوا فى وجه

الأتراك ستة أيام أخرى كانوا يقاتلون فيها قتال الخائر الذى لا تحمله ساقاه ، فلما رأوا ميمنة مصطفى كمال تتجه شمالا لتقوم بحركة التفاف تطوقهم بها لم يشأ قائدهم أن ينتظر حتى يقع بجيشه فى الشرك المنصوب فانسحب متقهقراً وظلّ يتقهقر حتى عاد إلى إسكى شهر وأفيون قره حصار . وهكذا غرق فى أمواه سقاريا ذلك الحلم البديع الذى زين للملك قسطنطين أن يبعث الإمبراطورية اليونانية القديمة ليقيمها على أنقاض دولة آل عثمان .

ألا فليحفظ المسلمون هذا الصنيع لذكرى مصطفى كمال فهو قد حفظ تركيا للإسلام ، وليمجدوا إسم « سقاريا » بين الأسماء ، فهو يذكرهم بإحدى المعارك الحاسمة فى تاريخ الإسلام[1] .

---

(١) للمرحوم شوقى فى تمجيد انتصار الأتراك فى حرب الأناضول وفى الإشادة بعظمة مصطفى كمال قصيدة قلما جادت بمثلها قريحة شاعر ولعلها أروع شعره على الإطلاق ، نقتطف منها هذه الأبيات وقد قالها مخاطباً بطل سقاريا :

تحية أيها الغازى وتهنئة ... بآية الفتح تبقى آية الحقب
وقيما من ثناء لا كفاء له ... الا التعجب من أصحابك النجب
قواد معركة ، وراّد مهلكة ... أوتاد مملكة ، آساد محترب
من فل جيش ومن أنقاض مملكة ... ومن بقية قوم جئت بالعجب
أخرجت للناس من ذل ومن فشل ... شعباً وراء العوالى غير منشعب

الفهرس

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة



